يا قلبها من أوجعك

رواية بقلم/

لطيفة قرناوط

جَمِيعُ الحُقُوقِ مَحْفُوظَة

عنوان الكتاب:

يا قلبها من أوجعك

المؤلف:

لطيفة قرناوط

تعاونية الفلاح، العلمة ولاية سطيف
البريد الإلكتروني: dar.elmaher@outlook.fr

الهاتف: 036.48.00.17
النقال: 07955670044
واتساب: 0021379560044

ISBN: 978-9931-762-55-3

DL: 01-2022

**

إهـداء

حبيبي الغائب ؛

كنت قد وعدتك ألا أتوقف عن الكتابة ، الأمر بعدك صعب جدا ، كلما كتبت حرفا وكأنني أغرز السكين أكثر في جرحِ رحيلك ، يا قلبها من أوجعك رواية بسؤال جوابه رحيلك أبي ، فها هي روايتي تحمل حبك لجزائرك ، الحب الذي زرعته بداخلنا ، وها أنا أرسلها الى روحك.

حبيبتي الحاضرة ؛

ربما لا أحد صار يقرأ الإهداء على الرواية ، الكل متسرّعِ للوصول إلى الحدث ، لا يملكون وقتا لقراءة الإهداء ، ورغم ذلك مازلت أصرُّ أن أكتب في كل كتاب أنشره إهداءً لك ، لأنني أعلم أنك تفرحين بهذه الكلمات التي أهديها إليك على بساطتها ، لك أنت ، أمي ، لك يا حبيبة الروح مازلت أكتب ، راجية أن أغزل لك في كل مرّة بكلماتي فرحة صغيرة أهديها لقلبك.

(لـطيفـة)

كلُ مَنْ كانَ قَبْلِي قد أَوْجَعَك

يُوجِعُنِي اليَومَ كلُ وَجَعِكِ

لَيْتَكِ تَصْرُخِين، لَيْتَكِ تَبْكِين

أنتِ فَقَط يَا حَبّةَ القَلْبِ تُكَابِرِين

وأَنَا المَذْبُوحُ فيك بِوَجَعِك

أُصَارِعُ مَاضِيكِ وَكِبْرِيَاءَك

أصَارِعُ فِيكِ صَمّتَ الأَنِين

أصَارِعُ دَاخِلَكِ جُرْحَ السِّنِين

لَيْتَكِ كِبَّرَ حُبِّي تُدْرِكِين

لَيْتَ قَلْبَكِ بَيْنَ جَنَبَاتِ قَلْبِي

يَهْدَأُ، يَرْسُو أَخِيرًا وَيَسْتَكِين

(لطيفة قرناوط)

الفصل الأول:

(صدفة اللّقاء، وتورط الاعتراف)

لا رجال، لا حب، لا أمان

استيقظ زياد فاتحا عينيّه على اتساعهما، وقد عادت مشاهد سهرة الأمس ترتسم أمام ناظريه، تَذكّرها وهي تومئ برأسها موافقة، وتمدُّ يدها التي طوَّق بنصرها بخاتمه الذي ألبسه لها، والذي كان بمثابة صك ملكيتها له، وأخيرا أصبحت خطيبته، وستصبح زوجته قريبا، أخيرا وجدها، أخيرا أقنعها، وأخيرا تملّكها، الحلم أصبح حقيقة.

ارتدى ملابسه بعد خروجه من الحمام، وهو يصفّر بفمه لحنا جميلا، اتَّصل بها على هاتفها لكنه كان مغلقا، خمّن أنها مازالت نائمة، لأنهما أطالا السهر ليلة البارحة، أو ربما لأن يوم الأمس كان مُتعِبا، بكل الجهد الذي بدلاه، ومُرهِقا في نهايته بطلبه الزواج منها، ربما لم تنم مثله فرحا وسعادة، وهي تحاول استيعاب أنها أصبحت خطيبته، وقريبا زوجته، قرر أن يتركها ترتاح، بينما هو يتمرغ في سعادة الذكرى ويتخيل نعيم الآتي.

في وقت الغداء، أعاد الاتصال لكن بدون جدوى، اتجه إلى غرفتها، طرق الباب عدة مرّات لكن لا مجيب، اتّجه إلى مكتب

الاستقبال أخيرا، يسأل الموظفة هناك، إن كانت تعرف شيئا عن (صوفي)، لكن الإجابة فاجأته:

ـ لقد سوّت حسابها ورحلت

ـ عذرا هل يمكنك التأكد، أظنّك مخطئة، بقي يومان على نهاية إقامتها هنا.

فترد هي بابتسامة واثقة:

ـ أعلم ذلك جيدا سيدي، لكنها سوّت حسابها قبل نهاية إقامتها هنا بيومين وغادرت الفندق، حتّى أنني سألتها إن كان هناك أي تقصير في خدمة الفندق يدفعها للرحيل، لكنها هزت رأسها نفيا، وطلبت مني الإسراع في إنهاء الأمر.

الصّدمة ألجمت لسانه وشلت تفكيره، هل يُعقل أن ما سمعه حقيقة، ربما من كثرة أحلامه بالمستقبل معها، دخل هذا الكابوس ليزرع فيه هذا الخوف الذي يستشعره الآن، لكنه مدَّ أصابعه وقرص ظاهر كفه بخفة، دون أن تلاحظه الموظفة، هكذا كان يقرأ في الكتب (قرصه ليتأكد أنه لا يحلم) يا إلهي لقد فقد القدرة على التفكير السليم، فأصبح يتصرف تصرفات طفولية حمقاء.

كانت صدمته كبيرة وهو يحاول استيعاب ما حدث، لقد رحلت، هكذا دون أن تخبره، ولماذا لا ترد على اتصالاته؟ لماذا قطعت عطلتها؟ أليست خطيبته بحكم ما حدث البارحة؟ فجأة اشتعل هاجس بداخل عقله، أتراها ذهبت متعمدة من أجل ما حدث البارحة تحديدا؟ ألم تقبل عرضه بالزواج؟ الآن وهو يستعيد في مخيلته تفاصيل ما حدث بالأمس، يتذكّر أنها لم تقل كلمة نعم، وطيلة الطريق لم تتحدث عن الأمر، ولا عن المستقبل، كانت صامتة بدعوى التعب والإرهاق، أغمضت عينيّها، وتركها هو تنام لترتاح قليلا، ربما لم تكن نائمة حتّى، كانت تدّعي ذلك، لكن لماذا قبلت طلبه إذن؟ لماذا لم تواجهه بعدها إذا كانت ترفضه وترفض الارتباط به؟ لماذا وافقت بالأمس، لتختفي اليوم هاربة، وتتركه لظنونه وهواجسه؟

أدرك بوجع يمزق أحشاءه، أن المرأة التي عشقها هربت منه، خطيبته هربت وداست على قلبه دون أدنى مبالاة، ودون أن يجد أي تفسير لتصرفها هذا.

****

في محل تجاري بحي شعبي من أحياء إسبانيا، يقف شاب أسمر البشرة بشعر أسود ناعم مرفوع إلى الوراء ولحية خفيفة جدا أعطته شكلا رجوليا لافتا، لم يكن ما يلفت إليه جمال المُحيّا ولا تقاسيم الوجه البسيطة، إنما تلك الرجولة التي تنبعث من حركاته وطريقته في الكلام بيديه اللتان تلوحان، تبدوان وكأنهما تحاولان ترجمة الكلمات بشكل غريب، كان هو يحاول التفاهم مع البائع، باللغة الفرنسية أو الانجليزية، بينما لا يجيد ذاك إلا اللغة الإسبانية.

كانت هي تراقب الحوار من مسافة قريبة، وهي ترى تأزم الوضع دون أن يصل الرجلان إلى طريقة للتفاهم، فتدخلت لتترجم الحوار بينهما، عندما اشترى الشاب ما أراده شكرها ممتنا وقدم نفسه، لتعرف تفسير حركات يديه الغريبة، فقد تعودت من معرفتها لبعض الجزائريين، استعمالهم حركة اليدين أثناء الحديث بشكل لافت للنظر، وقد تهلل وجهها سرورا وغبطة بصفة تلقائية، فوجدت نفسها تخبره أن والدها من أصول جزائرية، وأن جدّتها كانت تحكيها عن الجزائر بحب وشغف كبيرين، أخبرته

ببحة حنين ممزوج بألم خفي في صوتها، أنها من أصول جزائرية، حتى لو كانت تحمل الجنسية الفرنسية فسألها متلهفا:

ـ هل تجيدين الحديث باللهجة الجزائرية؟

أجابته بصوت بدا له منكسرا:

ـ مع الأسف لا، لم يكن والديّ يتكلمان العربية، والدتي كانت إسبانية

صمتت لوهلة ثم أردفت:

ـ جدتي لأبي حاولت تعليمي، لكنني كنت صغيرة عنيدة ومتمردة ورفضت تعلمها، وهذا شيء ندمت عليه فيما بعد.

رَقَّ لها قلبه وهو يتلمس انكسار نبرتها، فسألها متأملا أن تكون الإجابة هذه المرة بالإيجاب:

ـ وهل زرت الجزائر من قبل؟

لكن إجابتها خيبت أمله، وهو يسمعها تجيب بتنهيدة شوق وحسرة:

ـ تلك أمنية حياتي ووصية جدتي، لكن ظروفي لم تسمح بعد بهاته الزيارة.

محاولا تبديد حزنها، ابتسم ابتسامة ساحرة بانت على إثرها ذقنه البارزة بشكل ساحر وأسنانه البيضاء التي لفتها لونها الساطع، لكنها فكرت ساعتها أن أجمل ما فيه كان شعره شديد السواد، شديد النعومة، بتسريحته المرفوعة إلى الوراء، أو ربما عينيّه الضاحكتين بشكل تلقائي، أو ربما سمرة لونه.

قطع تأملها وتيهها، صوته المبتهج:

- اتصلي بي إذا رغبت في الحضور، عائلتي ستستضيفك مرحبة، وسأكون دليلا لك لأعرفك على أجمل المناطق في الجزائر وأجمل معالمها.

ابتسمت دون أن تجيب، غير راغبة في فتح هذا الباب، وقد أدركت أن الحديث يأخذهما إلى حيث توقفت عن الذهاب منذ زمن طويل، وهي لا تعرف حتّى مع من تتعامل، وتتحاشى الوقوع تحت سحر هذا الرجل الغريب، كما تتحاشى منذ زمن التورط مع أي رجل كان.

هكذا التقيا، كان ذلك مجرد لقاء عابر، صدفة تحدث في كل مكان في العالم مع اختلاف التفاصيل والأحاديث، لكنها هنا كانت أكثر

من صدفة، فوراءها كانت تختبئ ترتيبات قدرية، لم يدركها زياد ولا صوفيا ساعتها.

استأذنت هي للانصراف ولكنه كشاب اعتاد لقاءات السفر، والتعرف على أشخاص، يتبخرون من حياته بمجرد عودته إلى بلده، لم يكن يرغب إلا بصحبة ظرفية، مجرد رفيق غربة يتقاسم معه لحظات ممتعة، يتبادل معه كلمات ويعود كليهما إلى حياته.

طلب منها مرافقته إلى المحل الذي بعده لرغبته في شراء هدية مميزة لوالدته، حتى تساعده في التواصل مع البائع باللغة الإسبانية، ترددت بداية، لكنه توسل إليها بنظرة طفولية بعينين كحيلتين ناعستين ذكرتها بـ (آدم) فوجدت نفسها تتبعه إلى المحل الثاني والثالث... والعاشر، ومضى بهما الوقت يتنزهان بين المحلات، يختاران الهدايا، يعطيان رأيهما لبعضهما، يتسامران، يضحكان، يراهما الناظر من بعيد فيظنُّ أن معرفتهما تمتد لسنوات طويلة وليس لأقل من ساعة.

عندما انتبهت لمرور الوقت دون أن تشعر به، استأذنت في الانصراف، لكنه ترجاها أن تتناول معه الغذاء، رفضت بإلحاح، وتواصل رجاءه باعتبارهما أبناء بلد واحد، غريبين هنا فوافقت،

لكنه علم بعد ذلك من حديثهما على الغداء، أنها عاشت سنوات طويلة هنا في إسبانيا، رفقة والديّها عندما اضطر والدها للسفر بسبب ظروف عمله آنذاك.

استمر الحديث ليعرف منها اسم الفندق الذي تنزل به، وفوجئت به في اليوم الموالي مقيما في نفس الفندق، حاولت في البداية تحاشيه لأنها لم تكن ترغب في التورط في أية علاقة، وأوضحت له الأمر بطريقة صريحة عندما رأت إلحاحه المستمر على مرافقتها، لكنه أخبرها أنه لا يبتغي إلا رفقة طيبة خلال هذه الأيام، ولا يرغب إلا في صداقتها، وأنه لن يتجرأ على تجاوز حدوده معها أبدا.

كل شيء بداخلها كان يدفعها لرفض التورط معه في أي شيء، حدسها كان ينبئها أن التورط معه لن يمرَّ بسلام عليها، كانت تشعر بالخطر يهددها، من خلال شكله الذي تفوح منه رجولة عربية خشنة، تذكرها بحنينها الذي زرعته فيها جدتها للجزائر، تصرفاته التي تحيي بداخلها وصف جدتها لرجال خلقوا من طين الحرية، وعجنوا من ماء النخوة، كان رجلا لبقا يجيد التعامل مع امرأة، أنيقا، هندامه يسحر العيون على بساطته، ينبض بالحياة بشكل مبهج ومخيف في نفس الوقت، طريقته في نطق كلمات

باللهجة الجزائرية، عندما يزرعها وسط حديثهما باللغة الفرنسية، باعتبار أنها لا تجيد العربية، ولا اللهجة الجزائرية، كعندما يسألها (وش راكي) والتي تعني (كيف حالك) أو عندما تسأله هي كيف حالك فيجيب (لا باس ربي يهنيك) ابتسامته العريضة التي يستقبلها بها كلما رآها، متعمدا انتظارها أو صدفة يدعيها هو، وتمررها هي له، ابتسامته كانت تبتلع البُؤس من حولها، ليتحوّل داخلها إلى فرح غير مبرر، حديثه الذي يأخذها إلى عوالم متفرقة وهو يحكيها مغامرة من مراهقته، أو يصف لها أماكن غريبة، تعرّف عليها في سفراته المتعددة، أدركت من خلالها دون أن تسأله، ودون أن يُفصح هو صراحةً، أن ظروفه المادية جيدة، رجل يعشق السفر، يعشق الحياة، كان فيه شيء غريب يجذبها، ربما تلك الروح الشغوفة بمطاردة السعادة، بينما كانت هي تعرف أنها روح تجتذب إليها التعاسة دون قصد أو جهد.

كائنان متناقضان، كيف يمكن لهما أن يجتمعا؟ لكن شيئا في قلبها كان يدعوها أن تنسى أو تتناسى من تكون لفترة وجيزة، فقط فترة عطلتها القصيرة هنا في إسبانيا، أن تجاريه في فرحه، وشغفه، أن تنسى من هي، تنسى همومها ومتاعبها، تنسى ماضيها وحاضرها، أن تعيش كأنها عادت إلى قبل كل البؤس الذي

صادفته في حياتها القصيرة، تنسى كل شيء لتعود تلك الفتاة الصغيرة التي كانت يوما تعرف معنى الحلم، تجيد الضحك، تعيش يومها دون أن يشغلها هاجس غدها.

واستسلمت لهذا الإحساس معه، مجرد صديقين دون أية التزامات، دون تجاوزات، دون وعود، دون غد، فقط اليوم.

ما شدّها بعد ذلك ومنحها إحساسا بالأمان، أنه لم يحاول أبدا تجاوز حدوده معها، وفي كل ما كان يقصّه عليها لم يكن يتباهى بمصاحبة النساء، حتى أنه أثار شكّها فسألته يوما:

ـ هل عرفت الكثير من النساء في حياتك؟

توقف عن الضحك بعد سؤالها المفاجئ، نظر إلى عينيّها وهو يجيب بنبرة جادّة بدت لها صادقة:

ـ عرفت واحدة، عندما كنت مراهقا حاولت أن أجرب معنى أن أصاحب أنثى، ووجدت الأمر مرهقا، اتصالات، ساعات من الكلام الفارغ، هدايا، لقاءات لا تزيد إلا في الضغط على صعوبة تحمل اكتشاف أنني أتحول إلى رجل يغادر مرحلة الطفولة، بعدها

أنهيتُ الأمر برفق، والثانية كانت زميلتي في الجامعة وبين الاثنتين كانت هناك تجارب قصيرة عابرة، لا تستحق أن تذكر.

عندما رأت سكوته عن الكلام سألته في فضول، وقد شعرت أن الثانية كانت تستحق أن تذكر:

ـ ماذا حدث مع الثانية؟

أجابها بصوت حاول أن يجعله يبدو غير مبالٍ، لكن نبرة خائنة غلفته رغماً عنه وفضحت تأثره:

ـ تزوجَتْ قبل تخرجنا من الجامعة.

كان على وشك توجيه السؤال لها عن علاقاتها هي، لكنها قامت من مكانها راغبة في التمشّي، مغلقة الطريق عليه، وتبعها هو وقد نسيَ الموضوع بفتحها لموضوع آخر، لا تعلم لمَ شعرت من حديثه أن زميلته في الجامعة هي المرأة الوحيدة التي استحقت أن تذكر في حياته كامرأة؟ الأولى كانت تُرهات مراهَقة، بينما الثانية ربما كانت حب حياته، فالنظرة على وجهه وهو يتحدث باقتضاب عن تجربته الثانية جعلت سؤالا يحيي فضولها، أتُراها مازالت تسكنه تلك التي هجرته من أجل الزواج بآخر؟ أتُراها انفردت

بقلبه حتى ما عاد متسعٌ فيه لأخرى؟ أم أنه فقط لم يعد يرغب في عذابات مجانية، فملأ الفراغ الذي تركته بعلاقات عابرة؟ أسئلة لم تطرحها، ولم تكن تريد إجابات عليها، هو مجرد فضول أنثى، تكبحه لأنها توقفت منذ زمن طويل عن إشباع فضولها، عندما أدركت أن الفضول يفتح أبوابا قد تبدو سحرية ومغرية، وأن اتباع هذا السحر والدخول في نفق الإغراء، قد يؤدي في النهاية للوصول إلى الجحيم، وهي لم تكن ترغب في التعرف على جحيم جديد غير ذاك الذي أحرق روحها منذ زمن يبدو بعيدا، لكن الحروق لم تُشفَ يوما في قلبها، وآثارها مازالت تشوه روحها إلى الآن.

****

مرَّ الأسبوع كحلمٍ هاربٍ من الزمن، يكادان لا يفارقان بعضهما إلا ليلا، عندما يذهب كلٌ منهما إلى غرفته، رفيقان التقيا في غربة، لا التزامات، لا عهود ولا مستقبل، هي اللّحظة فقط دون قيود أو وعود، هكذا كانت تقنع نفسها وهي تشعر بسعادة غريبة برفقته، كم افتقدت أن تكون طبيعية مع البشر، أن تضحك عندما ترغب في الضحك، أن تتكلم عندما ترغب بذلك، أن تصمت لتتأمل منظر الغروب دون أن تشرح لماذا يغريها منظر الغروب

كما الشروق، ألاّ ترسم تلك التكشيرة على وجهها تحذر أي رجل قبل أن يتجرأ للاقتراب منها، ليحاول مغازلتها، برفقته كان الرجال لا يقتربون وكأنه أصبح فجأة سدّها الحامي، فسمحت لنفسها أن تُسقط جدران دفاعاتها في حضرته، أن تبتسم، أن تضحك، أن تركض، أن تعيش بلا قيود، أن تتصرف بعفويتها.

هي كانت تعلم أنها لم تكن جميلة التفاصيل المنفردة، لكنها كانت دوما فاتنة التفاصيل المجتمعة، عينان ضيقتان بلون بني عادي، أنف صغير وفم عادي، بشرة بيضاء صافية، وشعر طويل وكثيف بلون العسل، ربما شعرها كان أكثر ما يميزها، لكنها تعرف جيدا أنها لم تمر يوما كفتاة غير مرئية، كانت تمتلك سحرها الخاص، حتى أنها في فترة من حياتها كرهت هذه الميزة، واعتبرتها نقمة، وكان هاجسها المؤرق دائما (لمَ لا يتركها العالم تعيش في وحدتها بعيدا عن جحيمهم؟)

في اليوم السابع فوجئت بزياد يعترف لها بحبه، مدمرا تلك العلاقة التي ظنّتها مميزة، خالية من أي شيء، عدا عن كونهما غريبان التقيا في غربة فاستأنسا ببعضهما، صدّته بخيبة كبيرة وهي تذكّره أنهما اتفقا على ألا يكون الأمر بينهما إلا صداقة، وأخبرها أنه لم يكن ينوي أكثر من ذلك، لكنه لا يتحكم في قلبه،

وقلبه قد عشقها وانتهى، شعرت بالغدر، كأنه منحها حلما ثم سحبه منها فجأة، ودون سابق إعذار.

تهربت منه باقي اليوم مستاءةً منه، لقد ظنّته مختلفا عن باقي الرجال، وجدت فيه رفقة افتقدتها منذ زمن طويل، لكن ها هو يدمر كل شيء بحماقاته، لكنها وجدته مساءً بانتظارها أمام باب غرفتها، يدعوها إلى حضور السهرة التي يقيمها الفندق، رفضت لأن قبولها سيُعقد الأمور أكثر بينهما، ولم تكن ترغب بإعطائه أملا زائفا يتمسك به، لكنه أخبرها أنه رجل اعتاد على تحمل خيبات قلبه، وأن رفضها لحبه لن يفسد صداقتهما الوليدة، تذكّرت حينها عندما أخبرها عن زميلته التي تزوجت غيره قبل تخرجهما، وتساءلت وهي تنظر إلى عينيّه الكسيرتين (أكان الأمر قاسيا عليه؟ هل عشقها إلى حد الألم أم كانت مجرد علاقة عابرة لم يكترث لانتهائها؟) فضولها كان يدفعها لمعرفة الإجابة، لكن حذرها كان يمنعها من طرح أسئلة ستوصلها حيث لا ترغب بالوصول.

هي لا تنكر أن زياد أثار اهتمامها بشكل كبير كامرأة فقدت رغبتها منذ زمن في التورط مع رجل، كان زياد يكسر القاعدة التي وضعتها لنفسها، (لا رجال، لا حب، لا أمان) لكنها كانت

لاتزال متمسكة برفض خوضِّها لأية تجربةٍ معه، يكفيها ما تحمله من هموم في حياتها، حتى تضيف لها همَّ عِشق رجل واحتمال وجع العشق، لكن زياد كان يثير رغبة قوية داخلها بالاستسلام، رغبة غير مفهومة عجزت عن تفسيرها أو السيطرة عليها، وفي النهاية اختارت الاستسلام لمجرد حضور حفلة معه.

الفصل الثاني:

(خطبة، ففرّار)

ما أصعب أن يهيم المرء عشقا،

دون أن يرى العشق في عينيّ صاحبه

جالسان على طاولة واحدة عليها ما طلباه من أكل ومشروبات، كانا يستمتعان بعزف جميل لموسيقى (الفلامنكو) انتهت الفقرة ليدخل مطرب إسباني شاب لإحياء الجزء الثاني من السّهرة، في وصلته اختار المطرب أغنية عربية، عندما أدرك زياد أن الشاب يجيد الغناء بالعربية، اتجه إليه ليتحدث معه، بينما تراقبه صوفي دون أن تفهم تصرفه وحديثهما لا يصلها، عندما نزل زياد من المنصة غيَّر مكان جلوسه الذي كان مقابلا لها، إلى جانبها، بينما تنظر إليه متفاجئة لا تفهم تصرفاته، كان هو يبتسم بفرح طفولي، بدأت الموسيقى العربية، ليأتي صوت المطرب يغني أغنية باللهجة الجزائرية تكاد تكون سليمة لولا بعض اللكنة فيها، بينما راح زياد يهمس في أذن صوفيا شارحا الكلمات باللغة الفرنسية، عندها فهمت هي واستوعبت تصرفاته، كانت الكلمات تقول:

اليوم راني معاك غدوة تاني (اليوم أنا معك، وغدا أيضا)

متمني يكتب المكتوب ونكون حداك (بجانبك)

آه يا قلبي شوف هواك وين رماني

فوق بحر صافي بمواجه داني معاه (بأمواجه أخذني معه)

تبع رياح الحب وعندك حطني

ودعني وصاني وقالي حبيبك ما تنساه

آه يا الزينة ما درتي فينا (ماذا فعلتِ بنا)

أنا وقلبي حوسنا عليك ما لقينا

قالولي خرجتي فالظلام وعليا سولتي (سألتي)

في غياب لقمر بعيونك ضويتي

قالولي عليك نجمة يا نجمة ما بنتي

وين كنتي هذا شحال

قوليلي علاش هربتي

هيهي يا الزينة ما درتي فينا

أنا وقلبي حوسنا عليك ما لقينا

حالف ما نزيد نسال على لي هجرني

والعين لي بكات محال تسامحني

علاش يا قلبي هواك غدرني

راني مجروح شكون يداويني

آه يا رياح ودي نغامي

يسمعهم لحبيب يعرف حوالي

آآه يا الزينة افهمي لمعاني

حبيبك راه وكل مولاه العالي

اي يا الزينة مادرتي فينا

أنا وقلبي حوسنا عليك ما لقينا

(أغنية الزينة لفرقة بابيلون الجزائرية)

انتهت الأغنية التي كانت تحمل لحنا مميزا جعل الجمهور يتفاعل معها بتصفيق شديد، لتستدير هي مغيبة وتلتقي عيناها الغائمتان بدموع لم تعرف تفسيرها، بعينيّه الحالمتان بألم يعرف هو سببه.

كانت هي امرأة تستعيد إحساسها بأنوثتها الضائعة، على وقع همسه الصاخب داخل قلبها، وما أصعب أن تكتم امرأة أنوثتها

لسنوات طويلة، وكان هو عاشق يتألم من قرب معشوقة لا تبادله الغرام، وما أصعب أن يهيم المرء عشقا، دون أن يرى العشق في عينيّ صاحبه.

وبين أمله أن يفعل اليومان المتبقيان ما عجزت عن فعله الأيام السابقة، وبين رغبة في الهروب منه ومن رعشة قلبها وهي معه، تكاد تذوب بين يديه، انقضت الليلة بأحاسيس مختلطة وغريبة.

****

في الصباح اتصل بها يخبرها أن تجهز نفسها ليوم طويل معه ومفاجآت عديدة حضّرها لها، رفضت بإصرار لكنه ترجاها بإلحاح أن تنسى كل شيء وتستمتع فقط، كصديقين يقضيان عطلة مميزة، وجدت نفسها توافق دون وعي منها، بعد إغلاق الخط أدركت أنها ورطت نفسها معه من جديد، وهذه المرّة في يوم كامل لا تعرف كيف ستتحمله بقربه بعد الذي حدث بالأمس؟ ولكنها أعطته كلمتها وانتهى الأمر، ربما كانت تكذب على نفسها فداخلها يريد هذه الفرصة ويتوق إليها، رغم أنها تعلم أنها لن تذهب بعيدا في هذه العلاقة، هي فقط نافذة تُطل منها، تستنشق

هواءً نقيا، قبل عودتها لعالمها الملوث بالهموم عداه هو (آدم) الذي كان أجمل شيء في عالمها.

واستسلمت له، استسلمت لرغبتها وحاجتها للراحة، قضت معه اليوم كاملا، عادت طفلة تركض بين الثلوج البيضاء، تقذف كريات الثلج عليه، ويطاردها حتى يُسقطها ويسقط بقربها، فينفجران بضحكٍ طفولي مبهج، أخذها بعدها إلى مطعم جزائري في قلب إسبانيا، طلب عدة أطباق جزائرية، كانت الطاولة تكفي لأربعة أو خمسة أشخاص، لكنه أرادها أن تتذوق من كل طبقٍ، أرادها أن تتذوق شيئا من طعم وطنه، لعلّ الأذواق تسكنها فتذكّرها دوما به، أو ربما يسكنها حنين إلى من زرع فيها طعم هذه الأذواق، تذوقت طبق (التشخشوخة الحارة) المصنوعة من رقائق الدقيق الصغيرة الحجم المطبوخة بمرق حار جدا، بتوابل خاصة ومميزة، وجدتها بديعة في ذوقها، تذوقت (لمحاجب) المصنوعة من عجينة كبيرة تطوى على شكل مربع داخلها بصل وطماطم مصبرة على الطريقة العاصمية، تعرفت على طبق (اللوبيا) أو (الفاصوليا) الذي يعشقه الرجل الجزائري وكذلك (الكسكسي) الذي تذوقته سابقا، لكن برفقته كل شيء كان له طعم

مختلف، طعم السعادة والفرح، ربما طعم الأيام التي لا تحمل أي همٍّ.

كان المطعم يبث أغانٍ جزائرية عندما انتبهت إلى موسيقى رائعة سألته عن نوعها، فأجابها مسترسلا بشغف بيّن:

ـ إنها موسيقى أندلسية متأصلة في تاريخ الجزائر وثقافتها، تعود للقرن الخامس عشر بعد سقوط غرناطة ودخول الفارين من أهل الأندلس إلى الجزائر والموريسكيون الذين قامت الحكومة الإسبانية بتهجيرهم، الجزائر هي البلد الذي حافظ على النوبات الأندلسية بستة عشر نوبة من بين أربع وعشرين، إذ ضاعت البقية لأنها لم تدون كتابة.

ابتسمت وهي تسأله في شكل تأكيد:

ـ يبدو أنك مهتم بالموسيقى؟

فبادلها الابتسامة وهو يجيبها:

ـ مجرد هواية، اكتشفتها عندما كنت مراهقا، بدأت حينها أحلم أن أصبح موسيقيا كبيرا، لكن والدي قوَّم طموحاتي بدرس جعلني لا أفكر في هذا المجال مجددا.

سألته في فضول وقد شدّ انتباهها أكثر:

ـ ماذا فعل؟

اتسعت ابتسامته وهو يتذكّر أيام الصبا، رغم أن هذه الذكرى بالذات لم تكن تستحق الابتسامة:

ـ كسر قيثارتي، حلق شعري الذي كنت أطيله، على آخره، ومنعني من السفر في عطلة ذلك العام ومنعني من الخروج من المنزل، ثلاثة أشهر وأنا في البيت في العطلة الصيفية ممنوع من التلفاز والهاتف أو أية وسيلة اتصال بالعالم الخارجي، الوسيلة الوحيدة التي تركها لي لتمضية وقتي هي الكتب التي كانت تملأ مكتبته، من هنا أدمنت هواية جديدة هي القراءة.

كانت نظراتها تحمل دهشة كبيرة وهي تسأله:

ـ كل هذا لأنك أردت أن تصبح موسيقيا؟

ـ والدي كان يحلم منذ صغري بمستقبل آخر لي، فعندما رأى أنني أحيد عنه أعادني إلى جادة الصواب بطريقته، لكنني عندما أصبحت شابا اشتريت قيثارة جديدة أعزف بها لنفسي فقط.

فجأة نظر إلى جهة الصوت مع انطلاق أغنية جديدة وهو يقول لها:

- اسمعي هذه الأغنية إنها من أجمل ما أنشد في الطابع الأندلسي

كانت الأغنية تحمل لحنا عذبا غريبا، متميزا، أشعرها بالراحة رغم أنها لا تفهم كلماتها التي كان مطلعها يقول:

أيا ظريف الطول أجي نقولك

رايح للغربة، فبلادك أحسنلك

خايف يا المحبوب تغدا وتتملك

تعاشر الغير وتنساني أنا

حنينة حنينة يا حنينة يا

آه يا قمر سلم على غيابنا

بعدها أخذها إلى محلات تبيع مجوهرات مصنوعة يدويا بأدوات بسيطة، لأنها أخبرته في إحدى جلساتهما، أنها تعشق ما هو عتيق وما صُنع يدويا، اندهشت أنه كان منتبها لحديثها لدرجة أنه يذكر

هذه التفصيلة الصغيرة، التي ألقتها في معرض حديثهما، كانت كفراشة تحلق بين الألوان البديعة ما بين الأحمر والفيروزي، الأخضر والبرتقالي، الأزرق والأصفر، تجرب هذه وتنتقي تلك، بينما ينظر هو إليها سعيدا لسعادتها، متمنيا لو استطاع أن يأسر قلبها الذي يقاومه.

بعدها اتجها إلى (مقهى إرونيا) الذي كان يقدم خدمة المطاعم أيضا، أخبرها أن في هذا المقهى كتب (ارنست همنغواي) صاحب رائعة (الشيخ والبحر) أشهر مؤلفاته خلال القرن التاسع عشر ومنها (وداعا للسلاح، وليمة متنقلة، ولمن تقرع الأجراس)، الإضاءة الخافتة كانت تضيف جوا رومنسيا على المكان، كل هذا وهي غارقة في الاستمتاع، تسأل نفسها في تعجب من أين خرج هذا الرجل وما الذي وضعه في طريقها؟ كأنه حلم، رجل يعشق السفر، عارف بتاريخ الموسيقى، يعزف القيثار، ويقرأ لهمنغواي.

غارقة في هذه الحالة، ترفض أن تفكر بعقلها، تترك قلبها يسير دون قيود، إلى أن جاءت تلك اللحظة التي اقترب فيها عامل المطعم يحمل كعكة على صورة قلب، يحيط به عازفا قيتار يعزفان لها لحنا هادئا، بينما يتطلع هو إليها بعشق كبير، ليفتح

أمام عينيها المذهولتين، علبة مخملية تحمل خاتما بحجر صغير يلمع، وابتسامته تضيء المكان وهو يقول لها:

- تزوجيني

كلمة واحدة، كلمة كانت كفيلة بإرجاعها إلى الواقع، انسحبت الابتسامة من على وجهها وهي تنظر إليه مذهولة، كيف لم تلاحظ أن هذه اللحظة قادمة؟ كيف لم تعرف أن كل ما فعله في هذا اليوم كان يقودها إلى هنا؟ إلى هذا الطلب.

التفتت حولها على وقع شهقات خافتة سمعتها، لتجد كل من في المطعم ينظرون إليهما بعضهم مبتسما، والآخر فاتحا فمه مترقبا، بينما هناك أيدي مضمومة تحت الذقون كأنها تستعد للانطلاق في التصفيق بمجرد سماع ردها، عادت بنظراتها إليه لتجد ابتسامته قد انحسرت وأصبحت باهتة.

بدأ الشك يدخله وهو يسأل نفسه أتسرع في هذا الطلب، وهو يظن أنه بذلك يثبت صدق حبه، وعزمه على الارتباط الصادق بها، بينما رفضت هي حبه منذ يومين فقط؟

طال انتظار الناس، ووصلت همهماتهم إلى أذنيّها، أصبحت الوجوه متسائلة وأخرى مشفقة على الرجل المنتظر بقلق وتوجس، أترفضه أمام كل هؤلاء وتكسر كبرياءه ومعه قلبه؟ لكنها إن لم تفعل ستنكسر هي، منذ البداية كانت صريحة معه، هي لا تريد التورط في علاقة غرامية، لماذا يفعل بها هذا؟ ولماذا يفعل ذلك بنفسه؟ ستخذله، نعم لا بد لها أن تخذله أمام كل العيون المترقبة، ستخذله خيرٌ له من أن تخدعه، أناس غرباء سينسون وسينسى هو.

لكنها جالت مرّة أخرى بنظرها بسرعة على الوجوه المترقبة، وعادت لترى الإحراج والشك على وجهه هو، شيء في قلبها منعها من كسر قلبه الآن أمام كل هؤلاء الغرباء، فآثرت أن تحفظ له كرامته، الآن على الأقل، مدّت يدها ترسم ابتسامة خافتة على شفتيها، تلقت خاتمه وهي تومئ برأسها ما فهمه الجميع أنها موافقة، لتنطلق التصفيقات من كل من في المقهى مباركين، ويقف هو غير مصدق أنها قبلت عرضه، يأخذها بين ذارعيه للحظات وجيزة فقط، ثم يتركها وهو يشعر بارتباكها ورجفة خفيفة اعترت جسدها ويفسره خجلا.

في الغد كانت صوفيا قد تبخرت من حياته، كأنها جنية ظهرت فجأة لتختفي بعدها فجأة، أو كأنها حلم عاشه ليلة ومحته حقيقة نور الصباح بعدها، خطيبته أو من ظنّها كذلك هربت منه ومن حبه، وها هو قلبه يُطالب بها، وكبرياؤه تطالبه بتفسير ورد اعتبار.

الفصل الثالث:

(فراق، فلقاء، فزواج)

لقد جئت متأخرا بعدما احتل الحزن مدائن روحي،

وخسرت كل معارك الأمل في مقابل اليأس والألم؟

هي غادرت دون أن تترك له خيطا للوصول إليها، ورغم اتصالاته العديدة إلا أن هاتفها كان مغلقا طيلة الوقت، سكنه الهلع عليها بجانب الحنق منها، وتزاحمت بداخله التساؤلات هل حدث معها شيء؟ أم أن هناك من يرغمها على هذا البعد؟ لكن إجابة واضحة كانت تُسكت خوفه وتقتله، لقد غادرت دون أن تودعه، ذلك يعني بكل بساطة أنها قضت معه أياما تسلّت فيها به وبقلبه، كما تفعل الأوربيات عادة في عطلهن القصيرة، ثم تركته لغبائه وعذاباته وحيرته.

لقد كان مثل المجنون وهو يكتشف أنه عشقها في هذه الأيام القليلة بقوّة أرعبته، لم تكن إلا أياما قليلة، كيف يمكن أن يَكبُر الحب بهذا الحجم الرهيب، في فترة قصيرة كتلك التي قضاها معها؟ أسبوع، لم يكن إلا أسبوعا تمكنت خلاله من زرع روحها بداخله وإلقاء ظلال عشقها على حياته، لماذا يحس مع هذا العشق الكبير بهول الألم الذي سيلون أيامه القادمة؟ لكنه لن يرضى بهذا الضيّاع، عليه أن يعرف لماذا فعلت ما فعلته؟ لماذا رحلت بعد أن وافقت على الخطبة؟

لم يكن الفندق يعطي أي معلومات عن النزلاء، لكنه استطاع أن يحصل على عنوانها بفرنسا بالاتصال بأحد معارفه في السفارة الفرنسية، أخرج هاتفه النقال يتأمل صورتهما معا وهي ترفع يدها التي تلبس فيها خاتم الخطوبة الذي قدمه لها، نظر إلى ابتسامته العريضة مقارنة بابتسامتها الشاحبة التي تبدو له الآن مصطنعة ومرتبكة، ليدرك كم كان أحمقا وغبيا، أعماه عشقه فمنعه من رؤية الحقيقة، هذه المرأة لا تحمل على وجهها أي علامة من علامات الحب، بينما لم يرَ هو تمنعها إلا دلالا وعدم ثقة في حبه، فسعى ليثبت لها صدقه، لكن برغم ما وصل إليه كان عليه أن يفهم ما الذي حدث؟ ولماذا فعلت ما فعلته؟ لماذا وافقت على الخطبة وتركته دون أي كلمة أو تفسير أو وداع؟ كانت كرامته تطالبه بلقاء يستعيد فيه ما أهدرته هي، فهو لم يستحق أن تعامله بهذا الجحود، على الأقل إكراما للأيام التي قضياها معا، كان عليها أن تصدق معه احتراما لصدقه على الأقل.

****

طرق زياد الباب منتظرا رؤية خطيبته، وشوقٌ غريبٌ غادرٌ يرفرف بين جنبات قلبه، بالرغم من ذلك الغضب الذي يعتمل بداخله والحيرة التي تكاد تقتله، لكنه فوجئ بامرأة أخرى تفتح له الباب، انسحبت ابتسامته في حيرة وهو يقول:

ـ عذرا، أليس هذا بيت صوفي؟

لكن المرأة قطعت حيرته وهي تؤكد له:

ـ بلى، هذا هو بيتها من أنت؟

عاد صوته وهو يجيبها بابتسامة مفتعلة على شفتيه:

ـ أنا خطيبها

جارته المرأة في ابتسامته وهي تقول بتأكيد فاجأه:

ـ أنت زياد

أجابها وهو يحاول استيعاب صدمة أنها أخبرت هذه المرأة، التي لا يعرف من تكون عنه:

ـ نعم

فمدّت تلك يدها تصافحه وقد اتسعت ابتسامتها وهي تقول:

ـ مرحبا، أنا أماليا صديقة صوفي، يمكنك مناداتي ميلي

صافحها مرحبا، مستغربا هذه الحفاوة منها، ثم دخل البيت بعد أن أفسحت له الطريق إلى الداخل، ليتوقف فجأة وهو يرى معذبته تخرج من المطبخ، تحمل كوبين في يديّها وتتوقف هي بدورها بمجرد رؤيته، اهتزَّ الكوبان حتى تناثرت منهما قطرات من الشاي على الأرض، لكنها تمالكت نفسها متجهة إلى الطاولة لوضعهما عليها، ثم التفتت إليه تسأله:

ـ كيف عرفت عنواني؟

ابتسم ابتسامة مجروحة وهو يجيب بسخرية:

ـ أهذا كل ما يهمك؟ ألن تسلمي على خطيبك؟ أم أنك لم تشتاقي لهذا الأحمق؟

أوجعتها نبرة الاستهزاء في صوته، والتي أدركت أنها تخفي وجعا وخيبة لم تكن تريد رؤيتهما بهروبها، صمتت لا تجد ما تجيبه به، هي التي هربت خشية مواجهته.

لكنه عاد ليوجه لها سؤالا مباشرا، مؤكدا أنه جاء إلى هنا ليعرف الحقيقة:

ـ لماذا فعلت ما فعلته؟ أنا لحد الساعة أتمسك بحسن الظن ولا أريد أن أفسر الأمر كما يبدو، لماذا هربت دون إخباري بعدما وافقتِ على الخطبة؟

جاءه صوتها مؤكدا خيبته، ضاغطا على جرحه:

ـ لأنها كانت الطريقة الوحيدة للافتكاك منك، كنت تحاصرني من كل الجهات، رغم أنني أفهمتك أنني لا أرغب في الارتباط بك

بدت قاسية، لا تراوغ حتى، فسألها من جديد كأنه يبحث لها رغم ذلك عن عذر:

ـ لكنك وافقت على الخطبة؟

ـ لأنك أردت وضعي أمام الأمر الواقع، وكأنك تجبرني على القبول، كان يمكن أن أرفض، لكنني آثرت الحفاظ على كرامتك التي لم تحافظ أنت عليها بعرضك السخيف أمام ملأ من الغرباء، لم يطاوعني قلبي على إحراجك أمامهم جميعا

هذه المرّة انفجر ضاحكا ضحكة قصيرة لكنها حادة، تخفي ألم قلبه:

ـ يا لكرم أخلاقك عندما خفت عليّ من كسر كرامتي، لكنك لم تتواني لحظة عن كسر قلبي

فغرت فمها دهشة، كان اعترافه مفاجئا لها، رغم أنها كانت تعرف أنه يملك اتجاهها مشاعر معينة، ربما الإعجاب، أو هو سحر البدايات، لكنها لم تكن تدرك أن الأمر وصل به إلى كسر القلب، أصابتها الجملة بغصّة في قلبها هي، ولكنها لا تريد التراجع، هي لم تعد منذ زمن امرأة تصلح للحب، وهو لن يكون استثناءها في عزوفها عن الرجال، أرادت أن تقتل الأمل عنده كليا، فلينتهي هذا الهراء هنا والآن:

ـ خذ الأمر على أنه كان لقاءً عابرا يحدثُ كل يوم، التقينا صدفة وافترقنا كما يفترق ملايين البشر، الذين لا يتورطون إلا في لحظات مسروقة من الزمن.

كانت نظرته الآن تشتعل بنار الغضب، رغم كلماته التي ينطق بها ببرود بدا حقيقيا:

ـ معك حق، لقد استمتعنا معا، كانت أياما جميلة قضيناها، أفسدتها أنا بطلبي، لكنني أدرك الآن أنها كانت مجرد حماقة اختلقها حنين الغربة، على كل حال لا أظن أننا سنلتقي مجددا، القصّة انتهت هنا لأن الزمن قبض على السارق واسترد منه المسروقات.

سكت مغتصبا ابتسامة بالكاد أطلت من شفتيه، ثم أردف قائلا:

ـ وداعا

استدار خارجا بقامته المعتدلة، بينما قامتها هي تنهار على الأريكة، خرج مغلقا الباب وراءه لتلحق بها ميلي، التي كانت قد اختفت في المطبخ لكنها كانت تتابع حديثهما:

ـ لماذا فعلت ذلك؟ لقد جرحت كبرياءه

أجابتها والدموع تنهمر في صمت على وجنتيها:

ـ لم يكن ينفع غير هذا يا ميلي، لم يكن ينفع.

ـ أما آن لك أن تنسي أوجاع الماضي وتعودي إلى الحياة

فتجيبها بصوت مختنق:

ـ الماضي لم يمت يا ميلي، الماضي مازال يطاردني، ومازلت أنا غارقة فيه.

عانقتها صديقتها بينما صمت دموعها موجع، ونحيب قلبها يعلو، على رجل جاء متأخرا عن الفرح بأزمنة حزن متعاقبة، أهلكتها ولم تترك في قلبها مكانا للفرح.

****

بعد ثلاثة أشهر من تلك المواجهة، كان زياد مدعوا إلى حفلة شواء في منزل أحد أصدقائه الفرنسيين.

في بيت كبير تقام الحفلة في بهو حديقته الواسعة، كانت الصدمة بادية على وجه كليّهما، عندما قام (بيتر) بتعريفه على صديقته

(صوفي) تصافحا كأنهما غريبان يلتقيان لأول مرة، دون أن يفصح أحدهما بسابق معرفتهما، كان الأمر غريبا والنظرات تلتقي في وحشة، يريد كلاهما إخفاءها عن الآخر، حاول بعدها تجنبها باقي اليوم، حاول الاستمتاع متناسيا وجودها، لكنه أدرك أنه يريد أن يوصل لها كذبة استمتاعه، دليل نسيانه لها، لكن الكذبة كانت مفضوحة، فضحكاته كانت مهزوزة وحركاته متوتّرة، حتى نظراته المسترقة إليها كانت واضحة، حتى أخبره أحدهم وهو يمسك به متلبسا باختلاس النظر إليها: (لا تحاول إنها لا تحب الرجال)

كانت الجملة مربكة وهو يحاول استيعاب معناها، فقد كان الأمر دارجا هنا في فرنسا ليلتفت إليه متسائلا:

ـ تفضل النساء؟

انفجر الآخر ضاحكا، ثم أجابه وهو ينظر إليها نظرة هائمة، أشعلت النار بداخل قلبه المشتاق:

ـ هل هذا منظر امرأة تحب النساء، إنما هي امرأة التقت بأسوأ الرجال، فأغلقت أبواب قلبها للأبد.

انصرف محدثه متنهدا في أسى، بينما بقي هو ينظر إليها يحاول ربط كلماته بتصرفها معه، متسائلا إن كانت قد أحبت شخصا أساء إليها بالقدر الذي جعلها تكره بعده كل الرجال بما فيهم هو؟

اختفت عن عينيه وهو تائه في تفكيره، فانتقل إلى الشرفة الخالية، يحاول استنشاق بعض الهواء، لعلّه يهدئ من إلحاح قلبه الذي يطالبه بمعرفة الحقيقة بسؤالها، عندما سمع صوتا من وراءه، صوت لا تخطئه أذناه ولا قلبه الملتاع:

- أنا... آسفة

كان الصوت مرتبكا، مغلفا بنبرة حزينة وكأنه يصدر من شخص مريض يلهث وهو يحاول الكلام بصعوبة، هكذا بدا له صوتها قبل أن يلتفت، لكنه كان متأكدا بشكل لا يقبل الجدال أنها هي.

استدار على الكلمة المفاجئة، ليفاجأ بتحركها محاولة الرحيل، فيسرع الخطوات ممسكا بذراعها يديرها إليه قبل أن تغادر الشرفة.

كانت هي كمن خانه لسانه لتنطق بما يختلج في صدرها، محاولة الهرب عندما استوعبت ما قامت به لتوها، لحظة ضعف لا تعلم

من أين خرجت، جعلتها تنطق بتلك الكلمات، لقد توقفت عن حضور مثل هذه السهرات منذ مدة طويلة، ما الذي قادها اليوم إلى هنا؟ كانت تختنق منذ عدة أشهر، مذ جاءها ذاك اليوم إلى منزلها، وظنت أن السهرة قد تساعدها على النسيان.

قرَّبها هو منه ينظر إلى عينيها دون أن يترك ذراعها، لكنها كانت تنظر إلى الأرض، ترفض النظر إليه، مدركة أنها لو رفعت بصرها إليه، فلن تملك القدرة على التراجع، سمعت صوت أنفاسه المتصاعدة، وشعرت بوجهه يقترب من وجهها، ابتعدت وهي تقول بصرخة مخنوقة:

ـ لا

كلمة أفقدته السيطرة على أعصابه، ليجذبها من جديد وهو يقول بغضب عارم:

ـ لماذا أتيت إذن؟ أمازلت ترغبين بالتلاعب بي، أم أنك تريدين التأكد أن جرحك بداخلي لم يتوقف نزيفه؟

رفعت رأسها إليه غير قادرة على إخفاء وجعها، بينما عينيها تنهمر دموعا وهي تقول بصوت باكٍ:

ـ لست وحدك من ينزف، طلبت منك منذ البداية أن تبتعد عني، لكنك عنيد أحمق، رميت سهامك مسددا باتجاه قلبي، متسببا في الأذية لكلينا.

كان يحاول استيعاب كلماتها، هل كان هذا اعترافا بالحب؟ هل تعترف له أنها تنزف حبا منذ تركها كما ينزف هو وجعا؟ هل اعترفت له لتوها أنه أصاب قلبها، مثلما أصابت هي قلبه؟

تذكّر كلمات بيتر قبل قليل، ليربط تصرفاتها بمحاولة الهروب من حبه، هي التي آذاها حبيب سابق جعلها تختار أن تجرح حتى لا تكون المجروح، لكنها اعترفت لتوها أنها مجروحة مثلها مثله، نعم إنه اعتراف حب.

هدأت ثورة غضبه بعدما توصل إليه، وضع جبينه على جبينها قائلا بنبرة عشق أذابتها بلهجة جزائرية أهلكتها:

ـ (توحشتك يا جدك، توحشتك)

ليعيدها بالفرنسية (إشتقت إليك) وهو يدرك أنها لم تفهمها، بينما لم يكن من ترجمة لمغزى كلمة (يا جدك) التي يستعملها

الجزائري عندما يصل إحساسه إلى الذروة سواء غاضبا أو متأثرا.

ازدادت شهقاتها لتضع يدها على فمها تحاول كتمها، ولحسن الحظ أن الموسيقى كانت مرتفعة فلم ينتبه أحد لتلك الخلوة التي جمعتهما، ولا لتلك الدموع المنهمرة من عينيها، أمام صمتها وحالتها تلك، أردف هو قائلا بصوت غلفته اللهفة ولوّنه الرجاء رغم أن اليأس يسكنه:

- لو كررت طلب الزواج هل سأبدو لك كمعتوه بلا كرامة ولا كبرياء؟

انفجرت باكية أكثر وهي تذوب من نبرته ومن كلماته، كيف يفعل هذا بعد كل الأذية التي تسببت له فيها؟ لأي درجة وصل به عشقه ليجازف مرّة أخرى باحتمال إهدار كرامته إذا ما هي رفضته؟ تساءلت في داخلها بحزن كبير (أين كنت قبل الآن؟ لماذا جئت متأخرا بعدما احتل الحزن مدائن روحي، وخسرت كل معارك الأمل في مقابل اليأس والألم؟)

وجدت صوتها المهزوز يخونها مرّة أخرى:

ـ لا تفعل هذا أرجوك

ليخرج صوته متوسلا، في حشرجة أضعفت كل مقاومة بقيت لديها:

ـ لماذا؟

ـ سأؤذيك وستوجعني، وسنتمنى كلينا لو أننا لم نلتق يوما

فيرد بوله كبير:

ـ أنا موجوع بك ولا أحتاج لأن أتزوجك لأوجع بك

نظرت إليه، رفعت عينيها وذاك كان خطأها، فقدت أي قدرة على التفكير وهي بهذا القرب منه، عينيه في عينيها تسحبان روحها لتصبح أسيرته، وقد زادها رجاءه ضعفا وهي تسمعه يضيف:

ـ دعينا نجرب، دعينا نتزوج

ضعفت هي لصوته المتوسل ولعشقه الغامر الذي يجرفها معه، ضعفت أمام رجل أنساها في هذه اللحظات ماضيها، ليرتسم فقط جمال حاضرها وهي بين ذراعيه، ضعفت كمدمن كان يقاتل لشهور حتى يهرب من إدمانه، وها هو يجد بين يديه أروع أنواع

المخدرات وأقواها، ضعفت وهي تهز رأسها موافقة، غير مدركة لهذا الذي تفعله، سمعته يقول وعيناه تشتعلان بلهب اللهفة والشوق:

- الآن

لا تعلم كيف حدث ذلك، وجدت نفسها في المسجد أمام إمام يقرأ الفاتحة وشاهدين على عقد قرانهما، ثم تلقيهما للتهاني من الحضور الثلاثة، لقد أصبحت زوجته، ليخبرها زياد أنهما سيوثقان العقد بعد عودتهما إلى الجزائر، بعد أن يخبر والديه أنه وجد المرأة التي سيرتبط بها لبقية حياته، ولم تستوعب بعد ذلك، أكثر من تأكيد الإمام أن ما حدث الآن هو زواج شرعي، وأنها أمام الله أصبحت زوجته وحلاله على مهر مؤخر.

غادرا بعدها في سيارة زياد إلى بيت والده، والذي يقضي فيه زياد أيامه كلما جاء إلى هنا، كل ذلك وهي كالمغيبة التي لم تستوعب بعد ما فعلته، أو ربما لم تكن تريد أن تفعل، هي ليلة بين ذراعيه، ليلة واحدة في حضنه، قد تطفئ النار التي استعرت بداخل قلبها منذ تلك الليلة التي جاءها فيها إلى بيتها، لتخبره أنه لم يزد عن كونه غريب التقته في غفلة من الزمن، بينما عرفت

بعد رحيله أن روحها لم تعرف قبله أقرب منه إلى قلبها، ليلة واحدة وبعدها ستكمل الأقدار رسم طريقهما، ربما بخطين متوازيين لا يلتقيان أبد الدهر، وربما ستتقاطع أقدارهما بقدرة إلهية أو بمعجزة ربانية، لكنها الليلة ستعيش حلمها الذي أرقها منذ رحيله، ستنهل من حبه وتذوب فيه عشقا، وبعدها فليكن ما هو مقدر، ولا مفر من القدر.

عند وصولهما إلى البيت استأذنته من أجل إجراء مكالمة مهمة، عرف في بدايتها أنها تكلم صديقتها ميلي، ولكنها انسحبت لإكمال الاتصال في غرفة أخرى.

****

كان الصبح يكاد ينفلق من السماء التي يواجهها زياد، جالسا في شرفة الصالة يحاول أن ينفّس عن غضبه الجاثم على صدره، بينما زوجته نائمة في الغرفة، وهو يحاول الوصول إلى قرار يريح نفسه الهائجة بداخله، ففي عز التحامهما اكتشف أن زوجته لم تكن عذراء، صدمة اجتاحته في البداية، لكنه راح يحاول إقناع نفسه أنها فرنسية وإن كانت جذورها جزائرية، وأنها تربت حياتها كلها بين فرنسا وإسبانيا، حاول أن يواصل متغاضيا عما

اكتشفه، لكن رجولته العربية أبت عليه ذلك، حاول أن يتوقف لكن رجولته النابضة بين أحضانها منعته من ذلك، ليضيع بين الاثنين.

كانت هي نائمة بينما كان هو يحترق بغضبه، لماذا لم يفكر في شيء وارد كهذا، باعتبارها عاشت كل حياتها في أوربا؟ لماذا لم يسألها ولماذا لم تخبره هي؟ لم يستطع النوم وهو يتقلب على جمر الشك، كم رجلا كان قبله؟ كم مرّة فعلتها مع غيره؟ ألذلك علاقة بهروبها منه أول مرّة؟ ألهذا الأمر صلة بما قاله بيتر عندما أخبره أنها تعرفت على أسوأ الرجال؟ أهو من أفقدها عذريتها؟ هل سلمت له نفسها راضية أم أنه أخذها عنوة؟ أفكار كانت تأخذه إلى أقصى الغضب لتعود به إلى أقصى الشفقة، وهو لا يعرف على أي ضِفّة يستقر بين هذا الفكر الهائج، بين مدّ وجزر كان هو يغرق ولا يعرف أي مصير ينتظر علاقتهما التي لم تكد تتحسن حتى عادت إلى الهيجان.

عندما اشتد به التيه، ارتدى ملابسه وقرر الخروج قليلا والابتعاد عن مكان يشعر فيه بقرب أنفاسها، لعله بعيدا عنها يستطيع التفكير بأريحية ويصل إلى قرار سليم.

****

استيقظت من نومها تشعر بسعادة عارمة تجتاحها، على غير عادتها منذ سنوات طويلة، ترتسم ابتسامة واسعة على فمها، رفعت يدها تتحسس شفتيها بأصابعها وهي تتذكّر تلك الساعات التي قضتها بين ذراعيه، وكأنها دخلت الجنة، التفتت إلى الجانب الآخر من السرير، لكن سبب سعادتها هاته لم يكن هنا، استقامت جالسة وقد اختفت ابتسامتها وشرد فكرها بعدما عادت إلى الواقع، لقد مرّت الليلة بسلام رغم أنها تتذكر عندما توقف في وسط التحامهما وقد اكفهرَّ وجهه، ظنّت أن المواجهة ستكون ساعتها، لكنها عملت على ألا يحدث ذلك، استعملت حيلة الأنثى وأغرته فلم تعد له قدرة على المقاومة، وها هو الصباح قد حل، والمواجهة لم يعد منها مهرب، ارتدت ثوبها وخرجت تبحث عنه في الشقة، لكنها لم تجده، أخذتها الأفكار يمينا وشمالا، أتراه هجرها حتى دون أن يحاول أن يسأل أو يفهم؟ أم أن صدمته كانت كبيرة لدرجة عدم رغبته في الفهم؟ هذا وهما في بداية الطريق، فماذا سيكون منه عندما يعرف ما أخفته ولم يعرفه بعد؟

رغما عنها أصابتها الخيبة، لماذا كل الرجال أنانيون، لا يفكرون إلا بسعادتهم؟ ألا يوجد من بينهم استثناء أوَكلما وقعت هي في

حب رجل، اكتشفت أنها تعيد نفس الخطأ دون أن تتعلم أنه لا استثناء في الرجال؟ هكذا هي طبيعتهم وهكذا هو طبعهم.

اتخذت قرارها وقد اختلطت سعادتها الصباحية القصيرة بخيبة الأمل، وخطت كلماتها على ورقة من كراسة صغيرة وجدتها ملقاة على طاولة المطبخ.

عندما عاد زياد إلى المنزل فوجئ بعروسه غير متواجدة هناك بانتظاره، ضحك ساخرا على سذاجته، هو الذي كان يتخيل وجهها وهي بانتظاره، تلومه على خروجه دون إخبارها، ففكر في حجة يقدمها لها، اشترى لها قهوة جاهزة وكرواسون ساخنة، وإسورة من ذهب هي مهرها المتأخر، لم يكن قد اتخذ قرارا حاسما في الموضوع الذي أرقه طيلة الليل، لكنه كان ينوي الاستفسار حتى يفهم الأمر، وها هو يصاب بخيبة عدم وجودها في البيت، متى ستتوقف هذه المرأة عن مفاجأته؟ كلما انتظر منها ضعفا أنثويا فوجئ بقسوة تشبه قسوة الرجال، في المطبخ اصطدم بالورقة الجافة التي تركتها زوجته السعيدة في صباحهما الأول كزوجين، كانت الورقة تحمل عنوان منزل صوفي مع ملاحظة أنها بانتظاره وأنها خطت العنوان في حال قد نسيه منذ آخر مرّة، أخذ حماما بسرعة وارتدى ملابسه متجها إلى بيتها.

الفصل الرابع:

(المواجهة)

رغم أنف الوجع، لن يرى منها إلا هامة كبريائها،

وما أرفعها من هامة،

رغم أنف الجرح الذي يسببه لها الآن لن تريه إلا قامة كرامتها،

وما أطولها من قامة

عندما فُتح الباب، وجد زياد نفس المرأة التي فتحت له منذ ثلاثة أشهر، والتي ذكّرته باسمها الذي كان قد نسيه فعلا، لكنها هذه المرّة كانت تحمل فتىً صغيرا، يرتدي نظارات طبية سميكة، دخل البيت بعد أن أفسحت له الطريق إلى الداخل، ليتوقف فجأة وهو يرى الفتى ينزل إلى الأرض راكضا، متجها نحو زوجته يناديها بصوت متقطع بدا خائفا:

ـ ماما، ماما

ويرتمي في حضنها، فتعانقه هي وتقول له:

ـ أنا هنا صغيري، لا تخف أنا هنا

احتضنته تحاول تهدئته بهمسات متتالية قرب أذنه، حتى هدأ الصغير، بينما زياد ينظر إليهما في دهشة ارتسمت على ملامح وجهه المستنفرة وعيناه المتسعتان.

كانت هي تحاول السيطرة على أعصابها المرتبكة، وهي مدركة لحال زوجها دون النظر إليه، وقفت بعدها وهي تحمل الصغير مخاطبة إياه، بينما تمدّه لصديقتها التي اقتربت منها:

ـ صغيري اذهب قليلا مع " ميلي"

لكن الطفل تعلق بعنقها، يرفض تركها، فنظرت إليه مبتسمة وهي تقول:

ـ ستتشغِّل ميلي لك التلفاز لمشاهدة سبايس تون، ألا تريد ذلك؟

ابتسم الطفل مادّا ذراعيه إلى ميلي التي التقطته في حضنها:

ـ تعالى أيها الصغير نشاهد التلفاز معا

ثم وجهت كلماتها لصوفيا:

ـ سآخذه لشقتي حتى تتمكنا من الحديث براحة

اتجهت ميلي بالطفل إلى شقتها المقابلة لشقة صوفي، وهي تدرك أن آدم لن يحتمل النقاش، إذا ارتفعت الأصوات لحساسيته المفرطة ضد الأصوات العالية.

كان زياد يقف متفرجا على المشهد، ممسكا نفسه بصعوبة من شدة توتره ورغبته في فهم الذي يحدث، وكلمات الصغير تطرق رأسه طرقا (ماما، ماما) محاولا استيعاب ما سمعه ليصدم بجملة الصغير وهو يودع زوجته مؤكدا شكوكه:

ـ باي ماما

بقيت نظراته تشيّع الطفل حتى اختفى مع ميلي، وسمع صوت إغلاق الباب، فاستدار سائلا بلهجة متوترة:

ـ من هذا؟

كانت هي واقفة تمنع نفسها من الارتماء في حضنه، مشتاقة إليه حد الرغبة في البكاء، لكنها تدرك أن اللحظة التي كانت تخشاها قد حلت، ولا مفر من المواجهة، ودون تردد جاءه جوابها ليؤكد صدمته:

ـ إنه ابني

فتح عينيّه دهشةً، وقد اختلط عليه الفهم:

ـ ماذا تقصدين بابنك؟

ازدردت هي ريقها محاولة السيطرة على أعصابها، هي لم تأخذ الوقت الكافي لتحضر نفسها لهذه المواجهة، ما حدث البارحة أخلط عليها كل الأوراق، وهي لم تخبره شيئا عن حياتها الخاصة ولا عن ماضيها، لم تكن تستطيع أن تتصور ردّة فعله، لكن لم يعد بمقدورها الفرار من المحتوم:

ـ ابني من طليقي الأول

اتسعت عيناه أكثر وهو يسألها في تردد:

ـ الأول؟ وهل هناك غيره؟

ـ هما اثنان

كانت عيناه الآن تطلقان شرارات من نار من هول ما يسمع، حتى أرعبتها تلك النظرات، بينما شيء في قلبه ارتاح بشكل غريب وهو يجد تفسيرا يرضي حمق غرور رجولته حول ما اكتشفه ليلة البارحة، لكن نار الغضب بداخله تغلبت على كل شيء آخر:

ـ لمَ لم تخبريني بذلك؟

بالرغم من رعبها، إلا أن هاجسا مجنونا سكنها، فكانت تخاطر في هذه اللحظات، ربما بحماقة، وربما بأمل عاشقة متلهفة لتعرف جوابا له:

ـ لو كنت أخبرتك، هل كنت ستتم الزواج؟

اقترب منها يزأر غضبا، ويقينه يتصاعد بأنها قد استغفلته في إخفائها للحقيقة:

ـ إذن فعلتها متعمدة، أليس كذلك؟

لم يكن ذلك سؤالا بقدر ما كان تأكيدا على ما استقر في ذهنه، آلمتها نبرته وهي تدرك أنه لم يكن ليفعل، لكنها لم تكن مستعدة لإظهار ضعفها وانكسارها، هي منذ البداية رفضت أن تبني آمالا على علاقتهما الوجيزة، وإن كانت قد ضعفت بالأمس فقد آن لها أن تستعيد قوتها، إذا كان سيتركها فقد تركها قبله رجلان، وهي منذ زمن لم تعد تؤمن بالرجل العاشق، ما حدث ليلة الأمس كان عثرة منها بعد سنوات وقوفها الطويلة، سقطت ليلة البارحة ربما برغبتها في استراحة وجيزة، وربما لحاجتها الملحة للراحة، بكل بساطة فقدت وعيها من شدة الإرهاق، لكنها استعادته صباحا، فلتعتبرها استراحة المحارب إذن، ولتقف على قدميها من جديد، إذا كان يريد الخروج من حياتها فليمضي كما فعل من قبله.

ـ لم تترك لي الوقت لإخبارك بشيء وأنت تحاصرني وتصر على الارتباط بي، وأنت تدَّعي أن عشقك وحده يكفينا نحن الاثنين، يبدو أنك نسيت أنني رفضتك وحاولت إبعادك عني بشتى الطرق، بعد عرضك الزواج بي أمام عدد كبير من الغرباء، وكأنك تضعني أمام الأمر الواقع، وبالأمس لم أكن في وعيي، حتى وجدت نفسي أمام إمام يقرأ الفاتحة ليعلننا زوجين.

خرج صوته مخيفا، تغلفه نبرة الغضب الذي يحاول السيطرة عليه:

ـ الآن تريدين إقناعي أنني أرغمتك على هذا الزواج، أنك لم تكوني راغبة وأنت تخبرينني بموافقتك، أم تراها كانت خطتك في الإيقاع بي، وأنا كالأحمق ظنّنت أنك بريئة لدرجة ألا شيء سيقنعك سوى الزواج بي.

تتألم هي، لكن رغم أنف الوجع، لن يرى منها إلا هامة كبريائها، وما أرفعها من هامة، رغم أنف الجرح الذي يسببه لها الآن لن تريه إلا قامة كرامتها، وما أطولها من قامة، هي كانت متزوجة قبله قانونا وشرعا، وليس له أن يحاسبها على ذلك، وكأنها كانت عاهرة، فترد محاولة الثأر لكرامتها:

ـ ربما خيالك المريض صور لك ذلك وربما تحاول الإنكار، لكنك كنت هائما بي لدرجة أنك أشهدت مطعما بكامل الحاضرين فيه على حبك لي، بينما أكدت لك أنا منذ البداية أنني أرفض أية علاقة عاطفية معك، وبالأمس سألتك أنا ألا تفعل، بينما كنت تترجاني أنت أن أقبل الزواج بك، فمتى كنت سأخبرك أنني كنت متزوجة قبلك؟

صرخ بها فاقدا سيطرته على أعصابه:

ـ إذن فقد تزوجتني شفقة أيضا كما رضيتِ بالخطبة شفقة، يفاجئني كرمك في كل مرّة، ربما كان يمكنك إخباري قبل تقدمي بعرض الزواج مثلا، أو عندما كنت تتمنعين، كان يمكنك ذكر ذلك، أو البارحة بكل بساطة وكان كافيا لي حتى أتراجع عن ارتكاب حماقة الارتباط بك

كانت الجملة الأخيرة حادة كضربة سيف تغرز في فؤادها، جعلت قلبها يئن داخلها، كانت تلك إجابة واضحة على سؤال أرّقها، الآن أصبح حبه لها حماقة، لم تعد قادرة على احتمال الوجع وهي تجلس خائرة القوى على الأريكة، تجاهد لمنع انهيارها أمامه وهي تقول صارخة:

ـ لقد كنت متزوجة، بحق السماء أنا لم أرتكب إثما ولا جريمة، كنت متزوجة، ربما جريمتي أنني لا أجيد الاختيار، لا أدرك إلاّ بعد فوات الأوان أنني لا أقع إلا في حب الأوغاد ولا أتعظ، في كل مرّة لا أفهم الدرس حتى وقوع المحظور، ثلاث مرّات لم أستطع في كل مرة تبيّن حقيقة الرجل الذي أقع في حبه، الأول

تركني عندما اكتشف أنني كنت مجرد نزوة، والثاني رحل لأنني أنجبت طفلا مريضا، وها أنت...

قاطعها بإشارة حادة من يده، وهو يحاول استيعاب سبب انفصالها عن رجلين قبله، هذه المرّة كان دور كرامته في تلقي ضربة السيف الحادة، وهي تضعه في الخانة نفسها مع رجليّها السابقين، وهو يدرك واقع طلاقها لمرتين، ورغم ذلك انتفضت كبرياؤه صارخة وهو يجذبها من ذراعيّها موقفا إياها لتواجه غضبه:

ـ إياك أن تشبهي وغديك بي، أحذرك من الجمع بيننا حتى في جملة واحدة، ربما تسرّعي في هذه العلاقة منعك من التعرف عليّ جيدا، لكن لا شيء بي يمكن أن يشبههما، لا شخصيتي ولا أخلاقي ولا نسبي، أنا رجل لا يتخلى عن امرأته لأنها أنجبت له طفلا مريضا، ولا يتخلى عن ابنه، لأنه لا يشبه باقي الأطفال، ولست مراهقا تزوج بك في نزوة، ليتخلى عنك عندما يستفيق منها

رغم وجعها ضحكت ساخرة وهي تجيبه:

ـ وكيف تصف حالتك وأنت تخبرني أنك ارتكبت حماقة الارتباط بي؟ ربما لست في سن مراهق لكن تصرفاتك تشبه تصرفات

المراهق، وربما لن تتخلى عن زوجة أنجبت لك طفلا لا يشبه باقي الأطفال، لكنك ستتخلى عن زوجة لا تشبه باقي الزوجات، فلا تلمني عندما أشبِّهك بهما، كلكم سواء، تتحكم فيكم نزوة، وترضخون في النهاية لنظرة المجتمع وما يقوله الناس عنكم

هذه المرّة كان الغضب قد وصل به إلى ذروته وهو يصرخ بها:

ـ أقسم بالله لو سمعتك مرّة أخرى تضعينني في نفس خانتهما، لترينّ مني شيئا لا يرضيك، أنت امرأة حمقاء فعلا، لا أستغرب الآن أن يتخلى عنك الرجلان، لا بد أنك استفزيتهما كما تفعلين الآن معي

نطقت صارخة تجيبه بغضب وقد دنت خطوة تواجهه:

ـ أنا...

لكنه وضع كفه يكتم احتجاجاتها:

ـ لا تتفوهي بحماقة أخرى، كلما نطقت بكلمة تغرقين نفسك أكثر، بدلا من تفسير تصرفك الغريب في إخفاء الأمر عني، أو الاعتذار عن رحيلك المفاجئ دون إعلامي، تتغابين في ملاحظات تدفعني لقتلك

كانت نظراتها تلقي كلماتها التي يكتمها بكفه، والتي لم يستطع التكهن بها، فأزاح يده ليسمعها، فإذا بها تهدر محتجة:

ـ لماذا أعتذر عن حماقة أنت ارتكبتها؟ أنت من ورطنا في هذه الزيجة، لقد صددتك بكل ما أوتيت من قوّة، لكنك حاصرتني من كل الجهات، والآن تلومني أنا، بحق السماء لماذا كنت سأخبرك بقصّة حياتي؟ وكل ما كنت أحاوله هو إبعادك عنها، ومنعك من التوغل فيها.

صرخ هو فاقدا هدوءه المعروف به كدبلوماسي مستقبلي، درّب نفسه على كتم غيظه، بينما العرق النابض بجبينه يزداد بروزا:

ـ نعم أنا الأحمق الذي وقع في غرامك، أنا الأبله الذي لم يستطع مقاومة إغرائك، لكنك كنت تخططين للإيقاع بي بتمنعك المصطنع وإخفاء الأمر عني، كنت أنا مجرد نزوة، رجل جديد تستمتعين برفقته

أًصبح حديثهما الآن صرخات تتعالى، تهدر غيضا وغضبا:

ـ هل أنت مجنون أم تحاول إقناع نفسك بذلك حتى تداري عن أفعالك؟ أتريد أن تحملني ذنب هذه العلاقة وحدي؟ أهذا ما

سيرضي غرورك؟ لكنني لن أسكت عن ذلك، وأعلم أنك لن تصدّقه حتى لو أخبرتك أنا به، الحقيقة التي تعرفها أنت وأنا، أنني حاولت إبعادك عن حياتي ولكنك دخلتها عنوة رغما عني

ـ لأنني اختطفتك ربما، وأرغمتك على قضاء كل ذلك الوقت معي في إسبانيا؟ أو أنك ربما لم تصرحي بموافقتك على الزواج أمام الإمام والشاهدين؟

انفجرت وقد فقدت كل سيطرتها على أعصابها:

ـ بل لأنك أرغمتني على حبك أيها الأحمق، لم تترك لي فرصة الهروب منك، أحطتني بالمصائد من كل جهة، حتى وقعت فيها أتخبط في عشقك، وجئت وانتشلتني بطلب الزواج منك، جعلتني كمريض يموت، ودواؤه بين يديك، كذبيح لا حياة له إلا بين أحضانك، والآن تلومني لأنني قبلت الزواج بك؟ لأنني مغيبة عشقتك، مرغمة أحببتك، فعلى ما تلومني الآن، وأنت من جرنا كلينا لهذا؟

أكملت جملتها الأخيرة بصوت متهدج من أثر الضعف والوهن الذي أصابها، هدأت الأصوات إلا من زفير وشهيق متعب من قلبيهما المتألمان، المتخمان بالعشق، الغضب، والضياع، وكأنهما

وصلا إلى نهاية المعركة، لا يعرف أحدهما أخرج منها مهزوما أم منتصرا؟ أو حتى كيف أقحم فيها؟

ألقى بالعلبة التي كان يحملها على الطاولة، وهو يقول:

ـ هذا مهرك

ثم استدار غاضبا، مرهقا من هذه المواجهة التي أنهكته، خرج من البيت، صافقا الباب يحاول أن يتنفس وهو يحس باختناقه.

جلست هي على الأريكة، التقطت العلبة وفتحتها لتصطدم عيناها بسوار من ذهب مصمما تصميما رقيقا، به فصوص تبدو كأحجار كريمة مختلفة الألوان، يتدلي منها حرفيّ الصاد والزاد متعانقان، أول حرفين من اسمها واسمه، انهارت تدفن وجهها في كفيها، تنتحب حزنا على رجل لم يأت في موعده الصحيح، وها هو يغادر تاركا جرحا جديدا في حياتها البائسة.

الفصل الخامس:

(الزيارة المفاجئة)

كم يمقت قلبه المستسلم لها

حتى في ثورة غضبه منها،

وكأنه قلبها هي لا قلبه هو

مرَّ أسبوعان لم يظهر فيهما زياد، ولم تسمع عنه شيئا، كانت تحاول تعويد نفسها على تقبل هذه النهاية الموجعة، بتذكير نفسها أن المفروض أنها تعودت على انسحاب من تحبهم من حياتها بهذه الطريقة، لكنها الآن تتألم أكثر من أي مرّة خلت، يوجعها قلبها حد الاختناق، فتفتح نوافذ بيتها وتتركها مشرّعة، لتحاول استنشاق بعض الهواء لعلَّ قلبها يعود لانتظام دقاته، لكن هيهات فمذ خرج زياد من باب هذا البيت ونبضات قلبها تعاني عدم القدرة على تتبع بعضها بانتظام، تتخلف دقة أو دقتين وتتسارع عشرة كأنها تصطدم ببعضها، تكاد توقف ذلك النابض بداخلها، لتهدأ من جديد وتتباطأ كأنها ستعلن الاستسلام، تبتسم بسخرية وهي تحدث نفسها (اعترفي أن نبضات قلبك اختلط نظامها منذ دخوله إلى حياتك، وليس فقط منذ خروجه منها)

(أهي النهاية حقا؟ ويا لها من نهاية لقصّة لم تبدأ بعد)

شهقت وهي تضع كفها على فمها، أغمضت عينيها تحاول السيطرة على الألم في قلبها، لم تشبع منه، لم تأخذ وقتها معه، ليت الوقت بهما طال حتى تكتشف أنه سافل ككل الرجال، لكي يكون كرهه وإخراجه من قلبها سهلا، منذ البداية كانت تعلم أنها ستصل إلى هذه اللحظة، عندما تتضح حقيقته ككل الرجال، طالما

آمنت واقتنعت أن الرجال كلهم أوغاد، هي فقط كانت مأخوذة به، لكنه كان سيظهر على حقيقته لو استمر الوقت بهما معا، كانت ستكرهه، بعض الوقت، كل ما كانت تحتاجه هو بعض الوقت، لكنه لم يأخذ وقته الكافي، لم يتركها تمارس عليه طقوس حبها لتكتشف عيوبه وأنانيته تحت مجهر مراقبتها، فتعافه كما تعاف كل الرجال، بدءًا من والدها ومرورا بزوجيّها وبكل من عرفتهم قبله، والدها الذي كان من المفروض أن يكون سندها ودليلها في هذه الحياة، والدها الذي تخلى عنها عندما قررت الزواج بمجرد بلوغها سن الرشد، حرّم عليها دخول منزله وتبرأ منها، لم يحضر زواجها أحد من عائلتها، فقط أصدقاؤها من الثانوية هي وزوجها، عندما تعود بذاكرتها إلى ذكرى ذلك الزواج، يبدو لها كلعب طفلين اجتمعا في حفل مدرسي يحيط بهما زملائهما، بينما كانت هي تلعب دور العروس و(سمير) يلعب دور العريس، كانت مجرد مراهقة ملّت تعصب والدها والحصار الذي يفرضه عليها حتى لا تنفلت أخلاقها، كما كان يقول دائما، وكانت هي تتعجب منه ومن تفكيره هو وأمثاله، كيف يأتون للعيش في بلد أوربي لا يمت بصلة لدينهم ولا لأعرافهم أو تقاليدهم، وعندما ينجبون أبناءً يفرضون عليهم العيش في حصار، خوفا عليهم من

تأثرهم بهذا المجتمع، كيف يتزوجون من أجنبية ويطلبون منها أن تلتزم بعادات بلد كانوا هم أول من هجره؟ تربية والدها كانت خاطئة منذ البداية، مارس عليها عقده، ومنع عنها حبه وتفهمه، لو أنه احتواها واحتوى مراهقتها لاختلفت حياتها، كل أخطائها التي ارتكبتها جاءت نتيجة تمرد منها على والدها، وطريقته في جعلها تشعر أنها مجرد جسد امرأة في عالم أوربي ليس له دين ولا وازع، كل ما حاول والدها أن يزرعه فيها هو ألا تختلط بالشباب الذكور حتى لا تسوء سمعته وتصل أخباره إلى البلد، كان والدها يحاول منعها من أن تصبح صورة مكررة لوالدتها التي هجرته بمجرد بلوغها -هي ابنتها- السابعة من العمر، والدتها الإسبانية اكتشفت أن إغراء الرجل الأسمر العربي الذي يحبها بغيرة وتملك لم يعد يغريها، بل أصبحت ترى تصرفاته تعصبا وتخلفا، والدها الذي كان يتشاجر طيلة الوقت مع والدتها حول طريقة لباسها، وطريقة مشيتها وطريقة حديثها، وعلاقاتها المتحررة مع أصدقائها الرجال، كل ذلك كان يخنق والدتها التي قررت في النهاية هجره، ومعه هجرت ابنتها عائدة إلى إسبانيا، بلدها الأصلي وتركت ابنتها تتحمل وحدها عُقد والدها وجهله.

ابتسمت بسخرية وهي تفكر أن كل ما فعله والدها هو أنه دفعها لتصبح ما كان يحاول طوال عمره إبعادها عنه، ها هي مجرد جسد امرأة تلاعب به ثلاثة رجال، حتى لو كانت العلاقة في كل مرة زواج شرعي على الطريقة الإسلامية، كانت تصرّ هي عليها، إلا أن الحقيقة التي تراها الآن أنها كانت مجرد لعبة، حتى في يد آخرهم، فزياد تلاعب بقلبها وها هو يهرب بمجرد معرفته لماضيها وظروفها وقد حصل هو الآخر على جسدها، رجل أناني ككل الرجال، هكذا استقر تفكيرها برغم الألم الذي لا تجد له تفسيرا مقنعا، لقد أقنعت نفسها منذ زمن أن لا رجل في الدنيا يستحق أن تحبه امرأة، فلماذا هي من تعرف هذه الحقيقة أكثر من أي امرأة أخرى، تقع كالحمقاء في حب رجل؟ لماذا وقعت في حب زياد؟ لماذا؟

سمعت صوت طفلها وقد استيقظ من النوم خارجا من غرفته، يفرك عينيه الناعستين ويبكي، فاتجهت إليه تحمله محاولة بث الهدوء في قلبه:

ـ أنا هنا صغيري، لا تبك يا رجلي الوحيد، لا تبك

صمتت تهدهده حتى هدأ ثم نظر إليها وهو يقول بصوت متقطع:

ـ ماما، دم جاع (آدم جائع)

فأجابته سعيدة بكلماته التي بدأ بنطقها منذ أسابيع قليلة رغم بلوغه سنته الخامسة

ـ طعامك جاهز يا قلب أمك

واتجهت به إلى المطبخ لتقضي قرابة الساعة في محاولة جعله ينهي طبقه، الذي يحتوي على مأكولات خاصة بمن هم مثله ويعانون من مرضه.

****

عاد هو إلى الجزائر بخيبة قلب كبيرة، عندما غادرها كان متأكدا أن الغصّة في قلبه ستبقى وقتا ثم تنجلي، كما حدث ذات زمن عندما أحب زميلته في الجامعة، تلك التي تركته وتزوجت رجلا غيره، إحساسه ساعتها بالغدر كان قاسيا، لكنه تغلب عليه وأخرجها من قلبه، لأنه أدرك أنها لا تستحق عذابه ولا وفاءه لذكراها، غدر صوفيا سيجعله يكرهها، هكذا أقنع نفسه، لكنه اليوم غير قادر على السيطرة على هذا الوجع داخل قلبٍ لا يذكر اليوم إلاها (صوفي) لا يستطيع التحكم في شوقٍ يحمل كل ذكرياتها

إليه على قلتها، وكأنه ما عاش قبلها ولا عرف غيرها، حتى سكنه الشك في أن حبه السابق لزميلته لم يكن حبا، وكيف يكون كذلك وقد مات بمجرد رحيلها؟ بينما ما يشعر به اتجاه صوفي يرفض أن يموت برغم كل الذي حدث، وهل كان شعوره السابق حبا؟ وهو الذي انطفأ عندما قرر هو إخماده، بينما لهيب عشق صوفيا يستعر بداخله يصارع غضبه منها.

كيف يكون ما سبق صوفي حبا؟ عندما يكون ما جاء مع صوفي يقاوم بهذه القوة، محاولا تبديد كل الحواجز التي تقف بينهما، لكن حتى لو تغاضى عن تصرفاتها وحاول فهمها، فهو مازال عاجزا عن الاستمرار معها بعد كل ما عرفه عنها.

إنه حب مستحيل، رغم أنه يرفض أن يموت، لكنه لا يحتمل إلا القتل، وها هو يحاول فعل ذلك، لكنه كل ما حاول قتله وجد أرواحا جديدة تُخلق له، حبها كالقط بسبعة أرواح، بل بسبعين روحا تعيث عشقا بداخله، وهو العاجز عن المقاومة، المستسلم لهذا العذاب، المتلذذ به، هو الذي يموت شوقا لرؤية وجهها، فقط نظرة واحدة قد تساعده في احتمال الفراق من جديد، لكنه يعلم أن النظرة ستزيد اشتعال اللهيب الذي سيحرقهما معا، لذا كان عليه

أن يحترق من بعيد، ربما ستهدأ النيران يوما، ربما سيعيش حتى لو لم يتمكن من النسيان.

****

كان التلفاز يبث أغاني من القناة الفضائية الجزائرية التي تعودت مشاهدتها بعد رحيله، لا تفهم الكلمات، لكنها تسترجع ذكرياتها معه، المريرة والجميلة منها، بسماعها لهجته، تلك اللهجة التي عشقت نغمتها وتطرفها، عندما سمعت فجأة أغنية (الزينة) لفرقة بابيلون عرفتها من لحنها العالق بروحها، لتعود بها الذكريات إلى تلك الليلة التي سهرا فيها معا في حفلة أقامها الفندق بإسبانيا، عندما وقف وطلب من المغني تلك الأغنية الجزائرية، التي راح يشرح كلماتها في أذنها بنبرته التي سحرتها، أغمضت عينيها وراحت تستعيد همسه يومها في أذنها، تستعيد ترجمته للكلمات والجمل، وتستحضر وجوده في عقلها، فاشتعل الحنين بداخلها والشوق الذي لم يهدأ منذ رحيله، وللحظة شعرت به هنا معها، فمدت ذراعيها تتعلق به، تراقصه تشم عطره، وتستنشق رائحته، ثم تضمه بشدة فتشعر بالفراغ القاتل، وتعود لواقع أنه أصبح من الماضي، لم يبق منه إلا الذكريات الموجعة.

أخرجها من شجونها صوت قرع شديد على الباب، قامت مسرعة تفتحه لتجد رجلا يرتدي بدلة أنيقة مع ربطة عنق، ومعطف أزرق غامق يصل إلى ركبتيه، يقف وراءه أربعة رجال يرتدون بدلات رسمية سوداء، المنظر كان غريبا بالنسبة لها وغير مفهوم، لكن صوت الرجل الأول -الذي كان أكبرهم- يبدو في العقد السادس من العمر أو ربما تجاوزه ببضع سنوات، كان قاطعا وهو يخبرها أنه والد زياد ويريد الحديث معها، أفسحت له الطريق ليدخل والفضول يقتلها، لماذا جاء والده؟ هل أرسل أباه ليحل المشكل بدلا عنه؟ أم أنه ببساطة لا يريد رؤيتها ولا التعامل معها؟

دخل الرجل يتبعه رجاله الأربعة، جال بنظره على غرفة الصالة المتواضعة في مساحتها وأثاثها، ليعود بناظره إليها، كانت هي تنظر إليه برأس شامخة، وقد غدت واعية للمسرحية التي يلعبها الرجل بحضوره مع رجاله، وكأنه يريد إخافتها وإبراز علو مكانته وربما سطوته، لكنها لن تظهر أمامه ضعيفة أبدا، جاءها صوته أخيرا بلغة فرنسية سليمة، بنطق مخفف للراء بدل نطقها غينا كالفرنسيين، وكانت هذه طريقة نطق كبار السن الجزائريين على عكس شبابهم:

ـ سأدخل مباشرة في الموضوع، لأنني لا أملك الكثير من الوقت، لقد عرفت بعلاقتك مع ابني، جئت أطلب منك بالحسنى أن تخرجي من حياته، لأنني لا أريد اللجوء إلى أساليب أخرى

صمتت هي تنظر إليه رافعة حاجبها للأعلى، متعجبة من وقاحته ثم سألته:

ـ وإن لم أفعل؟

ارتسمت على جانب شفتيه ابتسامة ساخرة وهو يقول:

ـ علمت أن لديك طفلا صغيرا، مريضٌ جدا، المريض يمكن أن يموت في أية لحظة أليس كذلك؟

وقفت وقد أصابها الهلع، دون التفكير في إن كان فعلا قادرا على ذلك، وإنما إن كان يعني فعلا ما وصلها؟

ـ أهذا تهديد؟

وقف هو الآخر حتى لا يكون تحت مستواها، فتحس للحظة أنها تسيطر على الوضع، دون أن يفصح لها على أن ما وصلها هو

الحقيقة، لكنه أدرك أنه أصاب الهدف، وأنه أجاد اختيار مرمى سهمه في نقطة ضعفها:

ـ بماذا؟ أنا سألتك فقط عن طفلك

توترت خوفا وغضبا (من يظن نفسه؟ ولماذا يعاملها هكذا لمجرد أنها تزوجت من ابنه؟) لكنها لن تسمح لخوفها بالظهور أمامه:

ـ اسمع أيها السيد، ربما تظن أنك بهذا التهديد ستخيفني، أنت هنا في فرنسا، وأنا وهذا الطفل الذي تهددني بقتله نحمل الجنسية الفرنسية، وليكن في معلوماتك أنني لو خرجت من هنا وقدمت بلاغا ضدك، فستمنع حتى من الدخول إلى هذا البلد، فعد من حيث أتيت واعلم أنك لا تخيفني

انفجر الرجل ضاحكا، مبديا استهزاءه بكلماتها، رغم أنه لم ينتظر منها هذه القوّة:

ـ يبدو يا صغيرة أنك لا تعرفين أنك تورطت مع رجل له عائلة لها مكانتها ونفوذها، ولتعلمي أنك الآن أنت من تهددينني، بينما أنا لم أفعل شيئا سوى سؤالك عن ابنك المريض

سكت للحظة وقد تقلصت عضلات وجهه، ونبض عرق بجبينه ذكّرها بالعرق النابض في جبين ابنه عندما يغضب، استبعدت صورة هذا الأخير الذي تقتحم خيالها في هذه اللحظات، التي تحتاج فيها إلى كل تركيزها من أجل ابنها، لتسمعه يردف بنبرة حادة:

ـ ابتعدي عن ابني وعن مستقبله السياسي، لا تخربي حياته، فالحكومة إذا علمت بعلاقتك معه لن يُقبل أبدا في السلك الدبلوماسي، منذ ولد ابني وأنا أخطط لليوم الذي سيصبح فيه وزيرا، لا تعتقدي أنني سأدعك تدمرين كل ما بنيته طيلة حياتي وسعيت له

انفجرت هي غاضبة:

ـ عن أية علاقة تتحدث؟ وكأننا في علاقة شائنة أو محرمة أنا زوجته.

انفجر هو ضاحكا:

ـ يبدو أنك صدقت الكذبة، هذا الزواج الذي تتحدثين عنه ليس موثقا لا في السجلات الجزائرية ولا حتى هنا

ـ لكنه كان بإمام وشاهدين وكنا سنوثقه لاحقا

ـ ولماذا لم يفعل إلى الآن؟

ماذا تخبره؟ أنه عندما علم بماضيها وبوجود طفلها المريض، ذهب من غير رجعة، بماذا تجيبه؟ أنه خرج غاضبا ولم يعد.

أمام صمتها أكمل هو وقد أحس بأن الشك بدأ يراودها:

ـ هذه ليست أول مرّة يفعلها، وليست أول مرّة ألملم بقايا لعبه هنا وهناك، الإمام ليس إماما حقيقيا والشاهدين مدفوع لهما، وأنت لست أول من تصدّق الكذبة رغم أنك تبدين أكثر ذكاءً، لكن ربما كنت تبحثين عن غطاء فقط وهو سهل الأمر عليك

رفعت يدها لتصفعه ردا على إهانته لها، وقد اشتعل الغضب بداخلها، لكن يده كانت أسرع منها للإمساك بذراعها، وقد تحرك رجاله الأربعة باتجاهها، لكنه بإشارة من يده الأخرى أوقفهم:

ـ إياكِ أن تتناسي مع من تتعاملين، لأنني في المرّة القادمة لن أتغاضى عن سوء تصرفٍ منك

ترك يدها، ليترنح جسدها، ثم تتماسك بالكاد وهي تتكئ على الأريكة المجاورة لها، وقد أخرستها المعلومة التي ألقى بها على أذنيها، وانهار صمودها، رأته ينسحب هو ورجاله، يغادرون منزلها بينما سمحت لنفسها بالسقوط على الأريكة، غير مصدقة أنها وقعت في الفخ بتلك السهولة، ألهذا غادر بتلك السرعة كأنه كان ينتظر الفرصة للفكاك؟ كيف صدقته؟ كيف استسلمت لرغبته الجامحة في إتمام الزواج بتلك الطريقة؟ كيف سلمته نفسها ومعها روحها وقلبها حتى دون أن تعرف عنوانه بالجزائر أو اسم عائلته؟ يا إلهي الغبية تزوجت من رجل لا تعرف حتى اسم عائلته، كل ما تعرفه أنه شغفها حبا، أطار بعقلها وتعقلها، فلم تعِ لنفسها إلا وهي بين أحضانه، تظنّ أنها زوجته وتحمل اسمه، دون أن تعرف حتى هذا الاسم الذي تحمله، وقد تزوجته عن طريق فاتحة العقد التي قرأها الإمام الذي أحضره هو عليهما، بحضور شاهدين هو من أحضرهما، ودون أية وثيقة، أو حتى ورقة عرفية تثبت زواجهما.

انتفضت والشك يراودها، وهاجس مخيف يسكنها، أتراه كان إماما فعلا، أم ما يقوله والده صحيح؟ هل كان زواجا حقيقيا أم مجرد خدعة وتمثيلية؟

أيمكن أن يكون ما حدث بينهما في تلك الليلة المجنونة، لم يكن سوى (زنا) مارسته مع رجل غريب وهي تعتقد أنه زوجها؟

وضعت كفيها تغطي بهما وجهها، وكأنها تستفيق الآن على معنى كلام الرجل (يا إلهي لقد كانت علاقة غير شرعية، لقد وقعت في الحرام)

هي رغم كل سنوات الضياع التي عاشتها بين فرنسا وإسبانيا، إلا أنها أبدا لم تتعدَ هذا الحد في علاقتها بأي رجل، لقد تربت على يد جدتها (التبر) التي حرصت على أن تزرع بداخلها أن المرأة المسلمة لا يملكها إلا رجل اسمه زوجها، وهي حافظت على هذا القانون في حياتها، حتى بعد وفاة جدتها لأبيها، رغم أنها لم تكن تلك المسلمة المثالية بحكم نشأتها في أوربا بين أم إسبانية وأب جزائري حاضر غائب في حياتها، لكن تواجد جدتها في حياتها حتى سنوات مراهقتها، قبل أن يتوفاها الله، كانت نعمة حياتها الكبرى التي جعلتها تعرف الله، ولو بشكل بسيط يسمح لها بالعودة إليه بالدعاء على الأقل عندما تشتد عليها الأيام، رغم أنها لم تكن تلك الملتزمة بالإسلام، لكنها كانت مطمئنة بتعلقها بفكرة إيمانها أن لها ربٌ يتولى أمورها.

رغم أنها لم تكن تجيد العربية، لكنها مسلمة والفضل لا يعود لوالدها المسلم، إنما لجدتها، تلك التي زرعت بداخلها منذ الصغر تعاليم محددة، أوصتها ألا تحيد عنها، من بينها أن الزنا في كل الأديان السماوية كبيرة من الكبائر، وأنها ستخرج من رحمة الله إذا عصته في ذلك، علمتها أن الله ما أمرها أن تحافظ على جسدها، إلا لتحافظ على نفسها، فلا تكون ممسحة لشهوات الرجال، وأنها تستحق أن تكون زوجة مكرّمة لا خليلة ذليلة، ربما هي لم تكن مسلمة ملتزمة، وربما هي مقصّرة في الكثير من تعاليم الإسلام، لكنها كانت تضع لها حدودا لا تتخطاها، لذلك حتى زواجها الأول ورغم صغر سنها كان زواجا شرعيا، وكذلك كان زواجها الثاني، دائما أصرّت على هذا الأمر، وتمسكت به، وها هي اليوم ترتكب الزنا مع رجل ظنّت أنه أحبها، لكنه لم يسعَ سوى إلى جسدها، وهي كالحمقاء وقعت في الشرك، مغيبة لأنها سمحت لأحلامها القديمة بأن تطفو على السطح، تخلت عن أذرع حمايتها التي ترتديها منذ سنوات، وأرادت أن تأخذ استراحة المقاتل الذي تعب من القتال، فسمحت لنفسها بأن تحب هذا الرجل، لكن الطعنة جاءتها في وقت تخليها عن أذرع حمايتها،

وقد كان السيف مغموسا في سم قاتل يتسرب في جسدها رويدا رويدا، وأنى لجسدها المتعب أن يقاوم الموت حبا وغدرا.

****

ثلاثة أيام مرت وهي تائهة في صدمتها، تعيش حياتها بشكل يبدو عاديا، تهتم بطفلها، تواظب على مواقيت ذهابه ورجوعه من المركز المختص، مواعيد جلسات علاجه الفيزيائي، ومواقيت ممارسة السباحة، تهتم بأكله، بمواقيت نومه، وبمتابعته، ولكن عقلها لا يكف عن التفكير كيف حدث ذلك؟ كيف سلمت له؟ لماذا لم يراودها الشك للحظة؟

في اليوم الرابع تذكرت كمن يستفيق من غيبوبة، أنها تملك رقم هاتفه، اتصلت به عدّة مرّات دون رد، ليتأكد لها أنها وقعت في أسوأ الرجال خُلقا، رجل لا يتوانى عن خداع امرأة، من أجل الحصول على أيام يُشبع فيها غرائزه المريضة، ويا ليتها تشبع، الغضب كان يأكلها، لتجد يدها تضغط على أزرار الهاتف وتبعت له رسالة نصية (ليس كل ذكر يليق به حمل اسم رجل، لكن

والدك فضحك رغم أنك فضحت نفسك قبل مجيئه، وهو أكمل الباقي لتظهر صورتك الحقيقية)

ما كادت تتلقى رنة الهاتف دليل وصول الرسالة، حتى رنَّ هاتفها ليرتسم اسمه عليه، أخذت نفسا عميقا ثم أجابت:

ـ نعم

جاءها صوته الغاضب:

ـ ماذا تقصدين بهذه الرسالة الغبية، وما علاقة والدي بك

فجاءه صوتها بنبرته الجامدة:

ـ ما هو لقبك العائلي؟

ـ ماذا؟

ـ ما اسم عائلتك؟ أنا السيدة من؟

انفجر ضاحكا بسخرية، غير متوقع لسؤالها هذا:

ـ الآن تسألين؟ كان عليك طرح هذا السؤال يوم زفافنا وليس الآن

زاد توترها وقد بدأ شكها يتأكد، وزادت حدّة نبرة صوتها:

ـ لا تتلاعب بي زياد، أخبرني ما هو اسم عائلتك؟

أدرك هو توترها أخيرا وحدّتها، رغم أنه لم يستوعب حالتها،

وهو لا يدرك السبب، ولا يعرف ما كانت تفكر به

ـ هل حدث شيء في غيابي؟

ردت وقد ارتفع صوتها غضبا:

ـ بل حدث في حضورك، كيف استطعت فعل هذا بي؟ وأنا الحمقاء، كيف وقعت في الشرك بهذه السهولة؟

ازداد تعجبه دون أن يصل إلى ما ترمي إليه:

ـ ماذا هناك؟

ـ والدك زارني ووضح لي أي نوع من الرجال أنت

سألها متفاجئا:

ـ ما الذي أخبرك به والدي؟

فتصرخ به:

ـ أنك لا تستحق اسم رجل، برغم أخطائي الكثيرة لكنك كنت غلطة عمري، لكنني لن أسامحك أبدا وبيني وبينك الله

أغلقت الخط بعصبية قبل أن يفهم ما تود قوله، ولا ما فعله والده، حاول الاتصال مرارا وتكرارا لكن يبدو أنها أغلقت هاتفها.

غرقت هي في نوبة بكاء جديدة، ثم أخرجت هاتفها ووضعت رقمه في القائمة السوداء، وعادت لتفتح هاتفها وتخرج منه شريحة الهاتف التي عليها رقمه، وتترك الهاتف يعمل بشريحة واحدة.

مرّت أيام وهو يحاول الاتصال بها، حتى من رقم آخر غير الذي تعرفه هي، لكن دون جدوى، هاتفها كان مغلقا طيلة الوقت، بدأ القلق يكبر بداخله، هو لم يخبر بعد والده أنه تزوج بها، لذا لا يستطيع سؤاله، إذا كان ما فهمه من كلامها المبهم صحيحا، فهناك احتمال كبير بأن والده عرف، لكن هل عرف أنه على علاقة بها فقط أم أنه عرف أنه تزوجها؟ بما أن والده لم يواجهه فالأكيد أنه يظنّها مجرد علاقة عابرة، هل قالت أنه زارها؟ يحاول أن يتذكّر لكنه ليس متأكدا، المجنونة لم تتركه يفهم شيئا.

****

فتحت الباب لتتسع عيناها دهشة وهي تجده واقفا أمامها، وتتساءل عن كم الوقاحة التي يمتلكها ليقف أمامها بعد الذي عرفته عنه.

لم يحتمل حالة الضياع التي كان فيها، فطار إليها والغضب يملأ قلبه من كل ما تفعله به، هو غاضبٌ جدا منها وغاضبٌ أكثر من قلبه الذي مازال قلقا عليها، كأنه تغاضى عما فعلته به، غاضبٌ لأنها عندما قررت الاتصال به، لم يكن لتوضح موقفها، بل لتتهمه أنه ليس رجلا حقيقيا، غاضبٌ من كلمات ألقتها لم يفهم منها شيئا، وراحت تغلق هاتفها كأنها لم تفعل شيئا، لكن أشد غضبه، أنه الآن وهو يقف أمام بيتها، تسكنه تلك الرغبة القاتلة في احتضانها، وبثّها شوقه، نعم لقد اشتاقها كمراهق أحمق غبي لا يهمه من أمره إلا أنه عاشق مشتاق، وكم يمقت هذا الشوق الذي لا يهدأ، وهذا العشق الذي لا يموت ولا يستكين، كم يمقت قلبه المستسلم لها حتى في ثورة غضبه منها، وكأنه قلبها هي لا قلبه هو.

****

الفصل السادس:

(أهي النـهاية؟)

(قيل فيما مضى ما أجمل البدايات، وها هو قلبه يؤكد

وما أصعب النهايات، تلك الممزوجة بشوق البداية،

وحنين المسير، وخيبة الفراق،

هو قلبه من يبكي يُتمَه اليوم، وعقله من يلعن عجزه)

تقدّم بخطواته إلى الداخل غير مكترث بوقوفها مواجهة له مباشرةً، فتنحّت بطريقة آلية تفسح له الطريق خشية أن يصطدم بها ويدهسها في طريقه، نظر إليها شزرا وهو يحاول كتم غضبه، لتخرج جملته المتسائلة:

ـ ما كانت تلك الرسالة التي أرسلتها؟ وماذا كنت تعنين بتلك الكلمات الغبية؟

ودون وعي منها، وجدت الأسئلة التي أرقتها منذ تلك الزيارة المشؤومة لوالده، تخرج من فمها:

ـ هل زواجنا حقيقي؟ أكان الرجل إماما حقا؟ والشاهدين هل دفعت لهما فعلا؟

رأت وجهه يتحول في هذه اللحظة إلى أحمرٍ قاني، أو ربما كان أسودا، لا ليس لون البشرة، وإنما كان لون الغضب ما غطى ملامحه وعيناه تتسعان، تريدان افتراسها، بينما عرق يبرز في وسط جبينه ينبض بجنون، أخافها منظره هذا فسكتت متوجسة، تنتظر رده، ثم سمعته يقول محاولا السيطرة على غضبه:

ـ أتتهمينني بأنني عشت معك علاقة محرمة؟

رده زاد في اضطرابها، لماذا يبدو هو غاضبا الآن أكثر منها؟ أليس المخطئ هو، وما هي إلا ضحيته؟

أجابته بارتباك:

ـ والدك قال...

سمعت صوت زوجها زاجرا قاطعا جملتها:

ـ دعك من والدي الآن، أتظنّين حقا أنني قادر على فعلها؟

سكتت مرتبكة، لا تعلم بما تجيب، من أين لها أن تعرف إن كان قادرا على فعلها؟ هي لم تعرفه إلا لوقت قصير، لم يمنحا بعضهما الوقت الكافي ليتعرفا على بعضهما، لتجد نفسها زوجته في علاقة مجنونة، يضيعان فيها في بعضهما دون إدراك للعالم حولهما، لم يسبق لها وأن غرقت في حب رجل كما فعلت معه، فقدت معه قدرتها على التمييز، على السؤال، على الحذر، على التروي، والآن يسألها إن كانت تظن أنه قادر على فعلها؟ من أين لها أن تعرف ذلك؟

قاطع صوته ذهولها وضياعها:

ـ نعم ليس كل ذكر رجل، وأنا رجل لا يقبل على نفسه الحرام، ولا المذلة، ولا يقبل بالخيانة، أنا رجل لا تقبل رجولته أن يعيش مع امرأة لا تؤمن به، ولا تثق به، أنا رجل تأبى رجولته أن تتصاع لحب امرأة تتهمه أنها تزوجته مكرهة أو ربما شفقة.

استدار خارجا لتسمع صفق الباب فتنهار هي باكية، ما الذي يحدث لها؟ منذ عرفته وهي مسلوبة الإرادة، ضعيفة لا تجيد إلا البكاء، وما الذي قاله لها قبل أن يغادر؟ هي لم تتهمه بشيء، والده من اتهمه، لماذا يغضب منها هي؟ بينما والده هو من زرع الشك بداخلها، لم يلومها هي؟ بينما عليه أن يلوم والده الذي زرع الشك بداخلها، لماذا يريدها أن تثق به وهي لا تعرفه؟ ولا تعرف حتى لقبه العائلي، لا تعرف إلا أنها كامرأة معتوهة وقعت في حب رجل لا تعرف من يكون، فكيف لها أن تعرف ما هو قادر عليه، وما هو غير قادر على فعله؟

****

يومان بعدها، لم يدخل جوفها طعام، عدا الماء الذي كانت تروي به ظمأها، لم يكن عطشا بل كان جفاف حلق من شدّة البكاء، ظمؤها كان اشتياق روح للراحة، هو لم يؤكد لها أن ما حدث بينهما كان زواجا، لكن غضبه وردة فعله كانت كافية لتؤكد لها أنها زوجته، لا يمكن لرجل أن يغضب غضبته تلك لو كان مذنبا، هي تتفهم خيبة أمله فيها، لكن أليس عليه هو أن يعذر جهلها به، في ظل ظروف زواجهما الغريبة.

كان هو يراقب البيت، لم يعرف منها تفاصيل زيارة والده، ما الذي عرفه وما الذي لم يعرفه؟ لكن ما أقلقه هو شحوب وجهها كلما رآها في طريقها لحمل طفلها إلى عيادة الطبيب، أو إلى الروضة المتخصصة لمن هم مثله، مع اختفاء ابتسامتها، لكن جزءا منه كان راضيا عن حالتها، فلتعرف شيئا من العذاب الذي يرزح هو فيه منذ دخولها إلى حياته، فلتعاني جزءا يسيرا من معاناته هو، فليصبّها بعض الأرق الذي يعاني منه هو، وشيء من الحزن الذي يسكنه.

لكنه في النهاية، قرر أخيرا أنه حان الوقت لإجراء محادثة بين راشدين، يفهم منها ما كان في زيارة والده، ويتفق معها على

طريقة للانفصال دون مشاكل، واختار وقت تواجد الطفل في الروضة، طرق الباب ففتحت له لتتسمر مكانها.

دخل وجلس على الأريكة، وانتظر إلى أن جلست قبالته، عندها سألها، فقصّت عليه كل ما حدث في زيارة والده وكل ما قاله، رأت نظراته الغاضبة وذلك العرق النابض وسط جبينه والذي سبق وأن رأته، أصبحت تعرف عندما يُطل أنه غاضب جدا، عندها سمعته يقول:

ـ والدي لن يؤذي ابنك أبدا، إنه ليس مجرما، هو مجرد تهديد فقط لإخافتك، ليس من حقه أن يخيفك بهذا الشكل، لا أعلم ما الذي كان يفكر فيه، لكن أعتقد أنه أراد أن يضغط عليك بأغلى ما لديك، لقد عاش طوال عمره يحضر لي مكانا في الحزب الذي ينتمي إليه، حتى يتمكن يوما من ترشيحي لمنصب مهم في الحكومة، تنازل عن أشياء كثيرة وقدم خدمات أكثر، وهو يخبرنا أنها يوما ما سترد إليه عندما أحتاجها أنا، حلمه كان دائما أن أبدأ بمنصب في السلك الدبلوماسي، حتى أصل إلى الوزارة، لذا فمن الصعب عليه رؤية أحلامه تنهار أمام عينيه.

كانت يده تمسِّد جبهته، لتخفيض الضغط الذي يشعر به ليردف:

ـ تصرفه لم يكن مقبولا بأي شكل من الأشكال، لكن والدي غير قادر على إيذاء طفل صغير، هو لعب فقط على وترك الحساس ليلقي الرهبة في قلبك، وأظنه قد نجح في ذلك.

سكت هنيهة ثم رفع رأسه ينظر إلى عينيها وهو يقول:

ـ أما بخصوص زواجنا، كنت أتمنى أن تعرفي وحدك أنني لست بالرجل الذي يلعب بمشاعر امرأة ليحصل على جسدها.

صمتٌ ساد المكان بين مشاعر متضاربة من الألم والخوف، قطعه صوتها الحزين وكلماتها التي فاجأته:

ـ كل ما فعلته أنني تزوجت مرتين ولم أوفق، وكون ابني مريضا فذلك لا يسيء لأحد، إنه ابني أنا، وأنا أحبه كما هو

سمع نبرة الحب تلك في صوتها وهي تتحدث عن ابنها، برغم الحزن البادي عليها فسألها بفضول:

ـ ممَّا يعاني طفلك؟

ـ آدم، اسمه آدم

فاجأته النبرة الثابتة التي اكتست صوتها فسألها مجددا:

ـ ممَّا يعاني آدم؟

ـ طيف التوحد

لم يكن هو يعرف هذا المرض ولا أعراضه، صادفه اسمه أكيد، لكنه لم يتوقف يوما ليفهمه، أجابها بتلقائية أبانت عن جهله بالمرض:

ـ أتمنى أن يشفى قريبا

جاءه صوتها منكسرا:

ـ أطفال التوحد لا يشفوّن، هم يتحسنون فقط، التوحد ليس مرضا إنه اضطراب سلوكي.

صمتت قليلا ثم أردفت:

ـ التوحد هو حساسية زائدة ومفرطة في الحواس تتسبب بآلام عند المصاب بالتوحد، تسبب له ضعف في التواصل مع الغير، فيكون الطفل انطوائي، لا يتحمل الضوء، والصراخ والأصوات العالية، فيكون طفلا مختلفا عن باقي الأطفال، عندما ولد آدم لم يصرخ مثل باقي الأطفال، ومع الوقت أدركت أن لديه مشكلة، فلم يكن

آدم يستجيب لنداءاتي ولا للعبي معه ومناجاتي له، ظنّنته في البداية يعاني من مشكل في حاسة السمع، لكنني بعد أن عرضته على الطبيب، وبعد الفحوصات، وجدنا أن سمعه سليم، وشخَّصَ الطبيب المشكلة في أن لديه طيف التوحد.

كان يومئ برأسه متجاوبا مع شرحها حتى انتهت، وساد ذلك الصمت بينهما فقطعته بقولٍ، فاجأها هي قبل أن يفاجئه هو الآخر:

ـ أنا لست امرأة سيئة

نظر إليها محاولا إخفاء تأثره، وراح يجيبها مسيطرا على مشاعره المضطربة:

ـ الأمر ليس أنك امرأة سيئة، لكن الدبلوماسية ستجري تحقيقا عن المرأة التي سأرتبط بها، وإذا كنت أطمح يوما أن أصبح وزيرا، فإن ذلك سيكون عثرة كبيرة في طريقي، وسيتخذ خصومي ماضيك حجة ضدي، الحزب الذي أنتمي إليه يعتبر من بين أعرق الأحزاب الجزائرية، وأهم مبادئه المطالبة بالاعتراف بجرائم فرنسا في الجزائر، جنسيتك الفرنسية ستكون سلاحا في أيديهم، كما أن ابنك يحمل هو أيضا الجنسية الفرنسية، هناك

ماضٍ رهيب بين الجزائر وفرنسا أنت تعرفينه أكيد، وأنا عضو مؤسس في جمعية جزائرية أهم مطالبها استعادة الأرشيف الخاص بالجزائر والذي تخفيه فرنسا خشية افتضاح جرائمها أثناء استعمارها للجزائر، وكذلك تسليم مخطط زرع الألغام، والتي مازالت تنفجر إلى اليوم لأننا نجهل مكان زرعها، متسببة في عاهات مستديمة لضحاياها الأبرياء، واعتراف فرنسا بجرائمها المتمثلة في التجارب النووية في صحراء الجزائر في منطقة آهلة بالسكان، واسترجاع جماجم الشهداء الجزائريين المحفوظة في فرنسا والتي بلغت ستة وثلاثين جمجمة، من بين ثمانية عشر ألف جمجمة، تمَّ التأكد من هوية أصحابها، والتي تعود لستة وثلاثين قائدا من المقاومة الجزائرية، تمَّ قطع رؤوسهم بوحشية وأخذها إلى فرنسا، كلها موضوعة في علب من الورق المقوى في متحف الإنسان بباريس، لكن رفض فرنسا إعادة الجماجم ورفات شهدائنا لتكريمهم ودفنهم، ورفضها تقديم اعتذار رسمي للجزائر والاعتراف بأفعالها كجرائم حرب في فترة استعمارها للجزائر، وتسليم خرائط زرع الألغام، وتسليم الأرشيف، كل ذلك جعل القضية مفتوحة ترفض أن تُغلق، وسيجعل من زواجي بامرأة تحمل هي وابنها الجنسية الفرنسية عقبة في طريقي، إنه مستقبلي

الذي عشت ووالدي سنوات نخطط له ونسعى إليه، الأمر شائك ومعقد جدا.

لم يكن يعلم، أهو الخوف من الفقد، ما يجعله يأتي بكل هذه المبررات؟ أم أنها الحقيقة التي يصطدم بها ارتباطهما؟ لكن ما كان يدركه فعلا في هذه اللحظات، أن زواجه منها أدخله في ورطة كبيرة، وأن والده لن يسمح باستمراره.

ـ لكنك كنت تعرف عندما طلبت الزواج مني، أنني أحمل الجنسية الفرنسية

ـ أجل، لكنني أيضا كنت أعرف أن والدك يحمل الجنسية الجزائرية، ولم يتخلَ عنها، وفكرت في إمكانية طلبك الجنسية الجزائرية بناءً على ذلك.

ـ وما الذي تغيّر الآن؟

لا تعرف لماذا تناقش معه الآن هذه الأمور؟ وما بينهما انتهى منذ علم بكل ظروفها، وهو يعتقد جازما أنها أخفت عنه كل هذا للإيقاع به.

صوته كان خفيضا كأن الحسرة تغلفه:

ـ كان ذلك السبب الوحيد الذي كنت سأحارب من أجله، زوجتي تحمل الجنسية الجزائرية، لكن أصولها من والدها، جزائرية وها هي تعود لأصولها، أما اجتماع كل هذه الظروف سيجعل الأمر صعبا جدا.

أيقنت الآن أنه يتخلى عنها بكل بساطة، لا يريد أن يقاتل من أجل امرأة بكل هذه الأمور المعقدة في حياتها، امرأة تحمل الجنسية الفرنسية هي وابنها، متزوجة ومطلقة مرتين، لها ابن مريض لن يكون يوما شخصا عاديا أبدا، ووالدتها اسبانية، لقد اختار مستقبله، إذن لم تكن سوى نزوة في حياته وقد مرَّت، فها هو يحاول مواصلة السير، دون العقبات التي قد يسببها له تواجدها في حياته.

بصعوبة بالغة وهو يتخبط في ضياعه، بين مشاعر الرأفة والتعلق بها، تنازع الرغبة في إلقاء كل شيء وراء ظهره والبقاء معها، أو إنهاء هذا الزواج هنا والآن، انتصب واقفا يحاول حسم الأمر وهو يقول:

ـ سأرحل الآن...

سكت بعدها غير قادر على إكمال الجملة، ولا على اتفاقه معها على موعد طلاقهما، وهو يتوجه إلى الباب وخطواتها تتبعه، استدار ينظر إليها نظرة شوق بدأ منذ الآن، وهو يسأل نفسه إذا كان الشوق وهو يراها مؤلم إلى هذه الدرجة، فكيف سيكون حال شوقه وهو يحاول أن ينساها؟ لكنه أرغم نفسه على الخروج من ذاك البيت مكملا السير، وصاحبته تودع الخارج منه بدموعها الصامتة وفتات قلبها المترامي على عتبات جرحه، لكنه توقف فجأة لتسمع كلماته وكأن رجلا آخر من يقولها:

ـ هل يمكنني أن أحتضنك لآخر مرّة؟

انسابت دمعاتها هذه المرّة، غير قادرة على السيطرة عليها، إدراكها أنها النهاية جعلتها ترتمي في حضنه، فاقدة أي قدرة على المقاومة، ضمَّها إليه بقوة وهو يشدُّ وثاق ذراعيه عليها، كأنه غير راضٍ عن قراره بالرحيل والخروج من حياتها، عقله ينهره، وقلبه يشد على أزره، وتحوّل الحضن إلى قبلات متفرقة، وتحولت القبلات إلى غرق، ليستيقظ كلاهما من غيبوبته وهو يضم الآخر على سرير نومها، في غرفتها، وهذه المرّة كانت مختلفة، لا شك يبدد المتعة فيها، بينما الشعور بقرب النهاية جعل العطاء والأخذ يمتزجان بالشغف والشجن.

....

كان يحتضنها بينما توليه ظهرها، كلٌّ غارق في تفكيره، هي تعلم أن حبهما لن يصمد، وزواجهما محكوم عليه بالفشل، وهو يعرف أنه لا قدرة له على تحطيم أحلامه، وما عاش والده طوال عمره يحارب من أجله ويهيئه له.

في عقله كانت تدور أفكار سوداء، لو صارحها بها لطردته الآن من بيتها، ربما لو بقيا متزوجان لفترة دون توثيق زواجهما فسيملّ منها أخيرا، كما يملّ المتزوجون كلهم، ربما سيهدأ هذا الشوق إليها، وتنطفئ تلك النار بداخله، لكن هل ستقبل هي بهذا الخيار، وهل سيجرأ هو على اتخاذه، هو رجل برغم عيوبه لم يعتد الغدر، ولن يغدر بها بعد أن سلمته نفسها.

أحسَّ بها تتحرك لتنفك من حصار ذراعيه، متجهة إلى خارج الغرفة، وهي تقول دون أن تنظر إليه:

ـ خذ حماما إذا أردت وغادر، سأنتظرك من أجل إتمام الطلاق، سأذهب لأقلّ (آدم) إنه وقت خروجه.

واختفت بعدها كأنها تختصر عليه الطريق، وتعطيه فرصة للخروج من حياتها دون تبريرات أو وعود.

خرج بعدها، لا يعرف هل زاد ما حدث بينهما في شوقه لها، أم ساهم في تقليل حدته ولو قيد أنملة، فقد اكتشف أن لحظة من شوقه إليها تساوي مسيرة خمسين عاما، وويل قلبه من طول المسير، الذي قد ينتهي على مشارف نهاية العمر ربما، وقد لا ينتهي به الشوق أبدا.

يبدو أنها هذه المرّة نهاية أبدية، قيل فيما مضى ما أجمل البدايات، وها هو قلبه يؤكد وما أصعب النهايات، تلك الممزوجة بشوق البداية، وحنين المسير، وخيبة الفراق، هي النهاية إذن تفرض نفسها على حب ولد محكوم عليه بالموت، هو قلبه من يبكي يُتمَه اليوم، وعقله من يلعن عجزه.

****

توالت الأيام وهي تنتظره، تنتظر قدومه ليطلق عليها رصاصة الرحمة التي ستقتل قلبها المريض به، ولكنها لن تقتل حبها له،

ولكنه لم يأتِ، لم يتصل حتى، ولم تكن لديها هي القوّة للاتصال به، لتطالبه بإتمام الطلاق، ولا حتى الرغبة في ذلك.

عاد هو إلى الوطن، غير قادر على فعلها، ظنّ أنه بعيدا عنها سينسى، لكن الشوق كان قاتلا، حاول إلهاء نفسه بالرياضة، بالرحلات والسفر، بالتعرف إلى أخرى، لكن دون جدوى، أدرك أن وثاقه بها لم يكن مجرد كلمة، بل كان ميثاقا غليظا، حتى لو لم يعلم به الغير، هو يعلم، قلبه يعلم، وربه يعلم أنها أضحت روحه، وأنه لا يسكن إلا إليها، كيف السبيل إلى روحه، وكل شيء يقف بينه وبينها؟ كيف يخسر كل ما عاش حياته ينتظره؟ وعندما أصبح على بعد خطوات قليلة منه، تراءى له عالم آخر رحلت إليه روحه، وكذلك قلبه، ولكنه محرم على جسده الخامد هنا، بلا حياة بدونها هي، هي فقط ما كان يحتاجه، هي فقط ما كان يرغب به، هو الصراع المميت بداخله، امرأة عشقها حد الضياع في تفاصيلها، أو مستقبل عاش حياته يبني أسسه ودعاماته، مستقبل لم يكن عملا فقط، بل رسالة وواجب نحو وطنه، ولم يجد مفرا يهرب إليه إلا انهماكه في إكمال دراسته العليا لتحضير الدكتوراه، ترقبا لدخوله سلك الدبلوماسية، وقد أعانه في موقفه أن الزواج لم يكن موثقا فلم يكن عائقا له.

الفصل السابع:

(حنينٌ إلى الجذور)

كانت الجدة تتحدث عن الجزائر،

عن جنتها التي طردت منها، وكأنها الأرض الموعودة،

وكل أمنياتها أن تعود إليها، حتى ولو فقط لتدفن فيها

بعد مرور خمسة أشهر، وعلى باخرة سياحية، كان ينوي الاسترخاء في عطلة طويلة بعد إنهاء دراسته، وقبل بدء عمله في السلك الدبلوماسي، أين سيكون من الصعب عليه أخذ عطلة طويلة، كان يودِّع أيام الحرية، قبل أن يدخل عالم الالتزام والانضباط.

يستلقي على كرسي واسع طويل، يأخذ سمارا من الشمس الساطعة، وإذ به يسمع صوت ارتطام، جعله يفتح عينيه ليرى الجسد المسجّى على الأرض أمامه، انتفض جالسا أمام جسد المرأة على ركبتيه، محاولا إيقاظها بضربات خفيفة بكفه على وجهها، فتململت بين ذراعيه متأوهة، بينما يكاد قلبه يتوقف هلعا، وهو يبحث في رأسها عن جرح، أو أثر لما يجعلها تتأوه، لكنه لم يجد شيئا، فجأة أحسَّ بمن ينزل بجسده أمامه ليخبره أنه طبيب الباخرة (الدكتور أحمد).

استفاقت هي بعدها، تنظر حولها وهي تقول بلغة فرنسية، بصوتها الذي هزّه لحظتها، ليعيده إلى ماضٍ ليس بالبعيد، عندما كان يضبط أنفاسه على نغمة هذا الصوت:

ـ أين أنا؟

حاول الطبيب الحديث معها بلغة انجليزية لكنها لم تفهمه، حاول بالعربية، ثم بلهجته المصرية، دون جدوى، بينما بقي هو مشدوها

ينظر إليها، حتى استجمع قواه أخيرا ليتدخل في الحديث باللّغة الفرنسية، التي يجيدها ككل الجزائريين تقريبا، ليشرح لها أنها وقعت ربما مغميا عليها، بقيت نظراتهما معلّقة، وقد تذكرت أنها وقعت مغشيا عليها عندما رأته.

تمَّ اصطحابها إلى غرفة الفحص، وتبعها هو بحجة ترجمة الحوار بينها وبين الطبيب، ولكن وبرغبة مجنونة، كان يسأل أسئلة أخرى غير التي يطرحها الطبيب، ليتعرف على أخبار تلك التي تملك وجها ملائكيا يكسوه الشحوب البارز الآن، ليدرك أن هذا الوجه مازال يأسره، وراح يردد بداخله بلهجة جزائرية (مسرارة والسر يقطر منها) وهي جملة تقال لمن تملك سحرا لا يفسّر، يختلف عن جمال التفاصيل المبهرة، وإنما شيء في الوجه يأسرك ويصعب تفسيره، عرف من إجابتها على سؤال لم يطرحه الطبيب، أنها صعدت الليلة إلى الباخرة من ميناء المغرب، بعد عودتها من إسبانيا، بعد أن تكفلت بإنهاء إجراءات الضرائب الخاصة ببيت والدتها هناك، الذي ورثته عنها بعد موتها، والذي تأجره هناك منذ سنوات لتذخر العائد منه لابنها آدم، وصرحت له بعد سؤال حقيقي، طرحه الطبيب أنها تعاني من ارتفاع ضغط الدم، وأجابت عن سؤال آخر أن طبيبها أوصاها بإجراء عدة

فحوصات وأشعة، للتأكد من مصدر ارتفاع ضغط الدم لديها، لكنها لم تقم بها بعد لضيق وقتها.

كانت نبرة الطبيب مختلفة هذه المرّة، وهو يشدد عليها بضرورة إجراء هذه الفحوصات، لاحظ زياد تغير وجه الطبيب وهو يقيس مستوى السكر لدى صوفي، ويسألها إن كانت تعاني من مرض السكري، فتجيب هي بلا، ليؤكد الدكتور أحمد أن السكر مرتفع قليلا، ربما من أثر الصدمة عند السقوط، لكنه عاد للتأكيد عليها ألا تتخاذل في اتباع حالتها، لتتأكد من السبب الحقيقي لارتفاع ضغط الدم والسكر لديها، وقد بدا وجه الطبيب قلقا وهو يفحصها.

أجابت عن سؤال طرحه هو، ولم يطرحه الطبيب أن آدم تحت رعاية ميلي صديقتها التي تتكفل به مدّة الرحلة التي استقلتها من إسبانيا إلى المغرب ثم إلى الجزائر، رغبة منها في تحقيق وصية جدتها أخيرا، وأمنيتها هي في التعرف على بلد أجدادها الأولين والعودة بعدها إلى فرنسا جوا.

كان الطبيب أحمد مستوعبا للحوار الدائر بينهما، والذي بدا له أن جزءا منه لا علاقة له بالحالة الصحية لصوفيا، لكنه كان يرى في عينيّ زياد شوقا وخوفا، لا يستطيع عاشق أن يخفيهما، وقد جرّب

هو العشق والشوق على ذات هذه الباخرة، فترك الحوار مستمرا لعله يعين هذا الظمآن على إرواء شيء من عطش روحه.

ركض هو بعدها إلى صديقه الجديد الذي تعرف عليه هنا على ظهر هذه السفينة، صديقه الجزائري (رضوان) الذي جمعته به بداية اللهجة نفسها التي كانا يتحدثانها، ثم أدرك كلاهما فيما بعد، أن الهم جمع بينهما أيضا، فراح كل واحد منهما يحكي للآخر خيبته في الحب ويبثه وجعه، لتنشأ بينهما صداقة وليدة، عرف بعدها أن رضوان برغم كل المصاعب التي واجهته، إلا أنه تغلب أخيرا عليها، وتزوّج المرأة التي عشقها، والتي وقف العالم كله ضده، وضد حبه لها، وها هو اليوم يقضي هذه العطلة هنا على الباخرة مع تلك المرأة التي أصبحت زوجته ومع أطفالهما الثلاثة، وللصدفة الغريبة كان طفل رضوان يحمل اسم (آدم) ليُذكِّره كلما سمعه يناديه، بآدم آخر، في بلد آخر، يعيده لذكرى أم هذا الـ (آدم) التي سلبت منه روحه وقلبه.

كان يشعر بأن هناك شبها غريبا بين قصّته وقصّة رضوان، لكن بشكل عكسي، فهذا الأخير وقف العالم ضده لأنهم رأوه أقل من حبيبته، بظروفه الصعبة، بينما الظروف تقف ضد حبه هو لصوفيا، لأن عالمه يراها أقل منه، بظروفها المعقدة، والمشكل

الأكبر في قصّته هو، أنه يجاري هذا العالم منقادا، ويرضى لنفسه هذا البعد، وهذا العذاب.

وجد رضوان يجلس على أحد المقاعد، وما إن رآه حتى وقف لاستقباله مبتسما، لكن الابتسامة انسحبت من وجهه، وهو يرى علامات الضيق والانقباض، بادية على وجه صديقه الجديد، وكأن الدم انسحب من وجهه، فأضحى أبيضا شاحبا، فسأله في قلق حقيقي:

ـ ما بك يا صديقي، ماذا هناك؟

ليجيبه مباشرة بصوت مرتجف:

ـ صوفي موجودة على هذه الباخرة

فوجئ رضوان وراح يستفسر ليفهم:

ـ متى حدث هذا، وهي لم تكن هنا طيلة الرحلة؟

فيرد زياد وعيناه زائغتان، كأنه يبحث عنها:

ـ صعدت من ميناء المغرب، قادمة من إسبانيا لتتجه إلى الجزائر

ـ وما الذي تنوي فعله؟

أجاب زياد والتيه يلعب به تلاعب الأمواج بالغريق:

ـ لا أدري، منذ رأيتها وأنا ضائع، لقد وقعت على الأرض مغشيا عليها، كاد قلبي يتوقف هلعا وخوفا عليها.

تنهد رضوان لا يجد ما يقوله لصاحبه، بينما الآخر غارق في ضياعه، تعود إليه صورتها وقد هزل جسدها بشكل لافت، ويبدو أنها لا تعتني بصحتها، ولا تهتم لتحذيرات الأطباء.

****

في الغد، كان يراقبها من بعيد، غير قادر على البعد ولا على القرب، كانت هناك رغبة جامحة بداخله تدفعه باتجاهها، ليعرف لمَ فعلت به ما فعلته؟ ما أخبارها؟ أنسيته؟ أتعاني مثله ألم البعد؟ أذلك كان سبب ضعفها ونحول جسدها؟ أتسهر الليالي تستعيد تلك اللحظات القليلة التي ضاعا فيها في عالم لم يبالِ بسواهما؟ أتبيتُ الليالي ترسم في مخيلتها تفاصيل وجهه كما يفعل هو كل ليلة؟ أم أنها نسيت بكل بساطة وها هي تستمر في حياتها دون أن تكترث لما جمعهما وما فرقهما؟ أيوقظها قلبها كل ليلة هلعة على وقع تباطئ دقاته كما يفعل قلبه عندما تزوره في المنام؟ أحالها يشبه

حاله؟ كانت أمواج أفكاره تتقاذفه يمنةً ويسارا، بينما تبدو له هي بعيدة في عالم آخر.

اتجه إليها مغيبا وهي تقف تطالع البحر في صمت، التفتت ناحيته، والتقت نظراتهما في لحظات صامتة، قطعها هو بسؤال صريح ومفاجئ، وهو يقف مقابلا للبحر:

ـ لماذا لم تخبريني؟

أخذت شهيقا طويلا يساعدها على استعادة هدوئها، حتى تجيبه بصراحة وقد انتهى كل شيء، فلم يعد هناك سبب يدعوها للصمت، ما كانت تخشى وقوعه قد وقع، وقد فقدته منذ زمن طويل، هي اليوم تدرك ألا سبيل للرجوع بينهما، كل الوقت الذي فات كانت تراجع نفسها لِمَ لَمْ تخبره؟ كان من حقه أن يعرف كل ظروفها، ومن حقه أن يقرر أن يورط نفسه معها أو ألا يفعل، أدركت أنها أخطأت في اختيار الصمت، ومنعت عنه حق الاختيار، وتوصلت إلى الحقيقة الوحيدة التي منعتها من البوح له بماضيها:

ـ خِفت، خشيتُ أن أخبرك فتتراجع عن طلب الارتباط بي، أردت أن أجرب كيف تشعر امرأة بين يديّ زوج متيم بها، وهي عاشقة

له، لم أخطط لذلك، وأنت تعرف أنني حاولت بكل ما أوتيت من قوة إبعادك عن طريقي، لكنك ألحيت وبقيت تحاصرني حتى وقعت في حبك، كان عرضك في المطعم الزواج بي، عرضا مغريا أفقدني كل تعقلي وأنت تعلن أمام الجميع أنك تحبني، وتريد الارتباط بي لبقية حياتك، ورغم ذلك قاومت بالطريقة الوحيدة التي استطعتها، هربت حتى لا أضعف أمامك، ولكنك عدت في تلك الحفلة وأنت تكرر طلبك بتلك الطريقة التي أسقطت كل أسلحتي، برغم كل الأذى الذي ألحقته بك، كنت متمسكا بي وتريدني، فضعفت.

سكتت وقد غصَّ صوتها، ازدردت ريقها وهو ينظر إلى تأثرها، ولا يعلم بعد ما كان منها في السابق، أيصدقها أم لا؟ لتواصل هي اعترافها:

ـ أردت أن أصدقك، رغم أنني تزوجت مرتين، لكنني لم أرَ يوما في عينيّ أحدهما ذلك الحب الذي رأيته في عينيك، منذ سنوات طويلة وبعد طلاقي كرست حياتي لابني، ونسيت أنني امرأة، تعودت على رتابة حياتي وعلى خلوها من أي مشاعر سوى حبي لآدم، حتى جئت أنت لتوقظ بداخلي تلك الأنثى التي ظننتُها ماتت، وجدتها قابعة في مكان مظلم من روحي، وكأنها كانت تنتظرك،

لم أستطع إخبارك لأن تلك الأنثى منعتني أن أفعل، خشية أن تفقدك، فتموت هي من دونك، تلك الأنثى كانت هشّة لدرجة انزوائها عن العالم خوفا من فقدٍ جديد، وجرحٍ لم يكن قلبها قادرا على احتماله، تلك الأنثى التي رأت الحياة في عينيك، تلك التي عثرت أنت عليها كانت تستجديني ألا أخبرك.

خانتها تلك العبرة التي تدحرجت على خدها، لتمدَّ يدها وتمسحها، قاومت لترسم ابتسامة على ثغرها وهي تقول:

ـ كل ما استطعت فعله هو أن أهرب منك في المرّة الأولى، لكن الأقدار رسمت لنا لقاءً آخر، وهذه المرّة لم أملك القدرة على مقاومة طلبك، كنت أريدك كما يريد الميت حياة جديدة منحت له، ولأن العشق أناني آمنت بك، وبالحياة في عينيك، ولكن بمجرد أنك استيقظت وغسلت وجهك لتنظر إلى ظروفي وحلمك، أسقطني ماء الواقع منهما، وقد انتهى كل شيء، عدت أنت إلى حياتك ونسيت، وسأظل أنا مجرد علاقة عابرة مرَّت في حياتك يوما.

كان هو ينظر إليها تتصارع مشاعره بداخله، قلبه يصرخ به أن يخبرها أنه لم يفعل، لم ينسَ، بدليل أنه لم يعد ليطلقها، وأنها أمام

الله وأمام قلبه مازالت زوجته، بينما عقله يحذّره من أن يفعل ويخبرها بذلك، هي مازالت عقدة واقعه وحلمه المستحيل، وهو سيظل جرحها وحقيقة عالمها الظالم القاسي، هو اختار الانصياع إلى شروط العالم ليعيش فيه، وهي كتب عليها أن تتحمل قسوة هذا العالم وشروط تصنيفه وقبوله للأشخاص.

وقف وعيناه ترفضان الانفصال عن وجهها، كأنهما تحاولان تخزين صور، ليعوّض بها أيام الشوق العجاف التي مرت عليه بمجرد مغادرته شقتها ومعها حياتها، لكنه يعلم ألا فائدة من ذلك، فشوقه الذي لم يغادره، لن يرحمه الآن وقد التقاها ورأتها عيناه من جديد، وقد بثته وجعها وخيبتها، برغم كل ما كان وبرغم ما فعلته هي سابقا، إلا أنه الآن يبدو أسوء منها، هو الذي تخلى عنها وسيتخلى الآن أيضا، حتى وكلماتها غير المنطوقة تستجديه أن لا يترك تلك الأنثى الهشة التي رأت فيه الحياة، للموت من جديد، لكنه سيفعل، لا يملك إلا أن يفعل، هو مثقل بقضايا وطنه ونضاله، ورغم علمه ألا دخل لها في الأمر سوى أنها تحمل الجنسية الفرنسية التي لم تخترها حتى، ولكنه يعلم أنه إذا أعلن ارتباطه بها، فلن يصل لا إلى الدبلوماسية، ولا إلى الوزارة، نضاله سيتوقف، لأنه لن يجد طريقا آخر لاستكماله.

التقت نظراتهما من جديد في لحظات صامتة، قطعها هو مبررا ما حدث بينهما، كأنه يلتمس العذر لنفسه:

ـ لم نكن يوما مقدّرين لبعضنا، ذلك كل ما في الأمر.

أومأت برأسها مؤكدة على كلامه، وهي تدرك أنه من كل عذاباتها كان هو عذابها الأكبر، بالرغم من أنه من كل آمالها كان الأجمل، من كل أوجاعها كان أقساها، رغم أنه منحها من الأحلام أروعها، إلا أنه على أرض الواقع لم يكن قدرها.

استأذن وانصرف تاركا إياها لضياعها، مستسلما هو لأقداره.

****

مرّت الليلة صعبة عليه، يتقلب على جمر الشوق، يمنعه تفكيره فيها من النوم، شعوره أنه يفقدها من جديد يقبض على قلبه فيوجعه، كأنه الآن سيرحل، كأنه لم يفعلها سابقا، بوحها يؤرقه، كلماتها تتردد في عقله فتؤلمه، صوت خيبتها فيه يقتله.

قبل بزوغ الفجر بدقائق قام متجها إلى سطح الباخرة ليشاهد بداية ضوء النهار، ويستنشق هواء البحر النقي، علّه يطرد به ذاك الهواء المهموم، الذي احتُجِز الليلة الماضية في صدره، وهو غير قادر على التنفس إلا بصعوبة، لشدة شوقه إليها، والذي أيقظه طوال الليل، عِلمُه بوجودها معه على نفس الباخرة، وعجزه عن الذهاب إليها وضمها إلى صدره ليبثها كل هذه الحرقة التي تلهب قلبه، وكل هذا الشعور بالضعف والعجز الذي يكاد يقتله.

توقف فجأة وهو يراها واقفة هناك، تنظر إلى السماء، تلفُ على كتفيها شالا سميكا من الصوف، أزرق اللون، وشعرها

البني الكثيف يتدلى على ظهرها.

شلته الصدمة ولم يعرف أيقترب منها، أو يفر عائدا إلى غرفته؟ هو لم يعد يأمن نفسه وشوقه يلتهب بداخله، وهو يدرك أنها الماء الذي سيطفئ هذا اللهب، ينظر من بعيد فيأسره الحزن المرتسم على ملامح وجهها، يدرك في أعماقه أنه سبب ذلك الحزن، يتمنى لو أنه يستطيع أن يطفئه، أن يرسم الفرح على وجهها، لكنه عاجز عن فعل ذلك، تحتضنها عيناه، فيشعر بالذكريات تهاجمه لترتسم أحضان أخرى في مخيلته، يغلقهما كأنه يناضل حتى لا

يضعف، يحاول أن يطرد الذكرى، لكن الشوق أقوى، والعشق العنيد داخله يصرخ به (تقدم، لا تكن بين العاشقين ذاك الذي لم ينتصر لعشقه، ولم ينصر حبيبته).

اقترب منها كأن مغناطيسا يجتذبه إليها، غير قادر على التحكم في أفعاله، وقف أمامها وعيناه حالمتان، فيبادرها بالتحية:

- صباح الخير

التفتت غير مصدقة أن هذا الصوت الذي أرقها طيف صاحبه ليلة كاملة حقيقي، بل مؤكد أنها تتخيله، لكنها فوجئت بزياد يقفُ قُبالتها، بعينين تحيط بهما هالات سوداء، تؤكد لها أنه لم يقضِ ليلة أحسن من ليلتها.

- صباح الخير

اقترب من السياج لا يبعد عنها إلا بسنتمترات قليلة فاصلة، وهو يحاول استنشاق جرعة هواءٍ كبيرة، ليستعيد رباطة جأشه، يقاوم ليبقى بعيدا دون أن يتهور ويأخذها في حضنه، متعب من أفكاره، مرهق من عجزه، يتحاشى النظر إليها من جديد، بقيا للحظات

صامتين لا يجد أحدهما ما يقوله للآخر، حتى قطع هو هذا الصمت أخيرا، كما يفعل منذ مدة، كأنها تخاف أن تبادر هي:

ـ ألم تنامي؟

لم تشأ أن تعترف له بذلك، يكفيها اعترافها السابق الذي خرج منها في لحظة ضعف، فأشعرها الليل بطوله أنها استسلمت باعترافها، لكنه لم يزده إلا قسوة عليها، هي كانت تعترف بحبها وبضعفها، بينما لم يجد هو إلا أن يؤكد أنهما لم يقدرا لبعضهما، هو نسي وأكمل حياته، وهي مازالت تعود للحظاتهما في كل مرّة، لتنهل منها بعض الزاد لمواصلة طريقها، هو الرجل بكل جبروته وقسوته، وهي معه، معه فقط، تغدو تلك الأنثى بكل ضعفها وحاجتها إليه.

لكنها لم تكذب عندما أخبرته بحقيقة أنها أحبت فكرة الاستيقاظ باكرا لرؤية بداية النهار مع بزوغ أول علاماته، عادا بعدها إلى الصمت الذي فرض نفسه عليهما، لتستأذن هي وتعود إلى غرفتها، هاربة من صحبته التي تقتلها وجعا، وتزيدها اضطرابا.

منذ تلك الليلة وجد نفسه يضبط منبه هاتفه على الاستيقاظ معها كل صباح، تراقب هي طلوع الشمس من مخبئها، ويراقب هو طلوع روحه في ترقب إحساسها بوجوده، على بعد مسافة قليلة منها، يتأمل السكينة التي ترتسم على وجهها رغم ضعفها وشحوب وجهها، ويعلم في قرارة نفسه أن هذه السكينة خادعة، ولا يجد إلا أن يدعو مبتهلا أن يساعده الله على هذا الحب الذي سكن كيانه وأجهد قلبه، ثم يستسلم أخيرا ويقترب منها، مشاركا إياها لحظات استمتاعها، ليبدأ بينهما حوار محتشم كأنهما يتعرفان على بعضهما أول مرّة، ساقه الكلام إلى الحديث عن جدّته، فانتبهت تستمع إليه بابتسامة صافية على محياها.

كانت تستمع إليه يحكي عن جدّته، بينما ترتسم صورة جدّتها هي أمام عينيها، وكأنه كان يحكي عنها، عن حنانها واحتوائها لجنون حفيدتها، واستيعاب فترات انتفاضاتها أثناء مرحلة المراهقة هربا من ضغط والدها، وإهمال والدتها، عن وصاياها التي أعادتها دائما إلى الصواب، ومنعتها من الوقوع في ما لا تحمد عقباه، عن عاداتها وتمسكها بجذورها، وكم كان الشبه كبيرا بين الجدّتين رغم أن لا واحدة عرفت الأخرى، لكن ربما لأنهما من نفس البلد، خلقتا من طينة واحدة، وجُبلتا على تقاليد وطباع واحدة.

أدرك هو أنه الموضوع الذي سيجعلها تتقاسم أطراف الحديث معه فيه براحة وسعادة، فراح يوجه لها أسئلة عن جدتها لتحكي له هي باسترسال عن جدّتها (التبر) التي كانت تحمل اسما غريبا، في عالم أغرب، كرهته الجدّة، لأنه كان البلد الذي احتل وطنها وقتل زوجها، لكنها انصاعت لابنها بعد مرور ثمانية عشر سنة على استقلال الجزائر، عندما قرر السفر إليه، ببلوغه سن العشرين، طلبا لمعيشة أفضل من تلك التي كان يجدها في وطنه الأم، في قرية نائية كانت هي سعيدة فيها، بينما كان ابنها يختنق بداخلها، ولم تكن هي تملك سوى هذا الابن الذي باع منزل والده في الجزائر، ولم يترك لها خيارا آخر سوى السفر معه إلى أرض الغربة، اسم (التبر) الذي كان يعني الذهب الخالص، كان معدن جدتها فعليا، لأنها كانت امرأة روحها من الذهب الخالص.

عاشت جدتها سنوات حياتها في فرنسا، تحنُّ إلى الجزائر وإلى رائحتها، تحكي لحفيدتها عن جمال سهولها، وارتفاع جبالها، عن زرقة بحارها، وخضرة أراضيها الواسعة، عن بياض ثلوجها التي كانت تغطي ارتفاع جبالها الشامخة في عزِّ الشتاء، عن شمسها الساطعة التي كانت تلقي بدفئها على أبنائها رغم الفقر، فلا يشعرون بالبرد، عن خيرات أسالت لعاب طمع المستعمر

فاحتل أراضيها، وتخلى عن كل البلاد المجاورة ليتفرغ للمقاومة الشرسة لأهل هذه الأرض، عن استبسال بناتها وأبنائها الذين ثبتوا مائة واثنان وثلاثين سنة يقدمون الأرواح أفواجا، أفواجا، لا يسأمون ولا يملون، حتى قهروا عدوهم المدجج بالأسلحة المتطورة، بينما لم يكونوا هم يملكون سوى بندقياتهم البسيطة، وقبلها إيمانهم بالله، وطلبهم شرف الشهادة.

كانت الجدة تتحدث عن الجزائر، عن جنتها التي طردت منها، وكأنها الأرض الموعودة، وكل أمنياتها أن تعود إليها، حتى ولو فقط لتدفن فيها، في أرض الوطن بعد موتها، لكن ابنها لم يحقق لها حتى هذه، فعندما توفيت رفض تنفيذ وصيتها بنقلها للجزائر، بحجة غلاء التكاليف، وعدم فائدة نقلها، فمادامت ميتة في كل الأحوال، فلن تعرف في أي أرض دفنت، وكم حزَّ هذا الأمر في قلب صوفيا، وزاد في توتر العلاقة بينها وبين والدها، وضاعف عزمها على تحقيق رغبة جدّتها أن تزور يوما وطنها الذي عشقته وغادرته مرغمة.

أخبرته أنها وعدت جدّتها بزيارة الجزائر، وأنها قادمة لتفي أخيرا بوعدها، ها هي قادمة إلى جنّة جدّتها لتتعرف عليها، وستجلب معها آدم في المرّة القادمة ليتعرف على أرض أجداده.

كان يستمع إليها وهو هائم في حلم يؤرقه ويوجع صدره، أن يكون رفيقها، وهي تتعرف على الأرض التي عشقتها من حديث جدّتها عنها، أراد أن يكون شاهدا على هذا اللقاء الحميمي بين ابنة تائهة وحضن وطن، كان يريد أن يشاهد بأم عينيّه، كيف يكون احتضان هذا الوطن لابنة غائبة ضالة تعود بعد طول غياب، وطول انتظار؟ ولكن كيف السبيل إلى ذلك؟ وما بينه وبينها لا يملك حتّى حق الظهور إلى العلن.

أرقه هذا الحديث المملوء بالحنين، المغلف بطيف الذكريات، الملغم بحب يغار منه، حتى لو كان حب أرض ووطن، ولكم تمنى أن يكون أرضها التي تنبثُ فيها، ووطنها الذي يحتضنها ويحميها، كم تمنى، ولكن الأمنيات تبقى مجرد أمنيات، لا تحمل إلا الوجع والإحساس بالعجز.

****

كان زياد واقفا مع رضوان يشكوه قهره، ومقاومته حقيقة التواجد معها على سفينة واحدة، مع إدراكه أنهما لن يكملا الطريق معا، فقدره يأبى أن يلتحم بقدرها، عندما فاجأه صديقه بسؤال صريح لا يحتمل التلاعب في الإجابة:

ـ أمازلت تحبها؟

أجاب متنهدا معترفا أخيرا بصوت مسموع من الغير، بعدما كان الوحيد الذي يسمع شوقه وأرقه:

ـ أحبها، وحبها ينخر قلبي، أشعر أني أموت في حضورها، وأنطفئ في غيابها، أحبها حبا موجعا جعل الحياة عندي بدونها موت، والموت على أعتاب قلبها رغبة في حياة أشتهيها.

فينفجر رضوان قائلا:

ـ لماذا تتعب قلبك إذن يا صاحبي؟ إذا كنت تحبها كل هذا الحب خذها، إنها أمامك، أنت الذي تُصعّب الأمور وتجعلها تبدو مستحيلة، ماذا في الأمر إن كان لديها مشاكل في حياتها؟ أليست إنسانة في النهاية، أتجعلها ظروفها تنتمي لفصيلة أخرى غير

فصيلة البشر؟ إنها امرأة وأنت رجل يحب هذه المرأة، فلماذا تعقد الأمور بينكما؟

صمت رضوان قليلا متذكرا حاله التي كانت قبل زواجه ثم أردف قائلا وقد استرجع هدوءه:

ـ اسمع أخي زياد، أنا قبل زواجي، عائلة زوجتي لم يقبلوا بي بسبب المشاكل التي كنت أعاني منها، لكنهم عرفوا خطأهم وأدركوا بأنني لم أختر أن أكون هكذا، أنا لم أختر أن أكون لقيطا، إنها الأقدار، ولا أحد يستطيع الهرب من قدره، هي أيضا لم تختر حياتها إنه قدر الله، فلا يجوز أن تؤاخذها بما لا ذنب لها فيه.

تنهد زياد محاولا تبرير موقفه وخوفه:

ـ لكنها أخفت عني ماضيها، ما معنى أن تتركني حتى أتزوج بها لأعرف حكايتها؟ لماذا لم تصارحني منذ البداية؟

ـ لقد أخطأت في هذه، لكن فلنفترض أنها صارحتك ماذا كنت ستفعل، تتركها أم تتزوج بها؟

صمت زياد لا يعرف جوابا لسؤال صديقه، فالمرأة التي أحبها منعته حق الاختيار، منعته حق معرفة جواب لهذا السؤال، وحق معرفة اختياره، ليتخبط اليوم في هذه الحيرة.

سمع صوت رضوان يقطع تفكيره:

- اسمع يا صديقي إذا كنت تحبها حقا، فإن الله ساقها إليك، وهذه فرصتك، وإذا تركتها تضيع من بين يديك، فهذا يعني أنك لا تحبها، هذا ما أفهمه أنا.

تنهد زياد بألم بدا على ملامح وجهه وهو يقول لصديقه:

- بيني وبينها ماضٍ ومستقبل يمنعان اجتماعنا، في النهاية هي امرأة ولدت في فرنسا، وتحمل جنسيتها، وأنا جزائري مناضل يريد أن يستعيد ذاكرته وحقه الذي تحتجزه فرنسا، فكيف سنلتقي؟

فيرد رضوان متأسفا:

- ليس من العدل أن تحملها وزر أخطاء لم ترتكبها، هي لم تفعل شيئا من هذا

استأذن رضوان ليطمئن على أطفاله، بينما كلماته تتردد في عقل زياد، والأسئلة تؤرقه هل فعلا هو القدر حملها إليه إلى هنا؟ هل هي فرصة جديدة لهما معا؟ كلما هرب منها وجد القدر يصنع لهما لقاءً جديدا، فأين المفر؟ قدره يقوده إليها، قلبه يرتجيها، لكن عقله يرفضها، هما متناقضان، هي امرأة مثقلة بماضيها، وهو رجل مقيد بمستقبله، فهل يمكنهما أن يلتقيا؟ هل يمكن للثقل أن يخف، وللقيد أن ينكسر؟ أم أنها أضغاث أوهام؟

الفصل الثامن:

(فضيحة، وعرسٌ)

وكأن العالم العربي أبى إلا

أن يزف البنت المغتربة عن وطنها الأم

إلى فرحتها ويسلّمها لرجل حياتها

فتحت بابها لتراه واقفا قبالتها، حينها اتسعت عيناها دهشة، وازدادت نبضات قلبها سرعة، نظرت إليه ثم أغمضت عينيها وهي تغالب شوقها إليه، لماذا على الشوق أن يكون بهذا الألم؟ لماذا يزداد بدل أن يموت بالبعد؟

ابتسم هو على غير ما انتظرته، ليأتيها صوته الحبيب، يفقدها آخر قدراتها على تحمل وجع هذا الشوق:

ـ هل اشتقتِ إليّ أم أنني الوحيد من يقتله شوقه؟

وعلى غير انتظار منه، رآها ترفع يدها تكتم شهقاتها، ودموعها تتهاطل غزيرة، تغرق وجهها الذي يعشقه.

بقي ينظر إليها يخشى أن يصدّق، أن كل هذه الدموع فجّرها شوقها هي إليه:

ـ صوفي هل يمكنني الدخول؟

تنحت جانبا، مفسحة المجال له، ليدلف إلى الداخل، وهي تتبعه وقد بدأت دموعها تتوقف وشهقاتها تهدأ.

توقف بعد خطوات قليلة، فاقدَ الحيلة لا يعرف كيف يتصرف، عندما سمعها تقول أخيرا:

ـ هل شوقك ما جاء بك حقا؟

فيرد وعيناه تكادان تبتلعانها:

ـ نعم

ارتسمت على وجهها تعابير متوسّلة وهي تسأله:

ـ لمن اشتقت؟

رآها تلك الملامح المتوسّلة، سمعها تلك النبرة المتألمة، وأحس بها فعاجلها بالإجابة:

ـ لكِ حبيبتي، اشتقت إليك

مضيفا بعدها بلهجته الجزائرية:

ـ توحشتك يا جدك

شهقة أفلتت منها، وقد تذكّرت هي هذه الجملة التي تخرج من فمه، حاملة شوقا لا يحتمل بلهجته التي لا تملك القدرة على

مقاومتها، لهجة بقدر ما تبدو خشنة في نطقها بصوته الأجش الذي يغلفه الحنين، بقدر ما تبعث في قلبها تلك السكينة والفرحة، وهي تعلم أنها أفقدته السيطرة على مشاعره، حتّى أفقدته السيطرة على التحكم في اللّغة التي يستعملها معها، فعاد إلى لهجته الأصلية كأنه يعود إلى طبيعته، وما أجملها من طبيعة تؤكد لها أنه وبكل بساطة (عاشق)

فوجئ بها ترتمي بين أحضانه، فيضمّها إليه فاقدا آخر خيوط سيطرته على نفسه، يقبلها بشغف وهو يقول بجزائريته المتوحشة:

ـ توحشتك عمري، قتلني الوحش، ما قدرتش عمري عالبعاد، توحشتك بزاف يا لكبيدة

من بين دموعها سحبت وجهها تقول له:

ـ هذا ليس عدلا، لا أفهم شيئا مما تقوله

فيضحك هو بصفاء روح افتقده منذ فترة طويلة، ويعود لاستعمال اللغة الفرنسية:

ـ هي كلمات حب يا عمري، كلمات اشتياق، لدينا وقت طويل لأشرحها لكِ، كلمة، كلمة.

فتبادله الابتسامة، ويغرق كليهما في إرواء شوقه للآخر، بلغة العشاق التي يفهمها الجميع دون استثناء.

كانا قد نسيا الباب مفتوحا، في غمرة الشوق المجنون الذي داهمهما، عندما سمعا أصواتا وجلبة، ليستفيق وينفصل عنها، وهو يسمع شخصا ينادي اسمه:

ـ سيد زياد هل يمكن أن أفهم ما الذي يحدث على باخرتي؟

حاول زياد استعادة تركيزه، ليستوعب سبب وجود هذا الجمع الغفير حولهما، ينظرون إليه تارة، وإلى صوفيا تارة أخرى، نظرات تحمل الاشمئزاز والعتب وحتى القرف، وتلك الهمهمات الساخطة التي تصله، ويدرك أخيرا أن هؤلاء الناس متجمعون وكأنهم قبضوا عليهما في حالة تلبس بالجرم المشهود، فجاهد ليكون صوته ثابتا حتى يخرجها ويخرج نفسه من هذا المأزق:

ـ ماذا هناك أيها القبطان هل يمكن أن أعرف سبب هذا التجمع؟

ـ سيد زياد، هذه باخرة محترمة، وما تفعله أنت والسيدة غير مقبول على باخرتي

التفت زياد إلى صوفيا التي كانت تكاد تغرق في خجلها، وهي تقابل نظرات الناس وكلمات القبطان، آلمه وضعها وهي غير قادرة على رفع رأسها، أمسكها من ذراعها يسحبها وراء ظهره، ليخفيها بجسده ويحميها من النظرات الفضولية الجارحة، التي كانت تطالعها، أخذته النخوة فوجد كلماته تنساب دون تفكير أو تردد:

ـ وهل ما يفعله الرجل مع زوجته يسمى غير محترم، أم أن لك سلطة الرقابة على ما يحدث بين الرجل وأهل بيته؟

ارتبك الربان لوهلة، لكنه لم يظهر ذلك وهو يواجهه بحزم:

ـ لا أحد هنا لديه علم أنك والسيدة زوجان

زفر زياد بحنق ممررا أصابعه باضطراب بين خصلات شعره الكثيف، في محاولة منه لكبح عصبيته وضبط نفسه ثم أجابه بهدوء مصطنع:

ـ وهل عليّ أن أخبرك بقصة حياتي؟ أنا والسيدة متزوجان بالفاتحة على يد إمام وأمام شاهدين، ولم نوثق عقد زواجنا بعد لظروف خاصة، ولكن هذا لا يمنع من أنها زوجتي فعلا.

ارتفعت همهمات من هنا وهناك، بعضها متسائلا، وبعضها مشككا، عندما قطعها الربان بصوته:

ـ ومن يؤكد لي أن ما تقوله هو الحقيقة؟

ارتسمت على وجه زياد ابتسامة ساخرة وهو يجيب الربان:

ـ سأتغاضى عن هذا الاتهام الدنيء، لأنني أقدر أنك لا تعرفني، ولا تعرف أنني رجل لا يكذب.

أشار بيده إلى الشخص الذي وصل لتوه وأردف:

ـ السيد رضوان وزوجته يمكنهما تأكيد ذلك، إنهما جزائريان وصديقان على علم بوضعنا.

التفت الجميع إلى الشخص الذي أشار إليه زياد، ينتظرون تأكيده أو نفيه ليتكلم هذا الأخير مؤكدا:

ـ نعم أنا على علم أن زياد والسيدة متزوجان عن طريق الفاتحة، وشاهدان بحضور إمام، وهذا في عرفنا يعتبر عقد قران صحيح

حوّل القبطان ناظريه بين الرجلين يكاد يصدق، لكن رؤيته لصوفيا والحرج الذي كان يتلبسها جعل الشك يراوده، لينطق بفرنسية متعمدة حتى تفهمه السيدة:

ـ إذن نوثق هذا الزواج هنا على الباخرة، فأنا لديّ كل الصلاحيات لفعل ذلك ويُسجل العقد بالقنصلية

ارتفع فجأة صوت صوفيا صارخة:

ـ لا

ليلتفت الجميع إليها وقد تأكدت شكوكهم -بعد أن شرح أحدهم ما قاله ربان الباخرة- أن ما يزعمه زياد ما هو إلا محاولة للتغطية على ما فعلاه، لكن صوت زياد أعاد الشك إلى الوجوه المتابعة بفضول:

ـ ما الذي تفعلينه بربك؟ أنت في كل الحالات زوجتي بعقد موثق أو بدونه؟

جاءه صوتها حزينا مرتجفا:

ـ توثيق زواجنا سيتسبب في ضياع مستقبلك

لكن صوته هو كان قويا واثقا:

ـ وعدم توثيقه سيتسبب في ضياع سمعتك

بنبرة منخفضة كانت تؤكد له:

ـ لا يهمني

التحمت النظرات في صمت رهيب، وكل يدرك أن الآخر مستعد للتضحية من أجله، بينما يفكر زياد، ألا يستحق هذا الحب الكبير التضحية منهما من أجل أن يعيش؟ لماذا يصران على قتله، بينما يرفض هو أن يموت؟ نطق أخيرا والأعناق مشرئبّة إليهما في شغف، ودون أن يحيل ناظره الذي كان يأسر عينيّ صوفي:

ـ سيدي الربان من فضلك، هل تتكرم بتوثيق عقد قراننا على باخرتك؟

ثم أردف موجها كلامه لعروسه بصوت خافت لم يسمعه سواها دون أن ينتظر ردا من القبطان:

ـ لكن أنا يهمني، فلنفعلها لأجل هذا الحب الذي يرفض أن يموت.

اغرورقت عيناها بدموع الفرح، لسماعها هذا الاعتراف الذي طالما تمنت سماعه، لقد اعترف لتوه أنه مازال يحبها، لكنها أجابته متوجسة:

- ستندم بعد ذلك وتتهمني أني أغريتك

ابتسم وهو يقول:

- لن أفعل، أنا من يغريك هذه المرّة حتى تقبلي، لديك باخرة كاملة تشهد أنني قبلتك من أجل إرغامك على الزواج بي.

ابتسمت بمزيج من الخوف مازال عالقا بقلبها:

- كان لديّ مطعم كامل يشهد بأنك أغريتني، واليوم أضفت إليه باخرة سياحية

اتسعت ابتسامته وقال وهو يغمز لها بعينه:

- أنا رجل لا يمكن توقعه

ارتجف قلبها داخل أضلعها وهي تتخيل القادم، هي وزياد، هي مع زياد ستكون لديهما حياة مشتركة، أسرة واحدة ومستقبل يجمعهما، بنبرة حزينة مشككة أجابته:

ـ سيكون الأمر صعبا

فيرد مؤكدا:

ـ سنذلّل الصّعاب بوجودنا معا، يستحق الأمر أن نقاتل من أجله، صدقيني.

فتسأله بقلق:

ـ ومستقبلك ونضالك؟

فيرد هو:

ـ لا يجب من أجل النضال أن أكون وزيرا، يمكنني أن أفعل من خلال الجمعية، والمستقبل سيدبره الله

وبتأثر بادٍ على وجهها أومأت موافقة، وقد أحيتها رغبته في القتال من أجلها، ليأتي صوت الربان كأنه كان بانتظار ردها ليعلن الخبر:

ـ أيها السادة والسيدات، لدينا اليوم عقد قران، وأنتم مدعوون لهذا الاحتفال على ظهر الباخرة بهذه المناسبة السعيدة

تهلّلت الوجوه وقد اقتنع الجميع بحقيقة العلاقة بين الزوجين، مما رأوه وشهدوه، وارتفعت الأصوات مباركة، والتصفيقات محيية، بينما العروسان يتبادلان النظرات في شوق، ودموع صوفي تتهاطل أمطارا، تحيي قلبها الذي أصابه الجفاف منذ غادرته سحب حب زياد العامرة بأمطار العشق، بينما صفق الربان بيديه منبها الجموع:

ـ من فضلكم، فليعد كل إلى مكانه، ولندع العروسان يستعدان لليلتهما.

افترقت الجموع، بينما سحب رضوان زياد من ذراعه للخارج والذي قال بامتنان:

ـ شكرا صديقي

فيجيبه رضوان مؤنبا:

ـ قلت لك صالحها وردها إليك، فرحت تتسبب لنا في فضيحة.

زفر رضوان بحنق شديد، ثم نظر إليه حين طال صمته، ليجده يكتم ضحكته بصعوبة، ومعالم الراحة تلقي بظلالها على وجهه،

ليضرب كفا بكف في حيرة، ثم يشارك زياد ضحكه الذي لم يستطع كبته، دافعا به أمامه هاتفا:

ـ وتضحك أيضا، يا لبرودة قلبك، تقدم أمامي أيها العريس

لكن زياد ردّ مجيبا:

ـ لا انتظر، لديّ حديث معها

ربت رضوان على كتف صديقه وانسحب، تاركا له المجال للحديث مع عروسه وهو يقول بمرح:

ـ لا تطل الحديث، لا نريد أن تصل فضائحك إلى الجزائر

فيبتسم زياد، ثم يقترب من صوفي ليسمعها تُسائله بصوت خافت مشكك:

ـ هل أنت متأكد؟

ليجيبها محاولا نقل ثقته إليها:

ـ جدا، لقد حاولت أن أنسى، لكنني أدرك اليوم أن لا مفر من حبك، أنت تسكنين القلب يا حبة القلب وتتربعين بداخله، ولا سبيل لاقتلاعك إلا باقتلاع هذا القلب.

ثم يسألها يبتغي منها تأكيدا:

ـ وأنتِ؟

فتجيبه وقد عادت دموعها للهطول:

ـ تلك الأنثى بداخلي، لم تتوقف يوما عن المطالبة بحقها فيك وفي الحياة معك، يا مهجة القلب.

اتسعت ابتسامته ثقة، وقد تذكّر حديثها على سطح الباخرة عندما سألها عن سبب إخفائها لماضيها عنه، وراح يقول غامزا بعينه:

ـ أخبريها أن حقها سيصلها الليلة

ابتسمت هي ابتسامة مشاكسة والفرح يتسلل إلى داخلها برغم دموعها:

ـ ألا تجيد التقدم بطلب الزواج إلا أمام جمع غفير من الناس؟ مرّة في مطعم ومرّة في باخرة

لم يستطع كبح ضحكته وهو يقول بفخر:

ـ زوجتي، هنيئا لك، لقد حصلت على رجل استثنائي، لا يشبه أيا من الرجال.

جارته في ضحكته، وهي ترى السعادة التي ترتسم على محيّاه، لتقول بصوت يفوح منه عطر الدلال:

ـ وأنت حصلت على امرأة لا تشبه أيا من النساء

كانت الجملة تحتمل معنيين، في كل مرّة فكرت فيها كان الجانب البائس هو الذي يطغى على المعنى المقصود، لكنها هذه المرّة قالتها وهي تشعر بالسعادة والفخر، لأنها تعلم أنها تحبه كما لم ولن تحبه امرأة أخرى، هي اليوم امرأة استثنائية بعشقها له، وبحبه هو لها.

مدَّ يده يمسح دموعها قائلا:

ـ توقفي عن البكاء يا عروسي، حتى لا تنتفخ عينيك.

ابتسمت وسط بكائها وهي تسأله بنبرة مشاكسة:

ـ هل ستمتنع عن إتمام الزواج، إذا تحولت عروسك إلى امرأة شمطاء، بعينين منتفختين وهالات سوداء تحيط بهما

حرك رأسه نافيا، ليؤكد بعدها بكلماته العاشقة وهو يجيبها:

ـ لا مفر لك، نحن في باخرة، البحر يحيط بنا من كل جانب، وأنا سأتمم هذا الزواج حتى لو تحولتِ إلى ضفدع

انفجرت ضاحكة بعدما فهمت ما يرمي إليه، بتذكيرها بهربها في المرّة الأولى، وهي تقول:

ـ يمكن للضفدع أن يقفز في البحر

فيرد وقد تلونت نظراته عشقا وهياما:

ـ ويمكن للأمير أن يتحول إلى ضفدع ويقفز وراء أميرته

ارتمت بين أحضانه سعيدة متأثرة، وهي تقول:

ـ لن أذهب إلى أي مكان، أنا أحترق شوقا لأكون زوجتك

ضمها إلى قلبه، محاولا تقبيلها، لكنها انسحبت بخفة قائلة:

ـ يبدو أن الفضائح بدأت تعجبك يا سيد زياد، ألم يكفك ما فعلته قبل قليل؟

غمزها بعينه وهو يقول مشاكسا:

ـ على حد علمي، لم أكن وحدي المتسبب في الفضيحة، فأنا لم أكن أقبل نفسي.

انفجرت ضاحكة، وهي تكتشف هذا الجانب المشاكس منه لتسمعه يضيف:

ـ ولو أن كل الفضائح تنتهي هكذا، فيا مرحبا بها

اقترب منها محاولا تجسيد كلامه على أرض الواقع، لكنها هربت منه ضاحكة، متجهة إلى الحمام مستعدة لغلق بابه في وجهه، إن حاول هو اللحاق بها وهي تقول:

ـ لديّ عرس أريد أن أحضر نفسي له

ضحك هو وقد استعاد مزاجه الرائق، وهو ينظر إلى عروسه الهاربة، لكن هذه المرّة يدرك أنها لا تهرب منه بل لتستعد له.

ـ لقد أخذت دروسا تطبيقية مكثفة على يديّك عن الصبر والانتظار يا عروسي، ساعات قليلة لن تضر.

غادر الغرفة ضاحكا، مغلقا الباب وراءه، منتشيا بسعادته القادمة، بينما تزيد نبضات قلبها تسارعا، وهي تتعجب من هاته المرأة

الجديدة التي لا تظهر إلا معه، امرأة واثقة، متفائلة، تجيد الفرح، تتقن الدلال، وتعزف على أوتار الحب نغما متفردا، ابتسمت وهي تدرك أن هذه الليلة ستسجل عودة قلبها إلى مكانه الصحيح، وستعرف اعتدال نبضاته بعد كل اللخبطة التي عرفها منذ رحيل زياد.

في المساء كان الربان جالسا يعقد قران العروسان، على يمينه صوفيا وعلى يساره زياد، وشاهداهما رضوان وأحمد طبيب الباخرة، فلم يكونا يعرفان غيرهما.

عندما انتهى الربّان، أعلن بداية الحفلة بتقديم عشاء فاخر على شرف العروسين، وبعد نهاية العشاء بدأت الأفراح بعزف جميل من الفرقة الموسيقية للباخرة، بينما أخذ بعض الحاضرين يغنون أغاني عربية بكل اللهجات، تارة جزائرية وتارة مصرية، مرّة مغربية وأخرى خليجية، تونسية وعراقية، فلسطينية وأردنية، لبنانية وليبية، وهكذا التحم الجمع كأن الوطن العربي قرر أن يتوحد في عرس زياد وصوفي، وكأن العالم العربي أبى إلا أن يزف البنت المغتربة عن وطنها الأم إلى فرحتها ويسلّمها لرجل حياتها، بينما يتراقص بعض الحاضرين خاصة منهم الشباب على الأغاني والموسيقى، ورقص زياد رقصة شرقية جزائرية مع

عروسه على أنغام أغنية (الزينة) التي طلبها من الفرقة، تلك الأغنية الجزائرية التي اختارها يوما زياد في مطعم الفندق، عندما أراد أن يوصل حال قلبه لصوفي، وراح يومها يترجم كلماتها في أذنها، لكنه اليوم أدرك أنه ليس بحاجة لذلك، تذكّرتها صوفي بمجرد بداية عزفها، وقد عرفت لحنها، وأخبرته أنها كانت تعيش على وقع أنغام هذه الأغنية منذ رحيله، أخبرته كيف كانت تغمض عينيها لتعيش تلك اللّحظات مرّات ومرّات، وبعد طلبٍ وإلحاحٍ من الحاضرين كانت رقصة ثانية، هادئة الحركات تخفي صخب المشاعر، يضمّها إلى صدره وتضع هي رأسها على كتفه، بينما النبضات تحتفل بهذا القرب الذي طال موعده، وتعزف أغنية العشق الأبدي.

واكتملت الرقصة بزغاريد النسوة على اختلاف بلدانهن، لكنها كانت زغاريد عربية في النهاية، زغاريد الفرح العربي.

انتهت الحفلة وانسحب الجميع إلى غرفهم، بما فيهم العروسان، اللذان كانت سعادتهما ظاهرة للعيان طيلة الوقت، من تلك الابتسامات العريضة، التي لم تنسحب من على وجهيهما، من تلك الحركات البسيطة كتشابك أصابع اليدين اللتان لم تنفصلا طيلة الحفل، من تلك النظرات التي كانا يتيهان فيها حتى يستيقظا على

شخص يوجه لهما الحديث، من تلك الرقصة التي أغلقت فيها العروس عينيها وهي تلقي برأسها على كتف زوجها، كأنه المكان الوحيد الذي تجد فيه راحتها بعد عناء سفر طويل فقدت فيه أمل الوصول إلى وجهتها، من تلك القبلة التي رسمها على جبينها، طويلة مستقرة، كأنه وجد أخيرا راحته في مرساه.

****

الفصل التاسع :

(لكبيدة)

ليس عليك أن تغار ممن أوجعني قبلك،

فكنت أنت الترياق، ولا ممن ضيّعني،

فجئت أنت ووجدتني وكنت ليّ الأمان،

ليس عليك أن تغار ممن كان ندمي، بينما أنت عطيّتي،

ولا ممن خذلني، بينما أنت ثقتي

وصلت الباخرة أخيرا إلى الجزائر، اتخذ زياد الإجراءات اللازمة لمغادرة السفينة هو وزوجته، ودّع صديقه الجديد الذي كان يغادر الباخرة هو أيضا مع عائلته، ليتجهوا بعدها إلى وهران مدينة رضوان، تلك المدينة الساحلية الساحرة التي تقع غرب البلاد، مع وعد بأن تتبادل العائلتان الزيارة بمجرد استقرار أحوال زياد وعروسه.

قاد زياد زوجته إلى الفندق الذي كانت قد حجزت فيه سابقا، كانت ستبقى ثلاثة أيام فقط لأنها لا تستطيع أن تترك آدم مع ميلي أكثر من عشرة أيام كحد أقصى، وجود صديقتها أماليا في حياتها وحياة آدم كان دوما عونا لها، خاصة أن آدم يعرف ميلي منذ ولادته بحكم أنها كانت صديقتها من أيام المدرسة الابتدائية، شهدت كل جنونها وخيباتها وآمالها، ولولا أن صداقتهما كانت قديمة، لما استطاعت صوفيا أن تثق بها بعد أن فقدت الثقة في كل من حولها، مرّت صداقتهما بمرحلة صعبة، عندما انزوت فيها صوفيا عن العالم حتىّ عن ميلي، لكن هذه الأخيرة لم تستسلم، ووقفت بجانبها دون أن تطالبها بتفسيرات، بل فقط قدّرت أن صديقتها تعاني، وأن ابتعادها ما هو إلا ردّة فعل عكسية لكل ما أصابها من خيبات البشر، ومع الوقت مرّت الأزمة واستمرت

الصداقة أقوى، واليوم لا تأتمن صوفي على آدم أي شخص في العالم، سوى صديقتها (أماليا)، وآدم يبقى معها لأنه وجدها دائما في حياته، بحكم هذه الصداقة وبحكم أنهما جارتان متقابلتان في نفس الطابق، داخل نفس العمارة، ميلي كانت بمثابة الخالة في حياة آدم.

ودّعها زياد متجها لبيت والديه لتمهيد الطريق لإعلان زواجه الرسمي بصوفي، ومحاولة إقناعهما بالأمر الواقع، كان يعلم أن الأمر سيكون صعبا، لكن لا مفرّ منه، صوفيا أصبحت زوجته بعقد موثق، وهو قد اتخذ قراره أنه يريد إكمال حياته معها، لن يصبح وزيرا، والأكيد أنه سيحرم من الالتحاق بالسلك الدبلوماسي، لكنه سيجد عملا آخرا بمستوى الدكتوراه التي تحصل عليها مؤخرا، أما بالنسبة لنضاله فسيستمر مع الجمعية، هو ليس بحاجة ليكون سياسيا، حتى يستمر في النضال، هو يعلم أنه يقدم تنازلات، لكنه يدرك جيدا أنه يشتري حبه، وفي نفس الوقت لن يتنازل عن قضيّته المتمثلة في النضال من أجل وطنه.

هي كانت تعرف أن والده يرفض الأمر ولن يتقبله بسهولة، لكنهما تزوجا رسميا والأمر يستحق القتال من أجله، كما أخبرها

زياد على الباخرة، وهي ستصبر الوقت الذي يتطلبه الأمر لتسوى حالتهما، وليتقبل والديه وجودها في حياة ابنهما.

****

عندما وصل إلى البيت، وجد أن الخبر قد وصل لوالده بمجرد وصوله إلى السفارة.

ثارت ثائرة والده ولم يترك له مجالا لشرح الأمر، أو لمحاولة إقناعه، كان رده واضحا لا يحتمل أي تفسير أو فرصة أخرى:

(إما أن تطلقها وتدعني أجد حلا لهذا المأزق، الذي وضعت نفسك ووضعتنا فيه، وإما أن تخرج من بيتي، وتنسى أن لك عائلة هنا)

بقي أسبوعا كاملا يحاول فيه حل الأمر بشكل آخر غير الذي فرضه والده، يلتقي زوجته -التي اضطرت لتأجيل موعد سفرها- بشكل سرّيّ أضاع عليه حلمه، بأن يُعرّفها على كل قطعة من أرض جدّتها الموعودة، وأن يكون دليلا لها في استكشاف جنّة جدّتها، وكانت هي صابرة متأسفة على وجودها في بلد جدّتها دون القدرة على استكشافها، إلى أن حدثت تلك المواجهة بينه

وبين والده الذي عاد لمطالبته باتخاذ قراره إما الطلاق وإما مغادرة البيت:

ـ إنها زوجتي الآن، الأمر منتهي

ـ طلقها وأنا سأتدبر الباقي

صوته كان حازما وهو يرد على طلب والده:

ـ لا أستطيع

فصرخ والده فاقدا حِلمه:

ـ وتستطيع أن تعيش بدوننا؟

فيرد هو غير مستوعب لهذا الذي يفرضه والده:

ـ ولماذا يجب أن أعيش دون أحدكم؟ أنتما والدايّ وهي زوجتي

فيرتفع صوت والده غاضبا:

ـ ألا تدرك أنك وضعت نفسك في مشكلة كبيرة؟ لقد قضيت حياتي كلها أمهد لك الطريق للوزارة وأبني لك مستقبلا زاهرا، وجئت

أنت وهدمت كل شيء، من أجل امرأة لا نعرف لها أصلا ولا عائلة

فيرد زياد مدافعا عنها:

ـ تلك التي تتحدث عنها زوجتي، صحيح أنها عاشت في فرنسا لكن والدها وأجدادها جزائريون

يضحك والده ساخرا وهو يجيبه:

ـ جزائريون باعوا أرضهم وذهبوا للعيش في بلاد الأعداء، وتقول لي جزائريون، من الذي سيصدّق أنهم لم يكونوا خونة واتبعوا أمهم فرنسا عندما خرجت من الجزائر؟

يرد هو غيبتها وقلبه يتمزق أسفا:

ـ هذا الكلام الذي تقوله غير صحيح، أولئك الذين خانوا الوطن كانوا معروفين في مناطق سكنهم بأنهم خونة، الجميع يعرف من هم (الحركى) في منطقتهم، وعائلتها لم يشهد فيهم أحد بأنهم كانوا كذلك.

يزمجر والده مجيبا:

ـ تعالى أنت وأقنع أعضاء الحزب بهذا الكلام

سكت زياد مصدوما من حقيقة الأمر، فالناس فعلا تميل لتصديق الأكاذيب والإشاعات، أكثر من الحقيقة، وفي السياسة، المجال الذي ينتمي إليه هو ووالده، كل الأسلحة كان مسموحا بها، لكسب الحرب السياسية، أخرجه من صدمته صوت والده مؤكدا:

ـ الكلمة الأخيرة، إما نحن وإما هي، طلقها وإلا لا عودة لك لبيتي مرّة أخرى، سأغادر الآن وعندما أعود، إما أن أجدك قد طلقتها أو لا أجدك في منزلي.

عندها أدرك زياد أنها النهاية التي كان يخشاها، لا يستطيع أن يطلّقها فقط لإرضاء والده، وهذا الأخير يصّر أنه لا بقاء له في بيته إذا لم يطلّقها، لا يستطيع أن يتخلى عنها بعد كل الذي حدث، بل لا يريد فعلها أصلا، هو يريدها بكل جوارحه، يريدها وقد يتخلى عنه قلبه إن هو فعلها.

في النهاية قرّر مجبرا السفر، لم يكن لديه خيار آخر، اتجه إلى غرفة والدته التي كانت تائهة لا تجد من حل سوى البكاء، مقسمة بين قلب ابنها وأحلام زوجها، ليخبرها أنه سيهاجر إلى فرنسا، ليعيش مع زوجته، فيمزق قلبه اتهامها:

ـ ذاهبٌ إليها، اخترتها هي وتركت والديك.

انتفض منحنيا يقبل يد والدته:

ـ لست أنا من اختار يا أمي، والدي هو من طردني من منزله

ردّت والدته محاولةً ثنيه عن عزمه:

ـ طلقها وابقَ هنا إذن، لماذا تذل نفسك بالذهاب للعيش عندها؟

نكس رأسه وهو يعلم أنه لا يستطيع إغضاب والدته، وأنها هي الوحيدة التي يمكن أن تفهمه، أن تفهم معاناته ووجع قلبه:

ـ أحبها يا أمي، والله جربت نسيانها ولم أقدر، نارٌ يا أمي تلتهب بداخل قلبي، لا أستطيع أن أطلقها، لا أستطيع.

كان قلب والدته يتمزّق حزنا على ابنها، لكنها كانت تحاول الصمود، فهي ليست قادرة على خسارة ابنها ولا زوجها، بين نارين لم تجد من وسيلة، إلا الضغط على ابنها حتى يرضخ لرغبة والده:

ـ وبعتنا نحن من أجلها.

فيخرج صوته حزينا يغطيه شعور الخذلان:

ـ أنا لم أبع، أنتم من باعني لمجرد أنني تزوجت المرأة التي أحببت

تواصل ضغطها لعلها تؤثر عليه وهي تعلم أن زوجها لن يتراجع، تدرك أن ابنها هو الحلقة الضعيفة، أملها الوحيد حتى لا تتفكك أسرتها، أن يتراجع:

ـ وماذا يقول الناس عنك وأنت متزوج من امرأة مطلقة لمرتين، ولديها طفل مريض؟

ينتفض مدافعا عنها:

ـ كل ما يهمكم ما سيقوله الناس لأن زوجتي مطلقة لمرتين ولديها طفل مريض، ما ذنبها هي إن كانت قد تزوجت بوغدين؟ وما ذنب قلبي الذي تعلق بها؟

تحاول الأم إخفاء ضعفها ورقّة قلبها الموجوع على ولدها، تدرك أنها يجب أن تقسو عليه لتبقيه معها، فتألمه ليرضخ، ويتألم قلبها عليه ومعه:

ـ بنيّ أنت تضيع حياتك ومستقبلك معها، أنت تعلم أن السلطات ستجري بحثا مكثفا عن زوجتك حتى تقبل تنصيبك في الدبلوماسية، وبظروف زوجتك هاته لن يكون لك أية فرصة في عالم السياسة، طيلة حياتك كان حلمك أن تلتحق بالسلك

الدبلوماسي، والدك عاش حياته كلها يهيئك لتلك اللحظة التي ستصبح فيها دبلوماسيا ويوما ما وزيرا، لماذا تتخلى عن طموحك وعن أحلامنا من أجل امرأة كانت لرجلين قبلك ولـ...

ـ يكفي يا أمي، أستحلفك بكل عزيز لديك يكفي

قاطعها وقد أوجعته كلمات والدته، تذكيرها له بأن حبيبته كانت لرجلين قبله تسبب له في ضيق في الصدر، هي نار الغيرة التي تستعر جحيما بقلبه كلما تذكّر ذلك، هو يقاوم هذا الإحساس بداخله منذ عرف أنها مطلقة لمرتين، لكنه مازال لم ينجح في التعايش مع هذه الحقيقة

جاءه صوت والدته متعاطفا مع ألمه، لكنها تريد أن تسترجع ابنها حتى لو أوجعته الآن بكلماتها:

ـ إنها الحقيقة بنيّ، مهما تناسيتها أو حاولت إغفالها، سيكون هناك دوما من يذكّرك بها.

رفع رأسه إلى السماء، كأنه ينشد الخلاص من هذا الألم الذي يذبحه، وهو يردد كلمات لا يستطيع قولها إلا لوالدته، وما تعلّم الرجل الجزائري، ولا الرجل العربي أن يصدح بعشقه أمام الملأ، أو أن يصرخ عذابه ويظهر ضعفه أمام الناس:

ـ أنا عاشق يا أمي، وهل للعاشق حرية الاختيار؟ هل لمن باعه قلبه واشترى محبوبه فرصة المساومة على بنود العقد؟ أنا هنا يا أمي مفعول به ولست فاعلا، لست من باع ولا من اشترى، أنا من بِيع كشيء لا يملك رأيا، هل سمعت يا أمي بعاشق تخلى راضيا عن معشوقته؟ أنا عاشق ابتليت والعشق يكبلني، لا أنا حر فأختار الفراق، ولا أنا عبد راض بعبوديته، أنا عاشق والعشق صبابتي، أنتم تخيرونني فيما لا حيلة لي فيه، قلبي لم يعد ملكي، ولا يستطيع المرء العيش بدون قلبه، إن بقيت هنا بقيت ميتا بلا قلب، وإن ذهبت إليها عشت بجسد بلا روح، لأنكما يا أمي روحي أنت ووالدي، فأي خيار تطلبان مني اتخاذه؟

عاد بنظراته إلى وجه والدته، وهو يقول بصوت ذبيح يغالب إحساسه بخروج الروح من جسده:

ـ أحبها يا أمي، أنا أتعذب وأنا معها، لكنني سأموت بدونها.

اقتربت والدته تضمّه بين ذراعيها، وقد انهمرت دموعها وانفطر قلبها ألما على فلذة كبدها، تحاول امتصّاص وجعه، تتمنى لو أنها تستطيع أن تتحمل عنه كل هذا الألم والضياع، فترك نفسه ليعود طفلا يريحه هذا الحضن، لكن الألم كان أكبر من براءة الصبا، والطفل الصغير لم يعد صغيرا، يبكي لمجرد رغبته في لعبة أو

حبة حلوى، الصغير أصبح رجلا مسّه العشق، فكبرت همومه، بقدر كبر العشق الذي أصابه، وويل قلبه مما أصابه.

قبّل رأس أمه، ثم انكب على كفها يقبّله، وهو يترجاها ألا تغضب عليه:

ـ لا تغضبي عليّ يا أمي أرجوك، سأضيع بدون رضاك عني، وتذكريني دائما بدعائك

كانت نظراته متوسّلة، يجاهد ليمنع دموعا تريد أن تنساب على كتف أمه، أدركت والدته أنه مفارقٌ حضنها لا محالة، وأنها ستخسر ابنها، ولم تكن تملك الآن إلا أن تطمئنه وأن تدعو له، حتى وقلبها يتمزق حزنا عليه:

ـ أنت ابني، مهما فعلت لا يستطيع قلبي أن يغضب عليك

ـ لا تنسيني من دعائك يا أمي

أومأت برأسها مجيبة سؤله، وقد اختنقت العبرات بصوتها فكتمته، ارتمى هو في حضنها مودعا، وانفجر الاثنان في بكاء مرير لم يعد أحدهما قادرا على حبسه، مدركان أن اللقاء القادم قد يطول موعده، وأن قلبيهما سيعانيان من هذا البعد المحتوم عليهما.

***

سافر بعدها إلى فرنسا رفقة صوفيا، التي كانت قد مدّدت مدّة إقامتها من ثلاثة أيام إلى أسبوع، أملا في أن يرضى والد زوجها أخيرا، ولكنه لم يفعل، قطع والده عنه أية إعانة ورصيده في البنك كان مبلغا زهيدا، لم يكن يملك إلّا سيارته التي باعها بمبلغ أقل من قيمتها، لأنه لم يكن يملك وقتا كافيا لانتظار السعر الجيد.

بين عشية وضحاها وجد نفسه قد فقد كل شيء، حتى الشّقّة التي كان يقضي فيها أوقاته مع أصدقائه في فرنسا وجد والده غيّر مفاتيحها، جاء إليها صفر اليدين، لا يملك شيئا يقدمه لها إلا حبه المجنون الذي أوصله إلى قلبها، تلقته هي تخبره أنها لا تحتاج لأكثر من وجوده في حياتها، لكن اليأس كان قد استبد به، مع شعوره بعدم نفعه في شيء يذكر:

ـ ما الذي ستفعلينه بي الآن؟ أنا والمتشرد سواء.

ـ لا تقل هذا حبيبي، أنت تساوي عندي مغريات الحياة بأكملها

ـ لا يمكنني تحميلك ثقل وجودي في حياتك، يكفيك مسؤولية الطفل، أنا الآن لا أملك مالا، بدون مأوى ولا حتى سيارة، لا أملك عملا ولا مستقبلا، فماذا ستفعلين بمعدوم مثلي؟

وضعت كفها على خده تواجه عينيه الكسيرتين، وهي تخبره بحب فاض من عينيها العاشقتين:

ـ البيت موجود وغرفتي مشتاقة لك، ثم أننا هنا في فرنسا تتكفل الدولة بمعالجة الصغير على نفقتها، بما أنه يحمل الجنسية الفرنسية، وتمنح الأم منحة الاعتناء بطفلها والبقاء دون عمل.

انتفضت كرامته وهو يجيبها:

ـ وهل سأعيش أنا عالة عليك، أقتسم معكما ما تجود به فرنسا كمتسوِّل؟

ـ حبيبي هذا في البداية فقط، ستجد عملا مع الوقت، ثم أنك لست متسوّلا، أنت خريج جامعة ودراسات عليا

ـ ذلك كله لا يكفي، لم أعد سوى شخصا فقد كل شيء، ولا يملك ما يقدمه لك في المقابل

ـ بلى، أنت تقدم لي ما عشت طوال عمري أبحث عنه، الأمان الذي عشت أرتجيه ولم أجده إلا بين ذراعيك، عشت حياتي وأنا أشعر بالضياع، حتى في زيجتيّ السابقتين كنت أبحث عن الأمان ولكنني لم...

قاطعها فجأة، واضعا سبابته على فمها، قائلا بحدّة:

ـ إذا كنا سنكمل حياتنا معا، فيجب أن نتفق على أشياء يجب احترامها، أولها أن تنسي وأنت معي أنك كنت متزوجة قبلي، أنا بالكاد أتحمل هذه الحقيقة، وأحاول إبعادها عن وساوسي المجنونة، فلا تذكريني أنت بها كل مرّة، محطمة كل الجهود التي أبدلها

ابتسمت رغما عنها وهي تسأله في دلال:

ـ أتغار؟

ارتفع حاجبه وهو يجيبها:

ـ لا، أنا لا أغار، إنما رجولتي لا تسمح بإقحامك رجلا غيري في حديثنا، حتى لو كان...

صمت غير قادر على ذكر الكلمة التي تؤرقه منذ عرف بوجودها، بينما أخذت هي وجهه بين كفيها لتضع قبلة خفيفة على شفتيه، مغمضة عينيها تأثرا فاستقبلها هو مستسلما لهذا الإحساس الجميل، الذي تخلقه فيه بمجرد قبلة صغيرة، بأنه ملك الدنيا بامتلاكه قلبها، ثم سمعها تقول:

ـ ليس عليك أن تغار ممن أوجعني قبلك، فكنت أنت الترياق، ولا ممن ضيّعني، فجئت أنت ووجدتني وكنت ليّ الأمان، ليس عليك أن تغار ممن كان ندمي، بينما أنت عطيّتي، ولا ممن خذلني، بينما أنت ثقتي، ليس عليك أن تغار من ماضٍ لو ملكت أن أمحوه لفعلت، بينما لو خيروني بين عمرٍ بعيدة عنك، وبين لحظة في دنياك لاخترت اللحظة، لاخترتك أنت، ولا أحد غيرك أنت.

وصلته كلماتها بلسما لإحساسه القاتل بضعفه، وقلة قيمته، ليرى نفسه الآن في عينيها، كما تراه هي، كل الأمان، وكل ما تتمنى امرأته، لكنه ابتسم وهو يقول مشاغبا:

ـ لكنني أغار من رجل يمرّ ظلّه بجانبك، عطره على أنفك، أو اسمه على شفتيك، فاحذري من غيرتي، وأنا رجل جزائري يمكن أن يقتل إذا غار

رسمت دهشة مصطنعة على ملامحها:

ـ ستقتلني لأن رجلا تعطر ومرّ بجانبي؟

هز رأسه نافيا وهو يجيب دون أن يبتسم، محاولا رسم الجدية على ملامحه:

ـ لا، سأقتل الرجل وعطره، وأمحو اسمه وظلّه

انفجرت هي ضاحكة وهي ترد:

ـ سأحرص إذن على ألا أثير غيرتك الخطيرة، لأنني أريدك بجانبي وليس في السجن

شاركها هو ضحكتها يضمها إلى قلبه بينما سمعها تردد:

ـ أحبك، أحبك وأحب جنونك وغيرتك

فأجابها بجزائريته الخشنة المحببة إلى قلبها، لأنها تعرف أنه عندما يتحدث بلهجته فهو فاقد السيطرة على نفسه وعلى مشاعره:

ـ (وأنا نعشق فيك ونموت عليك يا لكبيدة)

رفعت رأسها وهي تسأله في اهتمام:

ـ ما معنى (لكبيدة)؟

أجابها وقد تهلّل وجهه عشقا:

ـ تصغير لكلمة الكبد، هي عندنا كلمة حب وتدليل

سألته مرّة أخرى:

ـ كيف تنادي المرأة حبيبها بالجزائرية؟

ابتسم وهو يجيبها:

ـ يمكن أن تقول حبيبي، ولكن الكلمة الأقرب لقلب الرجل الجزائري هي (حنوني) عندما تقول المرأة لزوجها (حنوني) فسيذوب هو في حنانها

ابتسمت هي بدورها وراحت تجرّب الكلمة لتنطقها بحرف الخاء فانفجر هو ضاحكا:

ـ لا هكذا ستصبح مسبّة

ـ علمني كيف أقولها

راح يردّد الكلمة ببطء، محاولا إبراز طريقة خروج حروفها، فتردّدها هي بعده، إلى أن نجحت في قولها بحاء مخففة، لكنها تفي بالغرض فقال هو ضاحكا مستبشرا:

- نعم هذه هي.

بينما تضحك هي مسرورة بنجاحها، تصفق بكفيها وهي تكرر الكلمة:

- حنوني

لتسأله من جديد:

- وكيف نقول (أحبك كثيرا)؟

- نحبك بزاف

ابتسمت مركزة فيما ستقوله، ليسمعها تنطق الجملة بلهجته الجزائرية:

- نحبك بزاف حنوني

فيضمّها وقد ارتفع صوت ضحكته، ونغمة الجملة من شفتيها تزيده ولها بها.

****

كان نائما على سريره عندما فتح عينيه على صراخها:
(مستحيل، لا، لا، قاتلة... لقد قتلتني، ذبحتني...)

مدَّ يده يحاول إيقاظها:

ـ صوفي استيقظي، استيقظي حبيبتي

تململت تكرر الكلمة الأخيرة، ليهزّها بقوّة أكثر فتفتح عينيها الدامعتين على صوته يسألها:

ـ إنه كابوس، بماذا حلمتِ؟

ـ لا شيء

أجابته بنبرة جامدة، مدّ ذراعه يحاول ضمّها إلى حضنه، لكنها انسحبت من السرير قائلة:

ـ سأرى آدم

بقي ينظر إليها حتى خرجت من الغرفة، لكنه سمع بعد هنيهة صوت المياه من مرش الحمام، ليدرك متعجبا أنها لم تدخل غرفة آدم، بل تأخذ حماما، مستغربا من تصرفها هذا.

****

الفصل العاشر:

(الانـهيار)

وحدك أنت من كنت في قلبي (أنا)

فأوجعني وجعك، وكاد يفتك بي حزنك

بعد مرور عدّة أشهر، كان زياد لايزال يبحث عن عمل، لكن كل الأبواب موصدة في وجهه، شهادة الدكتوراه في العلوم السياسية، لم تشفع له، وأية سياسة تلك التي سيمارسها جزائري في فرنسا، عندما فقد الأمل بدأ يبحث عن عمل لا يعتمد على شهادة جامعية، حتّى كان ذلك اليوم الذي اضطر فيه إلى ركوب سيارة أجرة، وبعد حديثه مع سائقها الذي أخبره أنه يبحث عن سائق يمسك قيادة السيارة ليلا، مقابل أجرة معتبرة، اقترح عليه زياد أن يتولى هو هذه المهمة، خاصّة أنه كان يملك رخصة سياقة فرنسية، حصل عليها أيام عزِّه، عندما كان يأتي زائرا لفرنسا في مناسبات كثيرة، عندما كان ابن الوزير السابق، وله معرفة جيدة بشوارع فرنسا لأنه كان يتنقل فيها بسيارة مستأجرة في كل مرّة دون سائق.

تولى زياد سياقة سيارة الأجرة في المناوبة الليلية، ليعود صباحا منهكا، فيرتمي في سريره، في الوقت الذي تستيقظ فيه زوجته، لتبدأ يوما من حياتها التي كانت جُلّها مكرَّسة لرعاية الطفل، ومتابعة علاجه وزيارة الطبيب الخاص به، مع جلسات التأهيل الجسدي، ورغما عنه كان زياد يغرق في عالم غريب عنه وعما اعتاده، ليشعر كل ليلة بالضياع، وهو يفكر في حالته التي وصل

إليها، لقد تزوج من تلك المرأة ليعيش معها الحب، وها هو يلتقيها صدفة صباحا، بعد عودته منهكا من عمله الليلي، ليمرّ بعدها يومه وهو نائم ولا يجمعهما إلا وقت قصير قبل خروجه للعمل، ووجود الطفل المتعلق دوما بوالدته يزيد الأمر سوءا، فلا يجتمع بها وحدها إلا نادرا.

****

كان زياد جالسا على المكتب قبل خروجه للعمل، يحاول ترتيب أفكاره وهو يطالع المواقع الإلكترونية والجرائد التي اقتناها صباحا قبل دخوله للبيت، علّه يجد عملا يريحه من عمله الحالي، بينما آدم يدخل ويخرج يحاول العبث بالأوراق المنتشرة على المكتب، رغم محاولات صوفيا منعه لكنه كان يغافلها ليعود إلى المكتب مرّة بعد مرّة، وقف أمام زياد يرفرف بيديه ويحرك رأسه يمينا وشمالا، ثم مدَّ يده بصورة خاطفة، وسحب الجريدة وضرب جهاز الكمبيوتر الذي سقط أرضا.

فقد زياد أعصابه وصرخ في وجه الصغير بغضب، لينطلق الأخير في نوبة صراخ دون انقطاع، وهو يضع كفيه على أذنيه، دخلت صوفيا مسرعة، تتلقف الطفل في حضنها محاولة تهدئته،

لكنه ازداد هيجانا وارتفعت ذراعاه يحاول خدش وجهه فحاولت الأم السيطرة عليهما، فتحولت محاولاته إلى خدش ذراعيّ والدته، أمسكت صوفيا بهما لكن كفه فلتت منها لتنتقل إلى شعرها تشدّه بقوّة، ظهرت علامات الألم على وجه صوفيا، لكنها سيطرت عليه، وهي تمسك بذراعيّ آدم وتحتضنه بقوة فتمنعه من الحركة، وهي تهمس في أذنه:

(اهدأ حبيبي، اهدأ أنا ماما حبيبي، اهدأ)

تحركت به تترك غرفة المكتب دون أن توجه كلمة واحدة لزياد، لكن تلك النظرة التي ألقتها عليه قبل أن تغادر الغرفة كانت كافية لقول الكثير، كانت نظرة تمزج بين الغضب، الخيبة، والعتب، وقرأ فيها هو كل ذلك، بينما ما حدث أمام عينيه منذ لحظات صدمه وجعله يفقد حتى القدرة على الكلام.

عندما هدأ الطفل أخيرا خرج زياد إلى صالة البيت، ليصطدم بعينيها اللتان تناظرانه بانكسار، وكأنها تقرأ صراعه الذي بداخله، بقيت النظرات متعلقة ببعضها لحظات، حتى استردت صوفيا تلك الخاصة بها، حملت الطفل ودخلت به إلى غرفته، تحتضنه بشدة وهي تغني له أغنية بلحن ناعم، تحاول تهدئته،

بينما هو مازال واقفا مكانه ينظر إلى هذا المشهد، وقلبه يرتجف خوفا، كل ما حولهما يقود علاقتهما للانهيار، الطفل كان بحاجة ماسة إلى الرعاية، وجوده في حياتها سيعني وجوده في حياة الصغير أيضا، وهو إلى الآن لم يجد الطريقة المناسبة للتعامل معه، أو ربما لم يحاول، هو لا يعرف كيف يتعامل مع طفل عادي، فكيف سيجيد التعامل مع واحد في حالة آدم؟ وهل سيكون قادرا على ذلك؟

بالأمس القريب أصبح زوجا لهذه المرأة، واليوم ربما عليه أن يصبح والدا لابنها، هل سيقدر على ذلك؟ هل هو مستعد للإمساك بيد هذا الطفل المريض الذي يحتاج إلى رعاية شديدة ومتابعة طبية مستمرة؟ هل سيفعل أم أنه سيكون مجرد متفرج على الوضع؟ وهل ستقبل صوفي بوجوده مجرد زوج لها دون أن يتورط في حياتها؟ هل ستبقى على حبه وهي ترى أنانيته وانزوائه عن حياتها؟ أم ستطلب منه الاهتمام بآدم؟ هل ستسمح له أصلا أن يقترب منه وهي التي تحيطه بكل هذا الاهتمام والحذر؟ أسئلة كثيرة كانت تدور في خلده، والأجوبة ضائعة.

هدأ الطفل أخيرا وانقطع صراخه، بقيت صوفيا في مكانها تحتضن آدم وقد عادت إليها ذكريات مريرة، عن أول اكتشافها

لإصابة طفلها بطيف التوحد، وعجزها عن استيعاب الأمر وتقبله، عن معاناتها من معاملة الناس ونظراتهم عندما كان آدم يصاب بنوبة داخل إحدى المحلات الكبرى، التي يرتادها عدد كبير من الناس، كان آدم كطفل مصاب بطيف التوحد، لديه حساسية كبيرة للصوت والحركات، فالصوت في دماغه يتضخّم، ويثير عنده حالة من الصراخ والاضطراب، وعندما كانت تحاول السيطرة عليه، لم تكن تجيد الطريقة المناسبة لذلك، فيصاب بنوبة لم تكن تفهمها في البداية يحاول خدش نفسه، وإذا منعته ينتقل إلى محاولة خدشها هي، فتدخل في حالة من الصراع مع ابنها الصغير، نظرات الناس من حولها المشمئزة من طريقة تربيتها لابنها، وعدم قدرتها السيطرة عليه، غير واعين لمعاناته ولا مستوعبين لاختلافه، كانت ترهقها، جهلها في البداية كيفية التعامل معه، كان يفقدها السيطرة على الأمر، فتحاول التحكم بالصراخ على طفلها أو تهديده، لكن آدم ما كان يكترث لتهديداتها، بل يزيد ارتفاع صوتها في ارتفاع صوته هو الآخر وصخبه ومحاولة إيذاء نفسه أو إيذائها، وتزداد النظرات اشمئزازا من حولها، فتحمل ابنها بقوّة بينما يقاوم هو بين يديها، وصراخه لا ينقطع، وتخرج به لتعود إلى المنزل، وتنفجر بالبكاء

متمنية أن يأخذها الله إليه ويريحها من هذا العذاب، وبعد مرور بعض الوقت تشعر بتأنيب الضمير وقد هدأ طفلها، وتفكر، لمن ستتركه إن هي رحلت عنه؟ وتتكرّر الحالة مرّات عديدة، ويتكرّر يأسها وضياعها، ذكريات صعبة لأنها لم تكن تفهم طبيعة اختلافه، ولا تدرك كيف تتعامل معه، اليوم هي قادرة على التعامل معه بشكل أفضل، رغم أن الأمر لازال متعبا لكن الفهم جعل الأمور أفضل.

نام آدم أخيرا، وضعته على سريره وخرجت، لتجد زياد واقفا في شرفة الصالة يضغط رأسه بين كفيه، كأن الهموم سكنته وضاق بها صدره، استدار إليها وهو يسمع صوتها معاتبة:

ـ أنت تعلم أن آدم له وضعه الخاص، وهكذا سيكون دائما، هو بحاجة إلى مراعاة وتفهم، وأنا قد أسامح في كل شيء إلا إذا وصل الأمر إلى إيذائه.

جاءها صوته خافتا كمن يجاهد لإخراجه:

ـ لم أقصد ذلك، فقدت السيطرة على أعصابي

ساد بينهما صمتٌ، وهما يتبادلان النظرات، نظراتها كانت مستفهمة تبحث عن حقيقة ما، ونظراته كانت متوجّسة تنتظر ردا ما، عندما قطعت هي الصمت بصوت بدا ثابتا، لكن بإحساس مخفيٍ لم يكن كذلك:

ـ الأمر سيكون صعبا دائما، فإذا كنت تنوي الرحيل افعل الآن، قبل أن يتعلق الصبي بك

لا يصدّق ما يسمعه، هل تطالبه بالرحيل؟ استسلمت وها هي تطالبه برمي المنشفة من أول جولة، أم هي من ترميها؟ أجابها وهو ينظر إلى عينيها اللتان كانتا تلمعان ببريق الألم:

ـ وماذا عن والدة الصبي؟

حاولت التحكم في نبرتها حتى لا تفضح اهتزازها من الداخل:

ـ والدة الصبي بالغة تستطيع أن تداوي جراحاتها

لكنه برغم محاولاتها كان يستشعر ضعفها:

ـ ولماذا لا تحاول تفادي الجراح؟

هذه المرّة كان صوتها مفضوحا، يفصح عن مخاوفها التي تتعايش معها منذ عودته إليها، وهي ترى ابتعاده عنها، في

استشعارها إحساسه بأنه بلا قيمة، يعيش عالة عليها، وفي اختياره العمل ليلا، لتزيد الهوّة بينهما ويصعب اللقاء، وتصعب معه الحياة المشتركة بينهما، في استشعارها لندمه الذي لا يفصح عنه، ولكن مكالماته مع صديقه (حسين) الذي كان يقصّ عليه ظروف عمله في السلك الدبلوماسي الذي التحق به مؤخرا، وسؤاله الدائم بحسرة لا متناهية عن أحوال والديه تفضح شوقه لهما.

ـ لأن الأمر أكبر منها، لقد كانت غبية عندما صدّقت أن الحياة عادلة كفاية، حتى تمنحها بلسما لكل جراحاتها السابقة، عندما آمنت أن الماضي يبقى ماضيا، حيث تركته ولن يتبعها ليفسد عليها حياتها، عندما ظنّت أن الحب وحده يكفي في عالم لا يشبه بساطة عالمها رغم تعقيد وضعها، بينما الكل يرفضها من أجل ذنب لا يد لها فيه، لكن الحياة تصر على تلقينها الدروس القاسية، الواحد تلو الآخر، وهي مازالت تصر على الأمل ولا تجد إلا الألم.

كانت تتحدث بضمير الغائب، وكأنها تصف امرأة أخرى، تكاد تنكر أن الذي يحدث، يحدث لها وليس لغيرها، وكان يدرك أنها تغالب الأمل الذي يسكنها، بأن حبهما أكبر من عناد الحياة وقسوة البشر، أقوى من نظرتهم السطحية لما كان وما يجب أن يكون،

الحوار كان يأخذ مأخذا آخر يفضح خوفهما وقلقهما، اقترب منها خطوات ألغت المسافة بينهما، وقلبه لا يبتغي شيئا في هذه اللحظات، أكثر من إلغاء المسافة التي يخلقها وضعها كمطلقة لمرتين وأم لطفل مريض، ووضعه كشاب من عالم مخملي، مهيئ ليدخل عالم السياسة من أبوابه الواسعة، مدّ ذراعيه محاولا احتضانها، لكنها سبقته بعودتها للوراء متجنبة حضنه، كانت تعلم أنه لو لمسها ستضعف ككل مرّة، كانت تعرف أن حضنه وحده سيكفيها لتسكن فيه وتموت عليه، كانت تدرك أن حضنه كفيل بأن ينسيها العالم وما فيه، ولم تكن تريد الغرق فيه، لأجل ابنها، لأجله هو، ولأجل مستقبله، كان عليها أن تقاوم، أن تذبح قلبها وترفض حبه، كان عليها أن تغترب عن حضنه مكرهة بإرادتها هي، لقد حاولا إنجاح الأمر لكن ها هو يدفع الثمن بضياع مستقبله، وها هي تدفع معه الثمن بإحساسها بالذنب، ربما حان الوقت لتطلق سراحه، ربما آن الأوان لإعلان فشلهما.

رفعت رأسها إليه فهالتها نظرات عينيه، ذلك الألم الذي ارتسم فيهما كاد يفتك بها، قتلها الضعف الذي رأته في عينيه، رأت إحساسه بالعجز، ولم تعِ إلا وهي ترتمي في حضنه ناسية كل

وعودها بأن تبتعد، كل عزمها بأن تقاومه، كل ما كانت تذكره الآن أن حبيبها يعاني، وأن معاناته نابعة من عجزه وعجزها، ضمّها إليه حتى أوجعتها ضمّته، كأنه يمنعها العودة إلى تعقلها، يرفض أن يمنحها فرصة التردد، ولحظة الجبن، هاته اللحظات لم تكن تحتمل سوى القوّة، قوّة التعلق به، والإيمان بها، بين ذراعيه وعلى صدره لم يكن للغير وجود، لم يكن إلا هو وهي، وليذهب العالم بكل مقاييسه الزائفة إلى الجحيم، هنا لم يكن إلا عاشقان، جمعهما الحب ولن يفرقهما إلا الموت، وليت اللحظات تمتد دهرا، والدهر يجود على العاشقين، والعاشقان لا يفترقان أبدا.

جاءها صوته المبحوح تأثرا بوجودها في حضنه بلهجته الجزائرية المحببة إلى قلبها:

(نحبك يا جدك، نحبك يا لكبيدة نموت عليك)

فأجابته هي بلكنة تفتقد النطق السليم لحرف الحاء، وقد باتت تحفظ الكلمات وتعرف معناها:

(وانا نحبك حنوني، نحبك بزاف بزاف)

ليبتسم هو رغم الخوف الذي يسكنه، ويضمّها أكثر مقبلا رأسها وهو يقول:

ـ لقد أخبرتك يوما أن الأمر يستحق أن نقاتل من أجله.

ولكن ردها فاجأه:

ـ لو طلقتني هل تستطيع العودة لمنصبك؟

كانت تحاول استعادة تعقلها، قبل الحضن عندما استقرت أفكارها على أنه حان الوقت ليعلنا فشلهما.

أبعدها عنه وابتعد، حتى لا يتصرف تصرفا يندم عليه، وقد تملّكه غضب شديد:

ـ هل اشتقت لحياتك السابقة؟ تريدين تجريب الرابع، مللت مني؟
انفجرت باكية وبدل أن تغضب من كلماته، وجدها تقول في حزن شديد:
ـ حياتك تتسرب من بين يديك، أنت تعمل سائق تاكسي بعد كل تلك الدراسة، ووالدك يرفض أي اتصال معك، ويمنع والدتك من الحديث إليك حتى بالهاتف، بعد أن حلف عليها بالطلاق إن هي فعلت، حياتنا أنا وأنت تسير بشكل متقاطع، أنا أنام الليل وأنت

تنام النهار، وأنا أرى صراعك وحزنك، أشعر بضياعك، ربما حان الوقت لأخرج من حياتك.

هدأ وهو يدرك أن كلماتها نابعة من حبها وخوفها عليه، فمدّ يده قائلا:

ـ اقتربي

ارتجف صوتها وهي تجيبه:

ـ لا أريد

حدجها بنظرة قاسية وهو يقول:

ـ تعالي إلى هنا قبل أن أفقد أعصابي

هزّت رأسها نفيا وهي تسأله:

ـ وماذا ستفعل حينها؟

خطا خطوة وحيدة باتجاهها، ومدّ ذراعه يسحبها إليه، فاصطدمت برفق بصدره، سحب طرفيّ معطفه الذي يرتديه، يلفّها به ويضمّها إلى قلبه، وهو يستنشق رائحتها التي تتسبب كل مرّة في ضياعه بين ذراعيها، بينما أغمض عينيه محاولا السيطرة على نفسه:

ـ أنت ترتجفين، هل تشعرين بالبرد؟

هزّت رأسها نفيا فأضاف:

ـ لمَ إذن؟

دسّت رأسها في حضنه وهي تقول:

ـ خائفة

ـ مما حبيبتي؟

ـ مني معك

سكتت قليلا ثم أردفت:

ـ عليك مني

فتح عينيه وهو يراقب شحوب وجهها ليسمعها تكمل:

ـ أنا امرأة مشؤومة منذ دخلت حياتك، خرّبتها

ارتجفت شفتها السفلى وهي تحاول منع دموعها، بينما أخذ هو وجهها بين راحتيّ يديه وهو يقول:

ـ أولم أخبرك أنني أحتاج إلى هذا الخراب؟ أنني أموت من رتابة حياتي بدونك، ألا تدركين أن نبض قلبك على وزن نبض قلبي، هو الشيء الوحيد الذي يبعث فيّ الحياة.

أغمض عينيه مرّة أخرى، وقرب وجهه من وجهها وهو يضيف:

ـ خربي حياتي كما تشائين، لكن لا ترحلي بعدها، أعيدي ترتيبها ثم عودي وخربيها مرّة ثانية وعاشرة، وفي كل مرّة سأكون هنا لمساعدتك على ترتيبها مرّة أخرى، فقط لا ترحلي حتى لا تجعلي

الخراب آخر عهدي، اجعليني أبعث بعد كل خراب، واكتبي عهدا جديدا لرجل يولد من الأنقاض بعد كل دمار، فيعيش على يديك أعمارا عديدة، ويعرف معك حضارات كثيرة، وهل لرجل أيًا كان، القدرة على مقاومة البعث في حبك آلاف المرّات؟ حتى لو كان البعث يسبقه الموت في كل مرّة.

انتفضت بين ذراعيه ولم تعد قادرة على كتم شهقاتها، ولا منع دموعها، ضمّها إليه أكثر، وتركها تفرغ وجعها، ثم عاد ورفع رأسها إليه ليسمعها تقول:

ـ أريد أن أمنحك الحياة لا الموت، لأنك وحدك من بين كل من عرفت، من اهتم بمراقبة نبضات قلبي، وضبط نبضات قلبه على وقعها، وحدك من بين كل البشر من جعلني أعدِّل نبضات قلبي، وأبطئ سرعتها لتلحق أنت بها، وحدك أنت من كنت في قلبي (أنا) فأوجعني وجعك، وكاد يفتك بي حزنك.

أحنى جبينه فلامس جبينها، أغمض عينيه وهو يقول بصوت مبحوح يغالب لإخراجه رغم غصّة حلقه:

ـ إذن لا تتحدثي عن الفراق مرّة أخرى، فأنت الحياة التي أريدها بكل وجعها وصخبها وجنونها، فقط كوني معي وذلك كافٍ لأحيا.

سمعها تقول هامسة وقد غلبها شوقها:

ـ لكن ماضيَّ سيظل دائما بيننا لقد تزوجت رجلين قبلك سو...

وضع يده على فمها حتى يمنعها من إكمال جملتها وهو يزأر في وجهها:

ـ لقد حذرتك سابقا ومنعتك من الحديث عنهما، لو تجرأ عقلك على تذكّرهما سأجعلك دون ذاكرة، ولو تجرأ لسانك على ذكرهما قطعته لك.

نزعت يده من على فمها وهي تقول:

ـ وماذا ستفعل بي بدون ذاكرة وبلسان مقطوع؟

أجابها بنبرة بدّت جادة رغم جنون كلماته:

ـ سأرسم تاريخا جديدا بذاكرتك، يبدأ بي، وينتهي إليّ، وأعلمك لغة الإشارة، لكنني سأعلمك كلمة واحدة هي اسمي.

سكت قليلا ينظر إليها بتفكّر ثم أردف:

ـ ربما كلمتين اسمي وحنوني

ابتسمت في تأثر وهي تجيبه:

ـ لقد رسمت فعلا هذا التاريخ وعنونته باسمك

ابتسم هو بمرارة قائلا:

ـ لماذا تكابرين إذن؟

ـ لأن هذه الزيجة تسببت بضياع كل أحلامك.

فيزمجر بنبرة العشق الخاصة به، والتي تزيدها به ولعا:

ـ أيتها الغبية، ألا تعلمين أن أحلامي أصبحت تافهة، يوم سكنني حلم آخر بأن أنجب منكِ أطفالي وأكمل معك عمري.

هذه المرّة فقدت هي السيطرة على نفسها، فأخفت رأسها في حضنه، لا تجد كلمات ترد بها، إلا إظهار حبها وحاجتها إليه، وتمسكها به رغم كل ما يحدث.

الفصل الحادي عشر:

(الماضّي يعود، والشوق لا يموت)

لِمَ لَمْ يتوصل العالم لطريقة تخزين رائحة الأم

في قارورة عطر، يستعين به الغرباء

على قهر يتمهم بعيدا عن أمهاتم

جالسا في الصالة، يعزف لحنا هادئا جدا بقيثارته، التي جلبها معه من الجزائر، انتبه إلى اقتراب آدم منه، والذي وقف قبالته ينظر إليه وإلى الآلة التي تُصدر صوتا بين يديه، يرفرف بيديه في الهواء على وقع النغمات الهادئة، أخذ زياد يده اليمنى في حذر شديد وقربها من الآلة، ليستشعر الطفل الموسيقى ويحسّها، فابتسم آدم وهو ينظر إليه، واستمر زياد في العزف، وآدم في الرفرفة بيده الحرة، ومداعبة القيثارة بيده الأخرى، وفجأة نظر إلى زياد وقال:

- زيدو

توقف زياد عن العزف، وقد فاجأه صوت الطفل يناديه لأول مرة، فراح آدم يكرّر الكلمة مرّات متتالية، ويشير للآلة، ففهم زياد المقصد بعد أن انتبه من صدمته، وعاد للعزف، فعاد آدم للابتسام والرفرفة بيديه، فراح زياد يكلم الطفل بصوت خفيض، كأنه يخشى أن يزعجه صوته الرجولي:

- هل هذا يعني أنك غفرت لي تصرفي الغبي ذلك اليوم؟

لم يجبه الطفل، وكان زياد يدرك أنه كمن يكلم نفسه، لكنه صُدم مرّة أخرى عندما رفع الطفل وجهه وقال:

- دم حب زيدو (آدم يحب زيدو)

ولأن زياد متعود على سماع آدم يقول لـميلي (دم حب ميلي) ففهم المعنى دون جهد، هذه المرّة فقد أي قدرة على العزف، لكن الطفل مدّ يده يلعب بالأوتار.

بقي زياد ينظر إليه والصدمة تكبّله، ثم ابتسم للطفل يقول له:

ـ وزيدو يحب آدم، ويعتذر منه

رفع آدم وجهه وهو يضرب بيده على الآلة ويقول:

ـ دي، دي

فسأله زياد مبتسما:

ـ تريدني أن أعزف لك مرة أخرى؟

لكن الطفل لم يردّ، بل واصل طرقه على الآلة، فأمسك زياد يد آدم برفق شديد، وهو يقول له مشيرا للآلة بيده:

ـ هذه قيتارة

ثم بدأ يعزف وهو يقول:

ـ وهذا لحنٌ

سحب آدم يده من يد زياد وعاد للرفرفة بكلتا يديه، وهو يردّد:

ـ حن، حن

ضحك زياد محاولا كتم صوته حتى لا يخيف الطفل، ثم وضع يده على رأس الفتى يتلاعب بلطف بشعره الأسود الناعم الكثيف وهو يقول:

- شعرك يشبه شعر أمك أيها الفتى الوسيم

لكن آدم لم يجبه، بل استمر بالرفرفة بيديه فأردف زياد مؤكدا:

- يوما ما سأعلمك العزف على القيتارة، وعندما تكبر قليلا سأعلمك لعب الكرة، سأعلمك أشياء كثيرة، وسنصبح صديقين أنا وأنت.

رفع زياد رأسه فجأة، ليلتقي بنظراتها الدامعة، كانت تراقبه دون أن يشعر بها وهي تمنع نفسها من البكاء، يراودها شعور غريب وهي ترى الرجل الذي تعشق، يحاول احتواء ابنها الحبيب، يعتذر منه ويعده بأنه سيعلمه العزف والكرة، كما يفعل والد محب مع ابنه، ابتسمت له بحب خالص، فبادلها الابتسامة وقلبه يرتجف تأثرا.

****

مرَّ الوقت غريبا بعدها، لا يشبه الوقت الذي كان يعرفه قبلا، تسعة أشهر منذ غادر الجزائر ليقيم هنا في فرنسا، في بيت صوفي، لا شيء تغيّر، أحواله المادية تزداد سوءا، وعمله الليلي يزيد في بعد المسافة بينه وبين زوجته، كان تفكيره يؤرقه، وسؤال بداخله يصرّ على زرع الشك في عقله، ألهذا ترك رغد حياته؟ ترك عائلته وشقته وسيارته، دراسته ومستقبله، من أجل هذه الحياة البائسة التي يعيشها الآن؟ من أجل أن يصبح سائق سيارة أجرة، يعيش مع امرأة لا تربطه بها إلا سويعات يختطفانها من عمر الزمن، أكانت هذه الحياة تستحق أن يتخلى عن عائلته وحلمه بأن يصبح دبلوماسيا؟

الشك يأكل قلبه ويلعب بأعصابه، كل صباح عند عودته إلى المنزل يسأل نفسه (ماذا أفعل هنا؟) ولا يجيبه إلا الضياع الذي بداخله، كان يصرّ على المساهمة بثلاثة أرباع راتبه في مصاريف البيت، رغم رفض زوجته وإعلانها عدم حاجتها لذلك المال، لكنه كان يريد أن يشعر أنه الرجل في بيته، حتى لو كان البيت بيت زوجته، وراتبه لا يعني الكثير لها، لكنه كان يعني له هو، يعني أنه ليس عالة عليها، ويعني أنه لا يعيش على صدقات البلد الذي عاش يناضل ضده، ينظر إليها في كثير من الأحيان

وهي نائمة يسائل نفسه، ألا يراودها الندم على زواجها منه وإدخاله حياتها؟ أمازال يمثل لها الأمان الذي كانت تنشده حتى وهو غائب طيلة الليل، ونائم أغلب النهار؟ أية حياة تلك التي يعيشانها معا؟ وأية أقدار تلك التي رسمت لهما هذه الحياة؟

طال به الوقت والوضع على حاله بل يزداد سوءا، هو يشتاقها، وهي ليست هنا، يحتاجها وهي الغائبة رغم القرب، أصبحا بعيدين، كأنهما غريبين، والأمر الأكثر سوءا هو أنهما بدآ يعتادان على ذلك، إذا كانت الحياة معها ستستمر هكذا، فلماذا ترك عائلته ووطنه، أمن أجل لا شيء؟

****

أوقف سيارته، وهو يرى زوجته تتحدث مع الرجل الواقف قبالتها، بعصبية بادية على وجهها، ليترجل منها ويسرع إليها:

ـ ماذا يحدث هنا، من أنت؟

فيصدمه الرجل بإجابة لم يتوقعها:

ـ خطيبها

وتصرخ هي نافية:

ـ كان

امتقع لونه، وهو يسمع الآخر يضيف:

ـ كنت سأصبح زوجها، لولا أن العروس هربت، أسبوعا قبل زفافنا

كزّ هو على أسنانه، يحاول كتم غيظه، ويداري صدمته قائلا:

ـ ولم تصبح، هي الآن زوجتي أنا، وأنا رجل لا يحب أن يتخطى أحد حدوده، وأنت الآن قد تعديتها

أمسكها من رسغها، يعيدها إلى الوراء، ليقف هو مواجها للآخر، وقد رسم تكشيرة مخيفة على وجهه.

تلاقت النظرات تتحدى بعضها، بينما تتمسك هي بيدها الأخرى بذراعه مرعوبة، تراجع الآخر خطوة إلى الوراء، وأدار وجهه منسحبا، فتحرك هو دون أن يترك يدها، يسحبها وراءه إلى السيارة

ـ إلى أين تأخذني؟

ـ أوصلك إلى البيت

ـ يمكنني الذهاب وحدي

فتح باب السيارة يزأر في وجهها:

ـ اركبي

آثرت السلامة، وهي ترى ملامح الغضب الذي يحاول كتمانه، ودخلت.

قاد هو السيارة في صمت، يحاول كتم غيظه، ولكن العرق النابض في وسط جبينه، كان يفضحه، وفجأة ضرب المقود بقبضة يده صارخا:

ـ متى ستتوقف أكاذيبك عن الظهور في وجهي؟

أجابته بصوت مرتجف:

ـ أنا لم أكذب

حدجها بنظرة غاضبة، وصوته يرتفع:

ـ لماذا هربت قبل زفافك به؟

ـ فأجابته مرتبكة:

ـ هذا ماضٍ لا أحب الحديث فيه، وليس من حقك الخوض فيه، أنا لا أسألك عن ماضيك.

انفجر هو قائلا:

ـ عندما يطفو هذا الماضي على سطح علاقتنا، فمن حقك أن تفهمي، ومن واجبي أن أجيب أسألتك

محاولة الهروب من هذه الورطة قالت:

ـ ليس مهما أن تفهم، الأمر لا يستحق

ردَّ هو بنبرة مستهزئة:

ـ لا يستحق، كيف أثق بك وأنا لا أعلم متى ستتوقف مفاجآتك عن الظهور في وجهي، كقنابل موقوتة، تنفجر في كل مرّة داخل قلبي؟ متى ستتوقفين عن الكذب عليّ؟ ماذا يوجد بعدُ في ماضيك؟

لكنها فاجأته قائلة ببرود مفتعل:

ـ ليس من شأنك، أنا لا أدين لك، إلا بأيامي منذ ارتبطت بك.

كان قد وصل أمام البيت، توقف بسرعة ليرتد رأسها إلى الوراء، مرتطما بظهر الكرسي، وتسمعه يقول بصوت غاضب، دون أن ينظر إليها:

ـ انزلي

ترددت قليلا، لكنها عادت تسرع بالنزول، وهي تراه يضرب المقود بقبضة يده، ويصرخ في وجهها:

ـ انزلي قبل أن أقوم بتصرف لن يرضيك

انطلق بعدها، وصوت مكابح السيارة يشق صمت المكان، وهو يكاد ينفجر غضبا، وأفكاره تقتله (كم عرفت هذه المرأة من رجل قبله؟ كيف سيعيش معها، وهو يكتشف في كل مرّة، حقيقة مُرة تخفيها عنه؟ وكم سيتحمل قلبه بعد؟)

في الأيام التي تلت، كان غاضبا لدرجة لم يستطع فيها أن يفتح

الموضوع معها من جديد، خشية أن يفقد أعصابه، ويرتكب ما قد يندم عليه لاحقا، كان ينتظر أن يهدأ غضبه، لكن الهدوء لا يعرف طريقه إلى قلبه، مشتت هو، يفكر في حياته معها، كيف ستستمر وهو لا يستطيع الثقة بها وبماضيها الذي يجهله؟ كيف سيتحمل وأكاذيبها تخنقه؟ حتى جاء ذلك اليوم عندما عاد إلى البيت قبل ميعاده بوقت قصير، يعاني من ألم شديد في رأسه، وبينما كانت هي منشغلة مع آدم كالعادة، راح يبحث عن قرص مسكن للألم، فتعثرت يده بعلبة بها أقراص صغيرة، وعندما قرأ اسم الدواء ومفعوله، عرف أنها كانت حبوب منع الحمل، فتحها غير مصدق شكوكه الناشئة، ليصدم بحبات ناقصة من العلبة حسب أيام الأسبوع، وكانت تناسب جيدا تاريخ اليوم، بقي يقلبها بين يديه، محاولا إيجاد تفسير آخر لوجود هذه العلبة هنا، رفع رأسه على دخول زوجته وصوتها الذي يسأل عن حاله الآن، لتصمت وهي ترى ما بين يديه.

ـ ما هذا؟

ترددت قليلا في الإجابة، ثم خرج صوتها مهزوزا كمن ارتكب ذنبا، ليؤكد شكوكه:

ـ حبوب منع الحمل

ـ ولماذا تتعاطين حبوب منع الحمل؟

تقدمت منه خطوتين، لكنها توقفت وهي ترى الغضب في عينيه، فحاولت تفسير الأمر بما يُسكت غضبه:

ـ حبيبي، أنت ترى حالنا، أنت مشغول بعملك طوال الليل، وأنا مشغولة بآدم، ظروفنا الآن لا تسمح بطفل آخر

جاءها صوته الغاضب، رغم محاولته السيطرة على نبرته، وقد ظهر العرق النابض وسط جبينه:

ـ ألم يكن يفترض أن تناقشي الأمر معي؟ أم أن قرارا كهذا لا يخصّني؟

ـ يخصّك أكيد، ولكنني لم أكن أريد أن أرهقك بهذا الأمر

فقد السيطرة على أعصابه ليصرخ بلهجته الجزائرية:

ـ أسكتي يرحم باباك (والدك) كلما نقول خلاص الحالة راهي ماشية لاباس، تجي نتي وتعميها، عييت ما نرقع، عييت ما نصبر ونتي والو (لا شيء) مَشي حاسة بيا كامل

كانت تنظر إليه، لا تفهم شيئا مما يقوله، عندما أدرك ذلك، تحول إلى الفرنسية بنبرة هادئة تنبع من انكسار روحه الآن:

ـ أتعلمين، أنت لم تؤمني يوما بهذه الزيجة، لذا حتى وأنا أحترق في شوارع باريس ليلا، وألتقيك صدفة كل عدة أيام، أو حتى أسابيع، لم يشكّل الأمر فارقا عندك، لم تحاولي أبدا تعديل حياتك بما يتناسب مع حياتي أنا، بل واصلت وكأن شيئا لم يتغيّر فيها، ضيف نزل عليك فليتدبر أمره كما شاء، أنت لم تري فيَّ إلا رجلا تسكتين به غريزتك عندما تلح عليك، وعندما تحتاجينه سيلبي النداء شاكرا أنك تذكرته

كانت هي مصدومة مما تسمع:

ـ كيف تجرؤ على قول هذا الكلام، نحن متزوجان ولسنا في علاقة عابرة

ارتفع صوته وهو يجيبها:

ـ هذا ما أقصده، أنت لم تشعريني أبدا أنني زوجك، أخبريني متى عدت ووجدتك مستيقظة بانتظاري؟ لم تكلفي نفسك حتى تقديم وقت نومك ساعة، لتستيقظي ساعة قبل موعدك المعتاد، وقبل

وصولي، أية عادة غيّرتها في اهتمامك بابنك؟ حتى تفسحي لي المجال لأكون من بين اهتماماتك؟ عن ماذا استغنيت من أجلي؟ أنا الذي استغنى عن عائلته ووضعه المادي ومستقبله من أجلك، بماذا ضحيت أنت لمحاولة إنجاح هذه الزيجة؟ أم أنك ضمنت أنني مطرود من عائلتي، لم يعد لي حق قرار تركك والعودة إلى حياتي السابقة؟ فاستبديت في إهمالي، وأيقنت بعدم حاجتك لبذل أي جهد لإبقائي، لأنه لا خوف من ذهابي وترك كل شيء ورائي.

صرخت به مستنكرة ما تسمعه:

ـ أنت ظالم، طفلي يحتاجني، وأنا لن أهمله لأي سبب كان ولا من أجل أي رجل، أنت من وضع كبرياءك اللعينة بيننا، ورحت تعمل ليلا رغم عدم حاجتنا لنقودك تلك، أنت من جعلتنا غريبين لا يلتقيان إلا صدفة، فلا تلمني على حماقاتك

انطلقت ضحكته الساخرة، وهو يتذكّر موقفا سابقا مشابها لهذا:

ـ أنت محقة منذ البداية كانت حماقاتي من ورطتنا في هذه الزيجة، أنا الأحمق الذي حاصرك بحبه، أنا الأحمق الذي تزوجك رغما عنك، أنا الأحمق الذي رفض أن يعيش عالة عليك، وأنا

الأحمق الذي كان يظنّ أنه ليس أي رجل في حياتك، بل ذاك الرجل الذي أعطاك ما انتظرته طيلة حياتك، أنا الأحمق الذي ضحى بكل شيء من أجلك فبما ضحيت أنت من أجله؟

تلّبسها الغضب، وهي تؤكد لنفسها أنها يجب أن توقفه الآن، وإلا سيبقى يعيِّرها بتضحياته طوال حياتهما معا، لطالما اقتنعت في حياتها أن الهجوم يجعلك تكسب المعركة، لكنها لم تحسب أنها هنا بالذات ستخسرها، فوجدت نفسها تهدر بغضب:

ـ ضحيت بقبولك وأنت معدم، وآويتك في بيتي ألا يكفي هذا؟

بمجرد خروج الكلمات من فمها، أدركت فداحتها، وتأكدت من ذلك وهي ترى تلك الثورة التي كان فيها تهدأ فجأة، بينما يفضح ذلك العرق النافر في جبهته حالته، عندما سمعته يقول بصوت هادئ لكنه حاد كالسيف:

ـ وسأكون أنا الأحمق الذي سيتخلى عنك، لأنه ناكرٌ للجميل، وغيرُ مقدرٍ لحياتك الصعبة، لن يكون هناك أي سبب لتحاولي تغيير أي شيء من أجله، فأنا أنسحب منك ومن كل حياتك.

صمت هنيهة يغالب إحساسه الآن بالخيبة وبإهدار كرامته، بالغضب وبالحزن، يكابر حتى يكمل ما ينتويه ثم عاد ليقول:

ـ أنت طالق.

نزلت عليها الكلمة كصاعقة من السماء، ما الذي أوصل الأمور بينهما إلى هنا؟ كل شيء كان يسير بشكل عادي، روتيني نعم، لكنه لا ينبئ بأي انفجار، فكيف وصل الأمر إلى الطلاق؟

خرج هو من البيت تاركا كل شيء وراءه، وإحساس بالقهر يقتله، لم يكن يوما هذا بيته، لقد حاول بكل ما أوتي من قوة، يشهد الله أنه حاول، لكن الأمور كانت تنساب من بين أصابعه، لم تكن هذه حياته، ولم تكن تلك المرأة زوجته التي ترك العالم من أجلها، لم يكن شيء هنا ينتسب إليه، كان ضيفا ثقيلا أطال البقاء، وحان وقت الانصراف والعودة إلى اللا مكان، لا هذا البيت بيته ولا بيت والديه سيستقبله.

أما هي فأحست بقدميها تخونانها، كأنهما أصبحتا هلاما لا يحملانها، انهارت على السرير تحاول استيعاب ما حدث لتوه، هل طلقها فعلا؟ ترك البيت وانسحب من حياتها، بوصولها إلى هذه الفكرة، أحست بذلك الألم الرهيب الذي يعتصر قلبها، مع

انقطاع أنفاسها التي تحاول استعادتها بصعوبة، بينما جرت دموعها على وجنيتها غزيرة، أخفت وجهها بكفيها محاولة كتم شهقاتها، لكن الألم كان أكبر من قدرتها على احتماله، كانت تختنق، وكأنها تلفظ أنفاسها الأخيرة، لماذا لم يكتب الله لها إلا التعاسة في الحب؟ ها هي امرأة مطلقة لثالث مرّة، ولكن أصعب ما في الأمر أنها هي من أرادت الطلاق في المرتين السابقتين، بينما هذه المرّة لم تشعر به حتى متسللا إلى حياتها، فكيف حدث هذا؟ كيف فعلها زياد وهي مازالت تعشقه وتتعلم أبجديات الثقة به؟ كيف فعلها وهي لم تتخيل حتى حياتها بدونه؟ كيف استطاع أن يذبحها بهذه الكلمة التي كانت في ما مضى نجاتها؟ بينما بين يديه هو ومن شفتيه، تحولت إلى سكين حاد يقطع أوردة عشقها، فيدمي حبها له، ويجهز على ثقتها به.

****

كان هو بعد خروجه من عندها، يجلس مهموما في مقهى لصاحبه الجزائري الذي اعتاد وضع أغنيات جزائرية طيلة الوقت، وفي تلك اللحظة جاءته تلك الكلمات لتزيد ذر الملح على جراحه، وكأنها تغنيه، وتغني غربته التي ارتضاها لنفسه، لقد باع أهله من أجلها، وها هي تبيعه وتطرده من حياتها.

حرمت بك نعاسي يا أميرة لريام

وبعتُ بك ناسي وصرتُ لك غُلام

وسال دمع كاسي عشت بلا طعام

يا ربي توب عليا وابعد عني الغيار

يا جملة الحبايب راني مازلت غريب

وصار قلبي ذايب من شدة اللهيب

وقف زياد مغادرا وقد أتعبه التفكير، وعلى بعد عدة أمتار وقبل أن يصل إلى سيارته التي يعمل عليها، توقف فجأة أمام المتشرد، الذي التف الناس حوله، كان هذا الأخير يعزف على آلة موسيقية غريبة، لا تشبه العود ولا هي قيتارة، لكنه عرف انها آلة

(المُندول) عندما اقترب أكثر، يبدو على الرجل أنه تجاوز العقد الرابع من عمره، شعره مشعث بينما مقدمة رأسه صلعاء، لكن عزفه كان رائعا، خرج منه صوت عذب يرافق الموسيقى الحزينة وهو يغني:

يما يما (أمي ،أمي) حوجي فالغربة

يما يما وليدك جندي وما تخافيش

كانت يما نباتو بالشمعة

واليوم نباتو بالدمعة

كانت يما نبات زاهي وفرحان

واليوم تغلقو البيبان

يما يما حوجي فالغربة

كان الرجل يفقد تواصل أفكاره خلال الغناء، ليهز رأسه فجأة وهو يصرخ (آه آه) ثم يعود لغنائه، تساءل زياد في أسى، من أفقد هذا الرجل المبدع عقله؟ أتراه اليتم، أم الغربة، تقدّم من الوعاء

الذي يضعه المتشرد أمامه، وضع قطعا نقدية وانصرف والحنين يمزق أحشاءه.

تذكّر في هذه اللحظة والدته وحضنها الدافئ، خوفها الدائم عليه، كم مرَّ من الوقت منذ غادر بيت والديه مطرودا؟ كم مرّ عليه من الشوق، منذ انسحب من حضن أمه لحضن امرأة، تركته للضياع ولم تقدر أنه يموت من البعد، من الشوق، وأن الغربة تقتله، أنه كطفل فقد حضن أمه، بحاجة لحضن جديد يعوّضه، وأنه كطفل شريد عن وطنه يحتاجها لتكون وطنه.

لماذا كل شيء في هذا البلد له مذاق المرارة؟ لماذا يشعره هذا البلد بأنه يرفضه؟ أم تراه هو من يرفض هذه الأرض لأنه في قرارة نفسه يعرف أن أهلها اغتصبوا حقوق أجداده في الماضي، وإلى اليوم يرفضون الاعتراف بجرمهم، يرفضون الاعتذار وطلب الصفح، بغرور الظالم يتطلعون إليه وإلى أبناء وطنه، ويزعمون كذبا أن استعمارهم لوطنه كان فيه فائدة بلده، بينما يشهد التاريخ أن استدمارهم قتل الأرض وأصحابها، وعطل عنهم الحضارة لأكثر من قرن من الزمن، أهي روحه المناضلة من يستعصي عليها إيجاد الراحة على هذه الأرض؟ ولماذا يصرّ كل شيء هنا على تذكيره، أنه اختار اليتم في حياة أمه؟ كان هو

الصبي الذي كبر فجأة ليجد نفسه يتيما، ألقي به في حياة البالغين، ليكتشف أن الحياة كانت أصعب بكثير مما كان يتصور، لماذا تتمثل له صورة والدته على كل الوجوه الغريبة؟ فيكاد يحتضن الجميع ليصحو على وجوه غريبة تزيد لهيب الشوق لأمه، أخذ نفسا عميقا وصورة والدته ترتسم أمام عينيه، كم اشتاقها، ترى كيف حالها؟ كيف حال الشوق داخل قلب الأم فيها؟ يا الله كم اشتاق لضمّة حضنها، كم يحتاج أن يرتمي على ركبتيها، ويشكوها همه، يشكوها ما فعله به زمنه، كم يحتاج لاستنشاق رائحة أمومتها التي لا تضاهيها عطور العالم، لمَ لم يتوصل العالم لطريقة تخزين رائحة الأم في قارورة عطر، يستعين به الغرباء على قهر يتمهم بعيدا عن أمهاتم؟ لمَ حكمت عليه أقداره باليتم في حياة والدته؟ ما أقساها من أقدار تلك التي اختارته غريبا، وما أظلمها من أقدار تلك التي ألقت في قلبه حب امرأة، لم تعرف كيف تحتويه.

****

الفصل الثاني عشر:

(قلبٌ يحتضر)

نسِيته كأنه لم يكن، واصلت حياتها،

كأنها لم تتعثر بقلبه ذات يوم،

رفست ذاك القلب المجروح بعيدا، وواصلت مسيرها،

غير عابئة بالقلب الذي يحتضر بعيدا عنها

في الفتّرة التي تلت انفصاله عنها، استمر في عمله الليلي كسائق سيارة أجرة، بحث عن غرفة للإيجار، حتّى عثر على واحدة استأجرها رفقة عربي آخر في نفس الشقة، كان يلتقيه صدفة هو الآخر، لأن رفيقه في السكن كان يعمل بدوام نهاري عكسه هو، كان شابا يحب العزلة، يغلق عليه باب غرفته، وليس بينهما إلا تحيّة وسلام، عندما يلتقيان وجها لوجه، وكان الأمر هكذا يناسبه جدا، لأنه لم يكن قادرا لا على الخوض في أحاديث لا تثير اهتمامه، ولا على مسامرة أي كان، ولا يملك حتّى القدرة على التعرف على أناس جدد في حياته، وإحساس بالفشل والضياع يملأه.

تلقى اتصالا من صديقه حسين -الذي جاء في زيارة عمل إلى فرنسا- طالبا مقابلته، فاتفق معه على اللقاء في مقهى (الغريب) الذي تعوّد الجلوس فيه، كان مستغرقا في تفاصيل أغنية جزائرية أخرى، تعيده إلى حنين الوطن، وتزيد إحساس الغربة بداخله، عندما قطع تأثره وصول صديقه (حُسين) والذي سلّم عليه محتضنا إياه بمشاعر صادقة، ثم جلس على المقعد المجاور له على نفس الطاولة، حسين الذي وصل البارحة إلى فرنسا، في بعثة دبلوماسية جزائرية، صديقه الذي كان زميل دراسته، كانوا

ثلاثة أصدقاء لا يفترقون عن بعضهم (زياد، حسين، ومراد) اتجه هو وحسين لدراسة العلوم السياسية، واختار مراد العلوم القانونية، ودامت الصداقة لسنوات طويلة، هو وحسين، طريقهما كان واحدا وحلمهما واحدا في الالتحاق بالسلك الدبلوماسي، فعلها صديقه، رغم أن المنصب صغير ولكنه بداية الطريق، أما هو فها هو يجلس على إحدى مقاهي باريس العربية، يغالب إحساس الغربة بعد أن تخلى عن كل شيء، وتخلى عنه كل شيء.

بادره صديقه -الذي عرف من اتصالاته الهاتفية معه أنه انفصل عن زوجته- بالسؤال:

ـ لماذا تصر على الاستمرار في تعذيب نفسك هكذا؟ عد إلى الوطن واطلب الغفران من والدك، عد إلى حياتك.

فيجيبه بنبرة انكسار:

ـ أعود لأريه انكساري بعد أن ألقى بي خارج بيته دون اكتراث.

ـ إنه والدك يا زياد، ربما كان يريد أن يلقنك درسا فقط، هكذا هم الكبار يظنّون أنهم دائما على حق، وأن لهم سلطة القرار في تسيير حياتنا.

فيرد بنبرة متألمة:

ـ وتريدني أن أعود لأريه أنه كان محقا.

ـ سامحني يا صديقي، لكن بالنظر إلى ما وصلت إليه الأمور، ربما كان والدك محقا في رفضه زواجك منها.

تنهّد زياد بحرارة وحرقة وهو يجيب:

ـ لو كان لي مقدار مَعَزّة في قلبه لما طردني من بيته، لكان صبر عليّ وتركني أجرب، هذه حياتي أنا وليست حياته، هو أغلق كل الأبواب في وجهي وتركني أتخبط في الظلمة وحدي، ألا يجدر بالأهل أن يرافقوا خطواتنا ممسكين بأيدينا؟ ألم يكن من واجبه كأب أن يقف سندا لي حين عثراتي، فأتكئ عليه واثقا، وأعود إليه شاكرا؟

منذ طلاقه لها، وهو يحاول إقناع نفسه أنه لم يكن له من حل آخر، حياته معها لم تكن لتصل لشيء، لكنه ورغم كل ما حدث لا يستطيع أن يمنع قناعته، بأن صوفي هي أجمل ما حدث في حياته على الإطلاق، وهي أوجع ما عايشه طوال عمره، إحساسه بها هو أصدق إحساس اختبره، يؤلمه تفكيره الدائم أنها ربما لم تحبه

بالقدر الكافي، لكنه لا يستطيع إلا أن يلوم والده الذي حاول قتل هذا الإحساس الجديد بداخله، لم يتركه ليعيش تجربته معها، فأذله أمامها وجعله يبدو في أسوأ حالاته كرجل، ومع تعقيد حياتها لم يستطع أحدهما استيعاب الآخر، والده يرفض التسليم بأنه أصبح رجلا ويمكنه أخذ خياراته كراشد، لقد كسره أمام المرأة التي أحب، وكسره أمام نفسه، وهذا ما لن يسامحه عليه أبدا.

رأى حسين حيرة صديقه وتوهانه، فقطع شروده قائلا:

ـ عد إليها ما دمت غير قادر على فراقها.

أظلمت عينيّ زياد وهو يجيب بكبرياء جريحة:

ـ أعود وأنا لست قادرا على أن أكون رجلا في عينيّ، قبل حتّى أن أكون رجلا في عينيها، أنا أموت بدونها، لكنني سأموت معها وأنا مجرد خيال رجل.

كان زياد يحاول إخفاء وجعه حتى أمام صديقه، فالرجل لا يبكي، والعربي لا يضعف من حب امرأة، ولكنه بسببها بكى قلبه، قبل أن تبكي عيناه، ومعها ضعف حتى نسي أنه عربي، هو فقط عاشق يكابد وجع قلبه وألم روحه، هو رجل تقتله رجولته في

قربه منها، ولكنه في ذات الوقت يمقت هذه الرجولة التي تبعده عنها، وفوق كل ذلك هو لا يستطيع أن يغفر لها ما فعلته به ولا ما تفوهت به في آخر لقاء لهما، ولا يستطيع رغم صداقته بحسين أن يخبره بتفاصيل ما حدث.

أراد حسين تغيّير دفة الحوار فسأل صديقه:

ـ هل سمعت الأخبار الجديدة؟

ـ بخصوص ماذا؟

ـ بخصوص الجماجم ورفات الشهداء

فيسأله متحفزا:

ـ هل من جديد؟

ـ نعم، مفاوضاتنا الحثيثة مع فرنسا، بدأت تأتي بثمارها، فلقد تمّ عقد اجتماع تنسيقي تضمّن إدراج تعديلات على الوثيقة الواردة من الطرف الفرنسي وتعديل تشكيلة الفوج، وإضافة تشكيل اللّجنة الجزائرية، ثم ضبطت وضعية اشغالها، كما تم إعداد التقرير النهائي والاتفاق على تحديد الرفات والجماجم القابلة للاسترجاع.

استبشر زياد وهو يسأله:

ـ هذا يعني أنهم رضخوا أخيرا لمطالبنا باسترجاع رفات شهدائنا؟

فيرد حسين مبتسما:

ـ نعم، رغم أنهم سيماطلون كثيرا كعادتهم، ولكن على الأقل هناك اعتراف منهم أخيرا، والأمر يسير بشكل رسمي الآن.

ـ هذا خبر جيد على الأقل هي بداية الرضوخ والاعتراف

رد حسين مبتسما:

ـ مراد انضم إلى طاقم المحامين المنتمين للجمعية، بعد نضاله كمنتسب فقط، ربما سيكون في وفد من الوفود المسافرة لفرنسا للمفاوضات مستقبلا

سكت زياد وقد انقبض قلبه وخنقته الغصّة، رغم استبشاره بالخبر الذي انتظره طويلا، ها هي ثمار نضاله على وشك النضوج، وها هو بعيدٌ عنها، ولن يكون حاضرا مع رفاقه في موعد قطافها، ورغم ذلك عاد للاستبشار بالخبر، حتى لو لم يكن هناك، المهم أن

الشهداء سيعودن إلى أرضهم التي سقوها بدمائهم، سترتاح أرواحهم أخيرا، وهذا كل ما يهم، ابتسم مجيبا:

ـ دعه يتصل بي قبل قدومه، سيكون رائعا أن ألتقي به هنا

ـ هو أيضا يريد ذلك

صمت قليلا ثم أردف:

ـ من حسن حظنا أننا حافظنا على صداقتنا منذ الصغر، حتى لو غبنا، أو قلّ الاتصال، إلا أن كل واحد فينا يدرك جيدا أن له صديق مهما ابتعد سيركض إليه إن احتاجه

فيبتسم زياد وصور من طفولته مع صديقيه ترتسم في مخيلته.

****

في ساعات الصباح الأولى، في السيارة عائدا إلى بيته، تعود إليه الذكريات موجعة، قاتلة، يتلبّسه الشوق إليها كما يتلبّس السحر المسحور، فيُفقده عقله وتعقّله، يشتاقها كطفل فقد والدته، يحتاجها كمريض رّبو يحتاج إلى جرعات أكسجين، يحنّ إليها، كغريب

طرد ليلا من أرضه ولم يستطع توديع أهله، ولا احتضانهم لآخرة مرّة.

لكن شيئا أكبر منه يمسكه عنها، لا يعلم إن كانت كبرياؤه اللعينة، أم ظروفه الصعبة، أو ربما إدراكه أنه إن عاد سيخسرها من جديد، لأنه لن يتحمل أن يكون الأخير في قائمة أولوياتها، لن يقبل أن يعيش معها، يلتقيان صدفة، حتى يستيقظان يوما ليجدا الحب قد مات بداخلهما، ربما هذا أكثر ما يمنعه، خوفه من فقدان هذا الشعور الرائع، الذي لم يعرفه إلا معها، ولكن أليس هذا ربما هو الحل الأمثل حتى ينساها؟ فلربما مات حبها بداخله، واستطاع إكمال حياته على ذكرى أنه يوما عرف الحب وصادفه، استوطنه الشوق وسكنه، لكن هيهات لهذا القلب أن يرضى بالنسيان، حتى لو عاش يحتضر حنينه إليها، وماذا عن كل ما فعلته، وما أخفته؟ ماذا عن ماضيها الذي لا يعلم عنه شيئا؟ والذي ينفجر كل يوم شيء منه في وجهه، كألغام في طريقه إليها، أيستطيع أن يتناسى ما تفوهت به وهي تذكّره بأنه أصبح مجرد شريد تأويه هي في بيتها؟ أيستطيع أن يتغاضى عن اتخاذها قرارات حياتهما دون العودة إليه؟ ذلك ما هو غير قادر عليه، فكرامته فوق حبه، وكبرياؤه تعلو على عشقه لها.

ماذا يفعل؟ ما الحل والشوق موجع والحنين مخادع والغربة قاتلة؟ ماذا يفعل والقدر يعانده وقلبه يخونه، وحبه يقهره؟

غيَّر طريقه وقد اشتدّ الشوق به، متجها إلى مقهى (الغريب) عندما قدّم له الساعي، فنجان قهوته الصباحية، كان المسجل يبثُّ أغنية من نوع الراي للشاب عقيل الجزائري (مازال مازال) وكأن الدنيا اتفقت على إيقاظ وجعه كل صباح، لكنه يعلم أن إصراره هو على القدوم إلى هذا المقهى بالذات هو ما يوقظ وجعه، المقهى كان لرجل جزائري تحدث إليه عدّة مرات، وعرف أنه يعاني من حنين الوطن، وغربة النفس، فيواظب على تشغيل الأغاني الجزائرية ولا شيء غيرها.

سالولي عليها و جيبولي خبارها
الا راهي مغبونة ولا مهنية
ولا مازالها تجبد عليا
ولا خلاص راهي ناسية
ومازال مازال عشقك فالبال
ننساك محال يالي نسيتينا

بادره العم (بوزيد) بالتحيّة ليجلس رفقته، هذا الأخير الذي وجد فيه رائحة الوطن، الذي هجره منذ أكثر من خمسين سنة، عندما كان شابا على مشارف العشرين، عشق ابنة خالته التي رفض أهلها تزويجها له، لأنه لم يكن يملك الشيء الكثير ليفتح به بيتا، يتذكّر زياد عندما قصّ عليه يوما قصّته:

(كان اسمها جميلة، وكانت أجمل ما رأت عيناي، وظلت كذلك، حتى بعدما جئت إلى هنا وعرفت الكثير من النساء بعدها، كانت رائحة البراءة والزمن الجميل، كانت ولازالت صورة عن أمي وعن وطني، قطعة من وجعي، وملاذا تهرب إليه روحي التي تلوثت بعدها، لكنهم هكذا آباؤنا منذ الأزل، لا يعترفون بالحب ولا سطوته، لم يجربوا قهر العشاق، لم يعرفوا الروح حين تشتاق، ولا سهر القلب الذي يهيم كل ليلة في سحر الذكريات، كانت جميلة حلمي الذي سُرق مني، فتركت الوطن ولم أدخله منذ أكثر من خمسين سنة.

تحشرج صوت العم (بوزيد) يومها وهو يواصل حديثه متأثرا:

ـ توفيت أمي، وحتى يعاقبني والدي الغاضب من هجرتي، منع الجميع من إخباري، في وقتها لم تكن سُبل التواصل سهلة مثل

اليوم، لم يكن هناك سوى اتصالات هاتفية متباعدة، أو بعض الرسائل قد تتوه في الطريق، كنا ننتظر قدوم أي شخص من (البلاد) لنتحرى منه أية أخبار. في يوم ما، جاء شخص كان جارا لي في الجزائر، وعندما سألته عن أمي، أخبرني أنها توفيت، نقل إليّ الخبر وكأنه يخبرني أن كلبنا قد مات، لم يكن يدرك أنه بهذا الخبر كان يقطع آخر أوردتي المتصلة بالوطن، يومها غرقت في السكر حتى أنسى أنني أصبحت يتيم الأم والوطن، وحتى أنسى أن لي والدا قلبه أقسى من الحجر، وأن زوج خالتي باع ابنته لمن يدفع أكثر، يومها كنت أريد أن أنسى أنني رجل، أنني لم أستطع حماية حبيبتي ولا دفن والدتي)

لم يشعر زياد إلا ويده تربت على كتف الرجل، الذي كان وجهه ساحة قتال يتصارع فيها الألم والكبرياء، الرجولة التي تمنع البكاء والإنسانية التي لا تفرق في الوجع بين الرجال والنساء، يومها قصّ زياد عليه حكايته مع صوفيا، لكنه كان متفائلا لأنه استطاع أن يتحدى ظروفهما، ونظرة المجتمع، ويهرب بها بعيدا عن عائلته.

اليوم وهو يتذكّر كلمات عمي بوزيد، يدرك أن الزمن لم يتغيّر ليتنهد في حسرة قائلا:

ـ أتعرف يا عمي بوزيد، يبدو أن الزمن لم يتغير كثيرا، مازالت النساء تباع لمن يدفع أكثر، ومازال الأهل يتحكمون في أقدارنا ويقصوننا فقط لأننا عشقنا.

اغتنم العم بوزيد الفرصة، وقد لاحظ تغيّر حاله منذ مدّة، لكنه كان ينتظر أن يبدي زياد رغبته في الحديث عندما يكون مستعدا، وسأله:

ـ كيف حالكما؟

أجاب زياد بصوت يكسوه الأسى:

ـ لقد طلّقتها وانتهى كل شيء، أنت تعرف أنني تزوجتها رغما عن الجميع، لكن المشكلة أن كرامتي كرجل تقف بيننا، وأنا عاجز عن التكفل بها وبابنها المريض.

ـ هل انتهى فعلا أم أنك تكذب على نفسك، ينتهي الأمر عندما لا تعود تعني لك شيئا، ولكن عندما تأتي كل يوم إلى مقهى بائس، يعاني صاحبه من الحنين، لتتذكّرها كل يوم كأنك نسيتها، بينما أنت لم تقترب حتى من النسيان خطوة، فالأمر أكبر بكثير من كلمة انتهى.

سكت زياد غير قادر على نفي كلام الرجل، الذي كان يواجهه بحقيقة وضعه، ليسمعه يردف قائلا:

ـ لا ترتكب هذه الحماقة يا ولدي، لقد خسرتَ الكثير من أجلها فلا تخسرها هي، يوما ما بعد مضيّ العمر، ستدرك أنك لم تحب غيرها، مهما عرفت بعدها من النساء، وستعرف أنك ما عرفت يوما الراحة التي كنت يمكن أن تنالها فقط لو ألقيت آخر الليل رأسك في حضنها ونمت، الرجل في عزّ شبابه تأخذه العزة بالنفس، فيرفض أن يتغاضى عن أمور صغيرة، والمرأة قد ترفض ضعفها، وتنتظر أن يثبت الرجل تمسكه بها، الزواج مشوار طويل بدايته أصعب ما فيه، لأن كل واحد ينتظر من الآخر أن يعطيه، قبل أن يقدم هو، كأن الحب محتاج في كل وقت لإثباتات ملموسة، بينما الحب يا بنيّ قد يكون في نظرة اطمئنان، ولحظة سكينة تشعرها وأنت مع من تحب، قد تزيل عنك تعب الحياة، ستكتشف يوما أنك أضعت ذلك بحماقتك، لأنك رفضت أن ترى ما عندك، وستتمنى لو تعود بك الأيام، فتبيع كل عمرك لتستعيد تلك اللحظة فقط.

كان الرجل يتكلّم وكأنه يتحدث عن عمره الذي مرّ سدى، على أمل ارتماءة واحدة في حضن المرأة التي أحبها، ولم يستطع يوما

نسيانها، على وجع اللحظة التي لم ينلها، ولن ينالها، وكان زياد يسمع وكأنه يرى عمره الذي سيمرّ حسرة على امرأة عشقها، وتركها في لحظة ضعف أو كبرياء، وربما كما يقول الرجل في لحظة "حماقة".

****

كانت (ميلي) بعد عودتها من السفر، تجلس مع صوفيا تحاول كتم غضبها وحنقها على صديقتها:

ـ لا أفهم حتى الآن لمَ تصرفتِ معه هكذا؟ أنت تعلمين حتما أنك أخطأت بإخفاء الأمر عنه، هذا قرار يُؤخذ مشاركة بين الزوجين، وهو قد سبق وغفر لك حرمانك له من حقه في الاختيار، عندما أخفيت عنه موضوع زواجك وابنك، وها أنت تعيدينها من جديد

عندما لم تجد منها ردا أردفت:

ـ والأسوأ من ذلك أنك رحت تكابرين وكأنك لست مخطئة، هل هناك امرأة عاقلة تقول لزوجها آويتك في بيتي وأنت...

قاطعها أخيرا صوت صوفيا، المنهك من التعب والبكاء المستمر منذ رحيله:

ـ كفى يا ميلي رجاءً، أنا أعرف ما قُلته، ولست بحاجة لأن تذكّريني به، الأمر انتهى لقد طلّقني وخرج من حياتي.

شعرت ميلي بانكسار صديقتها، فخففت من حدّة نبرتها، محاولة فهم الذي دفع صوفي للتصرف بهذا الغباء:

ـ الرجل يحبك فعلا، وقد أثبت ذلك بألف طريقة، فلماذا تعامليه بهذه القسوة؟ ألم نتفق أنك ستنسين الماضي وتثقي به؟

ـ الأمر أكبر مني يا ميلي، كلما حاولت استيقظت مخاوفي، تذكّرني أني إذا وضعت آمالا كبيرة في علاقتنا، ستكون خيبتي كبيرة وأوجاعي أكبر، صوت بداخلي أسمعه دائما يقول (كوني حذرة، لا تحبيه كثيرا، لا تثقي أكثر، سيخون كما خان من قبله، سيوجعك كما أوجعك غيره)

تنهدت ميلي بحسرة على وضع صديقتها وسألتها في شفقة:

ـ وإلى متى يا صوفي، متى ستشفين من ماضيك، وتتعلمي المضيّ قدما دون الالتفات المتواصل إلى الوراء، ما مرَّ قد مضى، أنت اليوم امرأة راشدة تستطيع اتخاذ قراراتها بعقلانية،

بدليل أنك قاومت كل الرجال قبله، أنت لم تفتحي له الباب إلا لأنك تعرفين أنه لا يشبه من سبقوه.

فترد هي بصوت موجوع:

ـ الأمر لا يتعلق بالرشد، إنما بالثقة، عندما نحب يا ميلي نثق ونغلق أبواب الشك، فلا نرى الخطر القادم وحتى لو رأيناه، لا نصدقه حتى تأتي الضربة القاضية التي ستصيب روحك بعطب دائم يستحيل علاجه أو إصلاحه، بعدها ستعيشين حياتك كلها تعانين من هذا العطب، كشخص بُترت ساقه، سيعيش دائما أعرجا، هكذا هي الروح إذا تعرضت لحادث ثقة، ستعيش عرجاء أو معاقة، فما بالك إذا تكرّرت الإعاقات، ومعها العاهات المستديمة التي وُسِمت بها الروح إلى الأبد.

ـ لكنك أحببته فعلا، أخبريه يا صوفي، حرّري روحك وأخبريه بهذا السرّ الذي يمنعك عنه، أخبريه بهذا السرّ الذي يمنعك من غلق أبواب الشك، دعيه يفهم تصرفاتك، ويستوعب دوافعها فيجد لك العذر، ويساعدك على الشفاء من ماضيك.

فتغمض صوفيا عينيها متألمة وهي تصرح صادقة:

ـ لا أستطيع، إنها تعاندني يا ميلي، أبواب الشك عندي صدئة ترفض أن تُغلق، والصدأ يتغلغل في روحي فيسمّمها، الخوف يقتلني يا ميلي، الخوف يقتلني، ويمنعني من الاستسلام.

....

مرّت أيامه التالية بين عمله الليلي في سيارة الأجرة، ووقت صباحي مقتطع من الزمن يقضيه في مقهى الغريب، يشحن فيه وجعه وشوقه وحنينه.

دخل المقهى صباحا ينتظر وصول صديقه (حُسين) الذي قدم منذ ثلاثة أيام من الجزائر مع البعثة الدبلوماسية، ولم يتفرغ إلا اليوم لمقابلته، كانت الأغنية المنطلقة من المسجل اليوم أغنية من نوع الغناء الشعبي، للمغني الجزائري المرحوم كمال مسعودي والتي كانت كلماتها تصف حاله:

خليت بلادي ودخلت بلاد الناس

تكواو كبادي، الليل والنهار حواس

هايم ونادي صبري قطع الياس

قاطع انسجامه وتأثره صوت صديقه الذي وصل لتوّه:

ـ يا أخي عليك أن تتوقف عن تعذيب نفسك بالقدوم إلى هذا المقهى، والاستماع إلى هذه الأغاني التي تزيد فتق جراحك

تصافح الرجلان وتعانقا مسلمان على بعضهما، جلسا وزياد يجيب صديقه:

ـ هنا أشعر أنني مازلت جزائريا، ومازالت أنتمي إلى بلدي

ـ لكنك هكذا لن تأخذ وقتا طويلا لتصل إلى الجنون

ابتسم زياد ساخرا، وهو يتذكر المتشرد الذي التقاه صدفة، ذاك الذي كان يغني عن أمه:

ـ سيكون أفضل لي لأرتاح من التفكير

ثم أردف سائلا قبل أن يعلق صديقه على قوله:

ـ كيف حال أمي؟

أخرج حسين شيكا من جيبه وسلمه له قائلا:

ـ إنها بخير، وقد أرسلت لك هذا

نظر زياد إلى يد صديقه الممسكة بالورقة

ـ ما هذا؟

ـ شيك، لقد سلمتني المبلغ هناك في الجزائر وأنا حوّلته لحسابي هنا، حتى تتمكن من سحبه بسهولة

ليسأله بحدّة:

ـ ومن أين لأمي بهذه النقود؟

ـ وما أدراني أنا

ـ أعد المال لها وقل لها أن تعيده لصاحبه، أنا أعرف أنه مال والدي، حتى لو لم يكن يعلم به، قل لها أنني لا أحتاج لماله، أحتاج فقط لرضاها ودعواتها.

ـ هذا مبلغ يمكن أن يساعدك في شراء سيارة، على الأقل تعمل بها لصالحك، يمكن أن تعمل في النهار ولا تضطر للعمل الليلي

ـ قلت لك لن آخذ نقوده حتى لو مت جوعا

ـ العن الشيطان يا صديقي، يظلُّ هو والدك، والمرأة التي تركت أهلك من أجلها قد تركتك، أين تريد الوصول بتعنتك هذا.

امتقع وجه زياد الغاضب، وهو يرد على صديق عمره بأعصاب فالتة:

ـ أريد أن أثبت لنفسي أنني رجل رغما عنه، هل يلائمك هذا؟

ـ يا أخي، كُن رجلا وأنت في بيتك مع أهلك خير لك

فلتت من فم زياد ضحكة ساخرة وهو يرد موجوعا:

ـ عائلتي تخلت عني عندما كنت بأشد الحاجة إليها، والدي طردني من بيته وكأنه لم ينجب يوما ولدا، واليوم تريدني أن أعود كأن لا شيء حدث

تنهد حسين في حسرة لوضع صديقه:

ـ يظلّ والدك يا أخي

أجاب والغصّة تخنقه:

ـ وأنا كنت ما أزال ابنه عندما تخلى عني

ـ وإلى متى سيستمر غضبك هذا؟

زفر زياد يحاول طرد بعض الأسى الذي يمتلئ به صدره:

ـ حتى يأتيني الله بفرج من عنده.

****

غادر حسين فرنسا، عاد إلى عمله وبقي زياد هنا يجر أذيال خيبته ويتجرع مرارة واقعه، كان يجوب الشوارع مهموما، يمشي دون أية وجهة، يختنق داخله، لقد رآها منذ يومين، ذهب إلى بيتها وانتظرها حتى تخرج، فقط ليراها، كمجرم يسرق لحظة من الزمن، مازال ذلك العاشق الذي فقد عقله من أجلها، وحاصرها حتى قبلت به زوجا، مازال متيّما بها، رغم الوقت الذي مرّ على فراقهما، وهي كانت تحتضن طفلها وتضحك، نسيته كأنه لم يكن، واصلت حياتها، كأنها لم تتعثر بقلبه ذات يوم، رفست ذاك القلب المجروح بعيدا، وواصلت مسيرها، غير عابئة بالقلب الذي يحتضر بعيدا عنها.

(لقد أذلك حبها يا زياد، ها أنت مهزوز غير قادر على النسيان، أذلك عشقها يا زياد وأنت راضٍ بذلك، متى ستشفى؟ متى سترفع رأسك وتنسى؟)

فتح زجاج النافذة ورفع رأسه إلى السماء، يستنشق الهواء بقوة، كمن يختنق، كان قلبه يموت بدونها، لماذا هذا الوجع لا يغادره،

لماذا وكأن الله لم يخلق غيرها، ارتفع صوته بالمناجاة (يا الله أخرجها من قلبي، ردني إليّ، فإنني ما عدت أملكني منذ عرفتها، يا الله، يا الله، يا الله)

جاءه اتصال هاتفي يطلب سيارة أجرة، فحوّل اتجاهه إلى العنوان المقدم له، عند وصوله توقف واتصل بنفس الرقم:

ـ أنا أمام باب العمارة، أنتظر نزولك سيدتي

ـ لديّ حقيبة لا أستطيع حملها من فضلك، هل يمكنك أن تصعد لمساعدتي بها؟

كان زياد يرفض الصعود للمنازل، تفاديا لأية مشاكل أو محاولة اعتداء عليه

ـ آسف سيدتي، أنا سائق أجرة ولست "حمالا"

جاءه الصوت متوسّلا:

ـ أرجوك، ستجدها أمام باب البيت، لن تضطر للدخول حتّى، أنا لا أستطيع تحريكها، رجاءً

أبعد زياد الهاتف عن أذنه وهو يفكر في هذه المشكلة، أطلق زفيرا ثم قال:

- حسنا أنا قادم

ما إن مدّ يده يضغط على جرس الباب، حتى وجده يفتح تلقائيا، وعلى بعد خطوات كانت هناك حقيبة سوداء كبيرة تنتظر من يحملها، تردّد بعض الشيء ثم دخل الشقّة، انحنى مادًا يده ليحمل الحقيبة، فأحس بظل يغطيه، وسمع صوت الباب يغلق، رفع رأسه متوجّسا وقوعه في فخ ما، فمثل هذه الحوادث تحدث كثيرا هنا، استدراج، غفلة، ثم اعتداء، قد يصل أحيانا للقتل، أخبار كثيرة كانت تتناقلها الجرائد والقنوات عن قتلى سرقت منهم وثائقهم، نقودهم، وحتى أعضاؤهم الداخلية، كالكلى، أو الكبد، أو القلب، عصابات منظمة لا تصل إليها الشرطة رغم تحقيقها.

تأهبت حواسه لدفع الاعتداء المنتظر، وقف مستقيما بقامته يقابل قدره، وقلبه يقفز بداخله، لعلّها نهاية حياته قد حلّت، فليمت وهو ينظر في عينيّ قاتله، وليقاوم بشجاعة رجل، وليصلهم خبر موته وهو يقاتل مهاجمه.

الفصل الثالث عشر:

(رداء الخزي)

لم تكن تدرك أنه ينتمي لملّة أخرى،

كان رجلا عربيا، تقوده كبرياؤه،

جزائري عرف عنه التاريخ عناده،

مسلم هذّبه دينه

كانت صوفيا ترتدي معطفا جلديا طويلا أسودا، يغطي أغلب جسدها، شعرها ينساب على كتفيها، وعيناها تترصّدانه بنظرة فاتنة، ممزوجة بشيء آخر لم يتبيّنه في حينه، فوجئ بها وهو يسألها:

ـ ما الذي تفعلينه هنا؟

خرج صوتها مبحوحا، مرتجفا:

ـ أنتظرك

اتسعت عيناه دهشة، وهو يسألها في عدم فهم:

ـ أنت من طلبت سيارة أجرة؟

كمن استعاد وعيه راح يضيف:

ـ الصوت لم يكن صوتك، لكنتُ عرفته.

جاءه صوتها متوسّلا:

ـ أمازلت تتذكّر صوتي؟

خرجت من فمه ضحكة مستهزئة، ضحكة صغيرة مقتضبة:

ـ ربما أنت نسيتِ، لكنني لا أنسى بهذه السهولة

ابتسمت ابتسامة متألمة وهي تجيبه:

ـ من قال أنني نسيت؟

تعانقت النظرات للحظات، عادت الذكريات تتقد في الحشا، توقظ الحنين الذي ما خبا، للحظة واحدة كاد يمدّ يديه ليسحبها إلى حضنه، للحظة واحدة فقط، لكنه استعاد تعقله ومعه وجعه، مدّ كفه يمسح بها على وجهه، لعلّه يستعيد ثبات قلبه الذي يقفز داخل صدره، أخذ نفسا عميقا وهو يحاول تفسير الموقف هنا ثم قال:

ـ من المرأة التي اتصلت بي؟

ـ صديقتي ميلي

ـ هل كانت تعرف أنها تتصل بزوجك السابق، أم أنها كانت مصادفة؟

أغمضت عينيها على وقع جملة (زوجك السابق) يا إلهي متى أصبح السابق، هو مازال زوجها، هي مازالت في أيام عدتها، مازالت زوجته.

ـ بلى، أنا طلبت منها الاتصال بك

ـ لماذا؟

تردّدت هنيهة، لكنها حاولت التسلح بشجاعتها، التي كانت تشحذها منذ عدة أيام، عندما قررت الإقدام على هذه الخطوة، بتشجيع وتخطيط من ميلي:

ـ أردت أن أتحدث معك

لكن رده خذلها:

ـ ليس هناك ما نتحدث به، ما كان بيننا قد انتهى

(كان.. كانت تصرخ بداخلها، رغم صمتها وهي تنظر إليه، متى أصبحا ينتميان إلى الماضي، منذ أشهر قليلة فقط كانا يبدآن، متى وصلا إلى النهاية)

غارقة في ألمها تقول:

ـ أرجوك، أريد أن أتحدث إليك، على الأقل اعتبرها آخر مرّة كعربون صداقة، دعنا نفعلها دون ضغينة

أمسك قلبه الذي شارف على السقوط أمام قدميها، والعرق النابض وسط جبينه يفضحه، وهو يقول بحسرة مكتومة:

ـ ضغينة، لا أظنّ هذا القلب يجيد الضغينة، بل ليته يتعلمها فيرتاح ويريحني

أخذ نفسا قصيرا يحاول تهدئة نفسه ثم أردف:

ـ سأرحل، أظنّ ألا أحد هنا بحاجة لسيارة أجرة

استدار منصرفا، لكن صرختها أوقفته:

ـ أنا مازلت زوجتك، سألت الإمام، وقال أنك يمكنك أن تعيدني إليك، قبل نهاية أشهر العدة بكلمة منك فقط

صمتت قليلا، ثم أضافت بصوت كسرته الحسرة، يغالب إحساسا بالهوان، ويقاوم شوقا قاتلا يرغمها على الرجاء:

ـ أعدني إليك

استدار متأنيا، ليفاجأ بها قد فتحت معطفها، وهي ترتدي ملابس داخلية فاتنة، يبدو أنها اختيرت بعناية، كسلاح فتاك لأسره مرّة أخرى، اهتزّ جسده على تلك الفتنة الماثلة أمامه، وابتسمت هي

ابتسامة مرتعشة، تفتقر إلى الثقة التي يُفترض أن يمنحها لها هذا الجسد المرسوم ببراعة، وهذا الرجل المهزوز ببلاهة، لكنه استرجع رباطة جأشه سريعا، وقد ظهرت على شفتيه ابتسامة خائبة، وهو يمرر عينيه على جسدها صعودا إلى عينيها:

ـ كل مرّة تؤكدين لي، أن علاقتنا لم تكن تعني لك سوى هذا، وأنني تركت وطني وعائلتي ومستقبلي من أجل هذا.

قالها وهو يشير إلى جسدها بسبابته المتحركة إلى الأعلى والأسفل.

صمت قليلا، ثم أضاف كمن يريد أن يقضي على الذبيحة، التي ترفض أن تموت:

ـ ظنّنت الأمر كان أعمق من علاقة جسد، شكرا لأنك منّنت عليّ بحقيقة ما كنتُ أعنيه لك فعلا، شكرا على توضيحك لهذا القرف.

استدار خارجا، ولكن صوتها هذه المرّة لم يوقفه، سقطت على الأرض على ركبتيها، غير قادرة على إضافة كلمة، كانت تنتحب، بكل بساطة كانت تبكي خيبتها، وجعها، سذاجتها، وخسارتها، تبكي قسوته، وكرامتها المهدورة على يديّه، هي التي

احتاجت إلى استعارة قوة الأرض، لتقف أمامه هذه الوقفة الذليلة، ظنّت ذلها سيقنعه أنها مستعدة لكل شيء منه إلا الهجران، لكن ذلها لم يشفع لها عنده، بل ها هو يلقي عليها رداء الخزي، الذي ستلبسه لبقية أيام حياتها، ها هو ذلها بين يديه يزيد في الهوّة بينهما ويعطيه سببا جديدا لتركها، وها هي تنازع ألم كرامتها بجانب ألم قلبها، شعور بالموت البطيء يتسلّل إلى جسدها وهي تجلس على الأرض تضمّ ركبتيها، وتبكي بشهقات متواصلة، آمنت به، هذا ما فعلته، آمنت، هي التي توقفت عن الإيمان منذ زمن، وها هو يطردها من رحمته، قاسٍ هو وما أقسى قلبه، قاسٍ يرفض المغفرة، ولا يعطي فرصة للتوبة.

ركب هو السيارة وانطلق، وجسده كله يرتعد شوقا إليها، وغضبا منها، يضرب المقود بقبضتيّ يديه ويسب بصوت عالٍ لا يسمعه غيره والنوافذ مغلقة، بينما قلبه يتخبط حاسدا هذا الجسد الذي أرادته ولم ترده هو، منذ البداية استطاع جسده أن يسيطر عليها، وما استطاع قلبه أن يرغمها على حبه، لم يعد يفهم هذه المرأة الغريبة، ما الذي تفعله؟ أتريد أن تسيطر عليه وكفى؟ ما الذي تريد أن تثبته لنفسها؟ أنها لا تقاوم، ها هو قد كسرها اليوم، وكسر غرورها، إن كان طلّقها منذ أكثر من شهر، فاليوم هي من

خطت النهاية، سينساها حتى لو أجبر قلبه على التوقف عن الخفقان، سينساها لأنها ما قدّرت يوما هذا العشق الكبير، الذي يحمله لها في ثنايا قلبه، بينما لم ترَ فيه إلا رجلا تسيطر عليه، تتحكم كما تريد، تأخذ القرارات وحدها دون أن تستشيره، تمنعه حق الاختيار، تتجاهله عندما تريد، وتغريه متى أرادته، بينما كل ما كان ينشده هو حبها واهتمامها، ربما لأنها تربت في الغربة، لم تعرف معنىً آخر للعلاقة بين الرجل والمرأة، لم تعرف معنى أن يجتمع قدران ليصبحا روحا واحدة تعيش في جسدين، سيقتلعها من قلبه حتى لو اضطر أن يجتث قلبه من صدره.

****

استجمعت قِواها واتصلت بميلي، تطلب منها القدوم لإعادتها لمنزلها، لأنها لم تكن قادرة على العودة وحدها، عندما جاءت صديقتها أخبرتها بما حدث، لتتفاجأ الأخيرة بعدم نجاح خطتها وتتساءل عن النوع الذي ينتمي إليه ذلك الرجل.

كان البيت الذي استدعته إليه هو بيت صديقة ميلي، هذه الأخيرة التي لم تتوقف عن لومها على تصرفاتها التي ضيّعت منها زوجها، مذكّرة إياها أنه كان المبادر دائما في علاقتهما، وأنه قد حان دورها لتبادر هي، حتى تريه أنها مهتمة باستمرار العلاقة، ومستعدة لتقديم تنازلات، اقترحت عليها الفكرة، فكرة استدراجه إلى هنا ثم إغوائه وهي تخبرها أن زوجها (جاك) لم يستطع يوما، مقاومة لحظة إغرائها، وأن لا رجل يمكنه أن يفعل، لكن ما كانت تجهله ميلي، أنها لم تكن خبيرة إلا ببني ملّتها، لأنها لم تعرف سواهم، لم تكن تدرك أن زياد ينتمي لملّة أخرى، غير ما عرفته من الرجال، كان زياد رجلا عربيا، تقوده كبرياؤه، رجل جزائري عرف عنه التاريخ عناده، رجل مسلم هذّبه دينه، لم تكن تعرف أن رجلا مثله، لن يسمح أن تسيره غرائزه، رجل ترفض كرامته أن ينساق لنزوة، بينما يكفيه إثبات حب بكلمة، وفعل بسيط.

عادت صوفي إلى بيتها، منهكة الكبرياء، خائرة الكرامة، غير قادرة على استعادة حياتها قبل زياد، ولا إكمالها بدونه.

كانت قد تعوّدت قبله على الوحدة، صنفت كل الرجال في خانة واحدة، خانة لا تستحق الالتفات إليها، ألفت العيش دون أن تتعلّق

بأحد، لا تنتظر شيئا من أي شخص كان، حتى لا تلتقي يوما بالخيبة والخذلان، تعلمت ألا تثق بأحد، فكل من أحبتهم في الماضي قد خذلوها، لكنها أمامه جُنّت، تخلت عن كل قناعاتها، تناست أوجاعها وخيباتها، آمنت باختلافه، سلّمت لحبه، وصدّقت أن الحب يصنع المعجزات، وها هو مثلهم جميعا قد خذلها، أوجعها وأهانها.

هي موجوعة، متألمة، لكنها كانت أما لطفلٍ مريض، يحتاجها في كل لحظة من حياته، حاولت من أجله أن تستعيد دورها كأم حاضرة، لكنها كانت متعبة جدا، مجروحة تنزف ألما، محتاجة لبعض الوقت لتقف من جديد، من أجل آدم وفقط من أجله، باتت ميلي معها ليلتها وتكفلت بآدم صباحا، والذي سأل عن والدته مقتحما غرفتها، احتضنته صوفي بشدّة تستمد منه القوّة، وهي تخبره أن ميلي ستقلّه لمدرسته اليوم، لأنها مريضة وستتحسن بعد عودته، رفض الطفل بدايةً وانطلق في نوبة بكاء وصراخ، لكنها تمكّنت من تهدئته أخيرا وهي تخبره أنها تحتاج لبعض الراحة، وبعض الأدوية لتعود (ماما القوية)، انصاع الطفل أخيرا بعد الكثير من العناق والأحضان، وانصرف مع ميلي، بينما بقيت هي غير قادرة على الحركة، وكأنها فقدت القدرة على استعمال

أطرافها السفلية والعلوية، اجتاحها ألمٌ رهيب كان يعتصرها، وكأنها خرجت من سباق طويل، تسبب لها في هذه التقلصات التي لم تكن تفهم سببها، كانت تدرك سبب وجع قلبها، وكسرة روحها، ولكن أن ينتقل الألم إلى جسدها، فهذا ما لم تكن قادرة على استيعابه، قلبها موجوع، وجسدها متألم.

عند عودة آدم وميلي مساءً، كانت على حالتها التي تركاها عليها صباحا، أصرّت ميلي على استدعاء طبيب، أو نقلها إلى المستشفى، لكنها رفضت رفضا قاطعا، ماذا ستخبر الطبيب؟ أنها تعاني من وعكة عِشقية، أن الرجل الذي تحبه خذلها فانهار جسدها، وأيُ وصفةٍ سيمنحها لها الطبيب لتشفى من خذلانها؟ سيكتب على الوصفة (قبلة من زياد مرتين في اليوم، حضن منه كل ساعتين، وعودته إلى منزل المريضة)

كانت نفسها تسخر منها في صمتٍ (تستحقين ما يحدث لك، الرجل طلّقك، رماك، وأنت رحت تستمعين إلى نصائح ميلي وتركضين وراءه، ظنّنت كالبلهاء أنه سيعود إليك، بمجرد رؤيتك في تلك الملابس الفاضحة، ها هو الآن يحتقرك وقد أعطيته الفرصة لإذلالك، لقد أهنت نفسك، أنت التي عشت تكابرين، في سبيل كرامتك، عشت مبتعدة عن كل الناس، رفضت التعلق بأي

أحد حتى لا تُخذلي، جَبُنتِ أمامه وتعلقتِ به، منحته قلبك وها أنت تمنحينه كرامتك التي داس عليها، تحملي إذن نتائج غبائك وسذاجتك)

يومان وهي على تلك الحالة وميلي تتكفل بالطفل، كرامتها مذبوحة، قلبها موجوع، وجسدها منهك ومستنزف، في اليوم الثالث تغلّبت على آلامها، تناستها وأهملتها، وغادرت سريرها لتحاول المُضيَ في حياتها، متناسية خيبتها برغم الألم الذي كان يشد على صدرها، فيكاد يخنقها، ألم رهيب لم تعرفه يوما، حتى عندما توفيت جدّتها، وكان ذلك أكبر ألم عرفته في حياتها، فقدان الشخص الوحيد الذي أحبها بصدق، وبدون شروط، جدّتها التي تقبّلتها دائما كما هي دون أن تحاول تغيّيرها، عندما توفيت اهتزّت الأرض من تحت قدميّها، وأحست يومها أنها أصبحت يتيمة، بلا قلب تلتجئ إليه في هذا العالم، حتى عندما توفي والدها بعدها بسنوات لم تشعر بيتمها، رحيل جدّتها هو ما ذبح قلبها المتعلق بها، اليوم ألمُها، ألمُ العاشق عندما يدرك يقينا أنه فقد حبيبه إلى الأبد وفقد معه أي معنى للحياة، لم يعد شيء فيها يستحق الاستيقاظ يوميا، ومنازلة صعابها، لأنه لم يعد يرى النصر في أي مكان، هو يأس الذي أدرك يقينا أن حياته توقفت،

انتهت، وما تعلقه بها بعد الآن إلا كتعلق المريض المحكوم عليه بالموت، بدواء يقلل الألم ولا يمنعه، فقط آدم من كان يستحق أن تعيش من أجله، أن تناضل كل يوم من أجل حياته هو، وذلك ما ستفعله.

****

في الأيام التي تلت، تلقى زياد ردا بقبوله كمراسل صحفي، لدى إحدى القنوات الفضائية الفرنسية، ترك العمل كسائق أجرة، وظيفته حاليا ستقتصر على إرساله للشرق الأوسط وإفريقيا، على اعتبار أنه يجيد اللغتين العربية والفرنسية، لنقلِ الأخبار المباشرة، وإجراء التحقيقات، خاصة مع الوضع الصعب الذي تعيشه هذه المنطقة بعد ربيع عربي، تحول إلى شتاء مدمر، و ظهور الجماعات الإرهابية التي تعيثُ في الأرض هناك فسادا، كان يعلم أنه اختار وظيفة صعبة، لكنه كان يريد أن يستعيد كرامته التي أهدرها، في حب امرأة لم تقدر حجم تضحياته، كما كان يهرب منها إلى ما يشغله عن التفكير فيها، وفي حبها الذي تفشّى في كيانه، كمرض خبيث يسعى لقتله، ولم يكن أمامه من حل سوى هذه الوظيفة، كان يريد أن يبدأ من جديد في أي شيء، يريد أن يثبت لنفسه أنه قادر على العيش بدون مساندة والده، يمكن أن

يصنع أحلاما جديدة له، ويمكن أن ينجح، أنه قادرٌ على فعلها دون نفوذ والده ولا مساندته، كان يريد أن يوصل لأبيه أنه رجل وإن أنكّر عليه هو هذه الصفة، لم يعد الشاب اليافع الذي يخاف عليه والده ويخطط له مستقبله، ويسيّر له حياته، لم يعد المراهق الذي يكسر له قيثارته ويحبسه ثلاثة أشهر في غرفته، فيستسلم هو ويرضخ لقراراته، لقد أصبح رجلا يتحمل مسؤولية قراراته، ونتائج أخطائه، يتعلّم من خطئه قبل صوابه، ويعيش كما يرتضي هو لا كما يأمر والده.

****

كانت هي تجلس على أريكتها، قبل وقت عودة آدم من الروضة، تُقلّب القنوات في ملل طغى على حياتها، منذ تلك الليلة المشؤومة، لتتوقف فجأة وهي ترى صورته على التلفاز، وهو يرتدي بزّة كُتب عليها كلمة (صحافة)، يضع على رأسه خوذة، ويمسك بيده (ميكروفون) ويتحدث عن وقوع انفجار في المنطقة منذ بضع دقائق، أمعنت النظر تتأكد أنه ليس شطحة من شطحات خيالها، الذي بات في حالة شتات، ولكنها لا يمكن أن تخطئ وجهه، وتيقنت أنه هو من صوته، وهو ينقل الخبر بتفاصيل أرعبتها، إذ كان يسرد عدد القتلى والجرحى، وما خلّفه هذا

الانفجار الذي وقع إثر اعتداء من منظمة إرهابية أعلنت أنها تبنّت الانفجار تدعى (داعش).

وضعت كفها على الجهة اليسرى من صدرها، وكأنها تحاول الإمساك بقلبها النابض بشدة، خشية أن يسقط منها، انتهى النقل المباشر، ليأتي صوت مقدمة النشرة تنتقل ببساطة لموضوع آخر، بينما مازالت هي قابعة في نفس اللّحظة التي رأته فيها، تحاول استيعاب، أن زياد هو المراسل الصحفي للقناة، وأنه هناك يجابه الخطر بصدر مرحبٍ بالموت، أرعبتها هذه الفكرة وهي تسأل نفسها، أتراها هي من أوصلته إلى هناك؟ هل أصبح فاقدا للأمل لدرجة عدم مبالاته بالموت؟ لكنها استبعدت الفكرة وهي تتذكّر ما فعله بها في آخر لقاء بينهما، وتؤكّد لنفسها أن المحبَ لا يؤذي من أحبه، وتصل لنتيجة أن تضحيته بكل ما كان يملك من أجلها، هي ما لم تترك له إلا هذا الخيار لمواصلة حياته، فيوجعها قلبها عليه رغم كل شيء.

في ذات تلك اللّحظات، وفي الجزائر كان قلبُ أمٍ يقفز خوفا وهلعا، وهي تشاهد ابنها في وسط اللامكان، حيث الغبار يحيط به، متسببا له في موجة سعال اجتاحته، اعتذر بعدها وهو يكمل النقل والحديث، مفسرا أن التراب المتطاير في المكان مع الدخان،

يجعلان عملية التنفس صعبة، كانت رائحة الموت تكاد تقفز من شاشة التلفزيون، لو كان التلفاز ينقل الرائحة كما ينقل الصورة، لاختنقت الأم بها، لكنها الآن تختنق لرؤية فتاها الصغير، مدللها وفلذة كبدها الذي لم ترّه منذ أكثر من سنة، ينقل بوجه لا يحمل أي تعبير سوى تعبير (المهنية) -التي لم تستوعبها تلك المرأة- خبر حدوث انفجار راح ضحيته العديد من القتلى والجرحى، بينما يجلس أمامها رجل في العِقد السادس أو أكثر بسنوات قليلة، يشاهد ابنه الذي ضاع منه في غفلة من الزمن، وأضاع معه كل الأحلام التي رسمها هذا الوالد من أجله، ضاع في حب امرأة، باع من أجلها عائلته ومستقبله، وها هو اليوم مستعد لبيع حياته بسببها ومن أجلها.

لم يكن خبر طلاق زياد وصوفي قد وصل لوالديه، لأن الطلاق كان في سرية تامة لم يعلم به إلا الزوجان وميلي، ولأنه لم يوثق رسميا.

ارتفع صوت المرأة الجالسة، نحيبا على ولدها، وهي تبكيه وتبكي وساوس قهرتها، خوفا على مصير فلذة كبدها، وسط الضياع الذي لجأ إليه، بعد أن طرده والده من بيته، فراحت تخاطب هذا الزوج، متوسّلة ودموعها تجري على وجنتيها:

ـ ذهب للموت بقدميه، أرأيت أين أوصلته، حرام عليك، رُدّ لي ولدي، أتركه يتزوج بها، أتركه يعيش معها، رُدّ لي ابني قبل أن يحدث له شيء هناك.

أجاب الرجل، ووجهه لا يبدو عليه أي تأثر، برغم النار التي كانت تتقد بداخله:

ـ ابنك اختارها هي، دعيه يتحمل مسؤوليته حتى يعرف ماذا أضاع من بين يديه

زاد نحيب الأم وهي ترى برودة أعصاب زوجها، وتسمع ردّه، فخرج صوتها مرتعشا وهي تقول:

ـ إذا حدث له شيء، والله لن أسامحك، قلبك قُدّ من حجر، ابنك يمكن أن يموت هناك وأنت مازلت ممسكا بعنادك

انتفض الرجل واقفا وهو يجيب بصوت مرتفع، غلفته نبرة الغضب:

ـ ابنك هو من تمسّك بعناده، باع الدنيا كلها من أجل امرأة، وكأن النساء انقرضنّ من فوق الأرض، أو أن الله لم يخلق غيرها، ربما

تريدينني أن أذهب وأرجوه أن يسامحني ويعود للمنزل، يمكنك الانتظار طويلا، أنت وابنك، لا قدّر الله لي ذلك.

استدار الرجل بعنف، تاركا المكان والبيت، بينما ارتفع صوت بكاء الأم، وهي ترثي ابنا تشعر أنها ستفقده بدون رجعة، وقلبها يتمزق بين زوج قاسٍ، يرفض التنازل عن كبريائه وعنده، ليعيد ابنه إلى حضنه، وبين ابن ضاع في حب امرأة، فغادر من أجلها حضن عائلته، ليرتمي بين أحضان الموت، متمرغا فيه يشاكسه ويتحداه، غير مدرك أن الشيء الوحيد الذي لم يستطع منذ الأزل أي إنسان قهره، هو الموت.

الفصل الرابع عشر

(شبحُ الموت)

لا أحد يتنازل لاحتواء الآخر،

لا يعرف أحدٌ منهم معنى تقبل اختلاف الرأي،

لا يدركون أن الاختلاف رحمة،

وأن التعايش لا يستوجب بالضرورة

أن يكون الجميع متفقون على شيء واحد

مرّت الأيام التي تلت، على امرأتين تقيمان في بلدين مختلفين، مرعوبتين من احتمال نقل خبر لهما، تخشيان سماعه، عن أحب شخص إلى قلبيهما، رغم أن لا واحدة تدرك حجم معاناة الأخرى، أمام جحيم الانتظار، امرأتان لم تقابل إحداهما الأخرى، اشتركتا في حب رجل واحد، على اختلاف هذا الحب، بين حب أم وحب زوجة، متسمرتان أغلب الوقت أمام التلفاز، تراقبان الأخبار، علهما تحظيان برؤية وجه الحبيب، مطمئنا أن ما تخشياه لم يحدث، داعيتان ألا يحدث أبدا.

بينما مرَّ عليه هو الوقت، يركض من بلد لآخر، ينقل الأخبار التي كانت أغلبها تعيسة ومتشائمة، دموية وحزينة، في منطقة غلّفها الدمار، وطغى فيها الاستبداد والأنانية، حتى أصبح الأخ لا يبالي بأخيه، القوي يأكل الضعيف، ومن استولى على السلطة مستبدٌ ومتمادٍ في غيّه وضلاله، يستبيح كل شيء حتى الدماء والأرواح، من أجل البقاء في منصبه، صراع على السلطة دفع ثمنه الضعفاء، زُجّ بهم في السجون من جهة، ومن جهة أخرى رجموا وأعدموا، وشردوا، فمات من مات، وفرّ من فرّ وهجر وطنه، ومن بقي سكنه الغضب المكتوم، فاختار طريق الضياع، شباب فقدوا إيمانهم، ألحدوا، وهنوا، قطعوا البحار في قوارب الموت،

طلبا للأمان في بلدان رفضت استقبالهم، لا يبالون بالغرق قبل الوصول، لكنهم لا يقدرون على البقاء في أرض أهانتهم، وقتلت الأمل بداخلهم، أرض هي أرضهم، لكن خيراتها نهبت منهم، لينعم بها من استولى على السلطة، والقوّة، أرض يشعرون فيها بالقهر، وهدر الكرامة، واستباحة الكبرياء.

رأى من المناظر الكئيبة، ما جعله يزهد في هذه الدنيا، التي يتقاتل من أجلها أبناء البلد الواحد، كل واحد منهم يرى أنه على حق والآخر مخطئ يستحق الرجم والقتل، لا أحد يتنازل لاحتواء الآخر، لا يعرف أحدٌ منهم معنى تقبل اختلاف الرأي، لا يدركون أن الاختلاف رحمة، وأن التعايش لا يستوجب بالضرورة أن يكون الجميع متفقون على شيء واحد، تعرّف على الجوع عندما ينهش الأجساد الضعيفة، والعطش الذي جفت له الأنفس، ليدرك نعم الله الكثيرة، التي لم يكن يلتفت لها حتى في شربة ماء، رأى أطفالا حُفاةً، عُراةً، يتدافعون في جمع غفير للحصول على كسرةِ خبزٍ، أو حفنة أرز، رجال ونساء، يركضون لالتقاط رزمة ترميها شاحنة عابرة، قد تحمل لهم بطانية، أو ربما كسوة يغطون بها أجسادهم النحيلة.

بكى يومًا بكاءً مريرًا، بشهقاتٍ متعالية كالنساء، مختفيا عن الأعين، بعد أن رأى فرحة أناسٍ من قبيلة إفريقية، وقد حفر بعض المتطوعين الأجانب لهم بئر ماء، عندما أشرقت عيونهم فرحا، وهم يلمسون الماء، ويُدخلونه إلى جوفهم، بينما يتراقص الأطفال بهجة وترحيبا بهذا القادم الذي أطال الغياب، رأى تجسيد الآية القرآنية التي تقول (وجعلنا من الماء كل شيء حي) في عودة الحياة إلى وجوه أهل ذلك الحي، لم يتمالك نفسه فهرب مختفيا يداري بكاءه وتأثره، وكم كان الأمر قاسيا، على رجل عاش حياته يتمتع بكل شيء، لا يشغله إلا مكان تقضية إجازته الصيفية، أو نوع سيارته الجديدة، ليصطدم بهذا البؤس الذي يحيط العالم من حوله، ويكتشف أن العالم من حوله يعاني الضياع، يصارع الموت كل يوم، بينما عاش هو حياته كلها في غفلة، لا يعرف شيئا عن هذا الجانب الآخر من الأرض.

أحسّ في هذه الفترة القصيرة، أنه كَبُر بأعوام عديدة، تعلّم أن العالم الذي كان يظنّه صغيرا، كبيرٌ جدا لأنه يحمل لبعض الناس، هموما كبيرة، وأحلاما مستحيلة، شاهد بعينيه أطفالا يموتون جوعا، ونساء يتصارعنّ لإنزال قطرة حليب لأبنائهن المتعلقون بهنّ، وقد نحل جسدهم حتى تكاد تحصي عظامهم، أدرك بخيبة،

حجم الظلم الذي يمارسه الأغنياء في أنانيتهم، في سكوتهم عن هؤلاء، لاهين عنهم بملذات الحياة، وقد كان إلى وقت قريب ينتمي إليهم في غفلته، وعرف أنه عاش طويلا غير مقدر لنعم الله عليه.

****

كانت صوفيا تجلس في مكتب الطبيب، بالمستشفى الذي بدأت متابعة العلاج به منذ فترة، تستمع إلى توصيات طبيبها:

ـ سيدة صوفيا أنت تعلمين أن الأمر ليس بهذه السهولة، قائمة من ينتظرون تبرعا من شخص ميت، مليئة والمعضلة أن الأحياء قليلٌ منهم من يتبرع بأعضائه، وأغلبهم يفعلون بدافع صلة القرابة التي تجمعهم بالمتبرع لهم، لكن المشكلة أن المرض عندك ينتشر بسرعة فائقة، وإذا تفاقم الوضع، حتى التبرع لن يجدي فائدة، لأن الجسم لن تكون لديه القدرة المطلوبة والكافية، لتقبّل العضو الدخيل عليه، كما أنني أخشى أن يتحول مع الوقت، إلى سرطان خبيث، وساعتها ستصعب السيطرة على الأمر.

ظهرت تقطيبة صغيرة بين حاجبي صوفي، محاولة مدارة توترها، وهي تسأل الطبيب في قلق:

ـ وما الحل دكتور؟

ليجيب الطبيب في جدية واضحة:

ـ لقد تأخرتِ جدا في متابعة حالتك، عندما ظهرت الأعراض كان عليك الأخذ بتوجيهاتي المشددة بمتابعة الأمر، تهاونك وضعنا الآن في خانة ضيقة جدا، والوقت يداهمنا

صمت قليلا وأمام صمتها، أردف:

ـ أليس لديك شخص من عائلتك يمكنه التبرع لك، أب، شقيق أو زوج؟

ارتسمت نظرة بائسة على وجهها وهي تجيبه:

ـ ليس لديّ إلا طفل صغير، هو من أخشى عليه، إذا حدث لي شيء فسأتركه وحيدا في هذا العالم

تعاطف الطبيب مع مريضته في قرارة نفسه، لكنه أخفى ذلك ببراعة وأجاب بحرفية اعتادها مع مرور سنوات خبرته العملية:

ـ إذن ليس أمامنا سوى انتظار متبرع

بينما ما سكت عن قوله هو (انتظار معجزة) لأن قائمة الانتظار كانت طويلة جدا، ودور صوفي متأخر فيها.

****

عندما وصلت صوفيا إلى بيتها، وجدت طفلها نائما، وصديقتها ميلي بانتظارها حتى تغادر لبيتها هي الأخرى، سألتها محاولة الاطمئنان عليها:

ـ ما الأخبار؟ هل من جديد؟

فأجابت صوفي في وهن قد تملكها:

ـ لا شيء، لا حل إلا بالتبرع والقائمة طويلة

حاولت ميلي أن تجد كلمات لمؤازرة صديقتها وتشجيعها فلم تجد إلا أن قالت:

ـ ستجدين متبرعا، الناس تموت كل يوم بالعشرات

ابتسمت صوفيا بأسف على سخرية الحياة، وهي تتساءل، كيف يمكن أن يعيش المرء على أمل موت شخص آخر، حتى يعيش هو؟ لولا آدم لما اكترثت لموتها، هي التي لم تنل من الحياة سوى

الأحزان والآلام، لمَ قد ترغب في العيش مدّة أطول؟ بينما لا تجد في هذه الحياة ما يسعدها ولا حتّى ما يريحها، لكنه هو طفلها الذي مازال صغيرا، وبحاجة إليها، ما يؤرقها، مرضه يجعله بحاجة دائمة لمن يعتني به، وإن هي رحلت ضاع هو.

وجهت كلامها إلى صديقتها، وهي تحسّ بالحسرة وشعور بالظلم يملأها، لماذا عليها هي أن تواجه كل هذه المصائب؟ واحدة تلو الأخرى، لا تكاد تخرج من واحدة حتى تسقط في الثانية، حياتها كلها مرّت وهي تحاول أن تستعيد قوتها بعد كل ضربة، وكل مصيبة، وها هي الآن تواجه أكبر همومها، لماذا رزقها الله آدم إذا كان لن يتركها لتعتني به؟ بينما كل ما تطلبه أن تكون قادرة على الاعتناء بصغيرها، لماذا يكون الأمر بهذه الصعوبة؟ بل يكاد يكون مستحيلا، تنهدت وهي تقول:

ـ ميلي إذا حدث لي شيء، فسيكون آدم وحيدا في هذا العالم، لا يمكنني أن أطلب منك أن تكرسي حياتك له، هذه تضحية لا يمكن أن أطلبها منك، ولا تقدّر عليها إلا الأم، سأرتب لوضع طفلي في مركز خاص، وسأسعى لتسهيل أموره المادية بطريقة تكفيه لسنوات طويلة، أنت تعلمين أنني أدّخر له منذ سنوات، أموال

تأجير البيت الذي ورثته عن والدتي في إسبانيا، والذي لم أكن لأقبل به لولا أنني فكرت أن آدم سيحتاجه يوما

أخذت نفسا عميقا وهي تضيف بحذر، كأنها تخشى من رد صديقتها، ولا تستطيع حتّى أن تلومها لو هي رفضت، فلا أحد غيرها هي مطالب بتكريس حياته لآدم، وها هي مضطرة لإيجاد حل قبل رحيلها عن هذا العالم:

ـ أريد أن أضع اسمك لتكوني وصية عليه، كل ما أريده منك أن تحرصي على استخدام أمواله في ما يناسب الاعتناء به كحالة خاصة، وأن تزوريه من حين لآخر، أن تطمئني عليه، وأن تحكي له عن أم...

تحشرج صوتها وقطعته رغبة قاتلة في البكاء، حاولت صوفيا أن تتحكم فيها وهي تضيف بصوت متقطع:

ـ عن أم... لم يكن لها من نور في عتمة حياتها سواه هو... ابنها.

كانت صوفي تتحدث بينما انهمرت الدموع تبلل وجهها حزنا وخوفا على ابنها، فانفجرت صديقتها بالبكاء، وهي تحتضنها لا

تجد ما تواسيها به لتسمع صوفي تلح عليها، محاولة السيطرة على أعصابها:

ـ هل تستطيعين تقديم هذه الخدمة لي وفاءً لصداقتنا الطويلة

سحبت ميلي وجهها، تنظر إلى صوفيا التي كان وجهها أحمرا من شدة البكاء، وقد سكنها الحزن، تومئ برأسها موافقة، لكنها سمعت صوفيا تصر قائلة:

ـ عديني يا ميلي، عديني بأن تعتني بصغيري بعدي

فتنطق ميلي بصوت مخنوق من بين دموعها:

ـ أعدك

وتعود الفتاتان إلى معانقة بعضهما منخرطتان في بكاء أليم يمزق الفؤاد، وحسرة على قدر لا تستطيعان رده.

بعد مدّة شكرت صوفيا صديقتها التي جففت دموعها، وغادرتها إلى بيتها، ثم اتجهت إلى حيث يرقد صغيرها، النائم في سلام، غير مدرك أن مصيره في هذا العالم مجهول، جلست على الكرسي الذي أمام سريره، تمسّد على شعره الأسود الناعم،

تتلمس وجهه البريء في حب، وتتخيل أياما سيبكيها طفلها، دون أن تكون قادرة على مسح دموعه، سيطلبها صغيرها، ولن تكون قادرة على تلبية مطالبته بحضنها، سيبكيها غير مدرك أنها غادرت هذا العالم، ليس بإرادتها، إنما مرغمة، سيغضب منها معتقدا أنها هجرته بإرادتها، لن يفهم أنها تركته مكرهة، دون أن يُؤخذ رأيها، أحسّت بغصّة تخنقها، فانحنت تضع قبلة على جبينه، فتح عينيه على دموعها التي بللت وجهه، مدّ ذراعيه متعلقا برقبتها، فضمّته إليها في شوق مضنٍ، وهي تتشمم رائحته الطفولية التي تعشقها، وتزرع على وجهه قبلات متفرقة، بينما علا صوت ضحكاته، ظانًا أنها تلاعبه، فضمّته أكثر إلى قلبها، تحاول منع صوت شهقاتها المختنقة بداخلها من الوصول إليه حتى لا ترعبه، وهي تشعر بنار تشتعل في كبدها، رأفة بحال ابنٍ لم يدرك يوما معنىً لهذه الحياة، حتى يدرك معنى الموت، ابنا سيظل طفلا صغيرا مهما تقدم به العمر، لكنها لن تكون هنا لترعى طفولته الدائمة، رفعت رأسها إلى السماء وهي ما تزال محتضنة صغيرها تناشد ربها في صمت (لمن سأتركه يا رب؟ من سيعتني به بعدي؟ يا إلهي أنا لا أريد العيش من أجلي، بل من

أجله هو، أنت تعلم أن ليس له في هذا العالم سواي، فلمن سأتركه؟)

****

في نفس الليلة، في غرفتين مختلفتين، في بلدين متفرقتين، هناك امرأتين، كل واحدة منهما تشاهد نشرة الأخبار الرئيسة، على القناة التي أدمنتها، بحثا عن طيفه ليطمئنها أنه بخير، بينما القلبين مرتجفين خوفا وهلعا، على حبيب رمى بنفسه وسط براثن الموت، تنظران بشوق للوجه الحبيب، الذي غادر وأطال الغياب، للذي قسى وما انتُظرت منه هذه القسوة.

كان زياد ينقل خبرا مباشرا من بلد عربي يعاني تبعات ما سُمي بالربيع العربي، يعطي تفاصيل الصراع الذي يدوم منذ مدّة هنا، بعد انشقاق الناس إلى جهتين، بينما قلبان يخفقان في صراع من أجله هو هناك، واحد في الجزائر وآخر في فرنسا، فجأة سُمع دوي انفجار كبير، ليغطي شاشة التلفاز غبار كثيف، محا صورة أي شيء آخر، بينما تُسمع أصوات جلبة كبيرة، يتخللها صوت الرصاص، وأصوات الناس تتعالى في هلع واضح بين صراخ وبكاء، وعويل.

بدأت مقدمة النشرة على إثر ما حدث، تنادي بصوتها، الذي حاولت جعله يبدو هادئا، رغم أنها لم تنجح كثيرا في ذلك:

ـ زياد، زياد هل تسمعني؟ زياد نريد فقط أن نطمئن عليك إن كنت تسمعني.

صمتت المذيعة تنتظر ردا، ومعها صمتت قلوب وجلة، تنتظر ذات الرد، أو حتى نفسا يطمئنها، أن الغالي بخير ولم يُصب بأذى.

كانت والدة زياد تشد كفيها على قلبها وهي تصرخ:

ـ ردّ يا ولدي، ردّ على أمك، قلّي بأنك بخير

بقيت تردد الجملة في توسّل، امتزج بالهلع، وهي تبكي ودموعها تسيل:

ـ رد يا قلب أمك، لا تتركني أموت من الخوف عليك

وأمام الصمت القاتل، وصوته الغائب الذي لم يأت، انهارت الأم تنتحب وعلا صراخها وبكاؤها، ترثي ابنها الضائع الذي غيبه الموت.

بينما في الجهة الأخرى، كان هناك أبٌ يدّعي القسوة، يموت جزعا على ابنه، الذي ضاع وسط الدخان

في بلد آخر، كانت صوفيا تصرخ منتحبة:

ـ أرجوك قل شيئا، قل أنك بخير، قل أنك بخير

ثم تسقط على ركبتيها أمام شاشة التلفاز، تمد يدها كأنها ستتلمّسه، أو كأنه سيمد يده ليلتقطها، ومع عودة كفها خائبة تصرخ وقلبها ينفطر حزنا على فقيدها:

ـ زيااااد

انقطع البث على منظر الدخان الكثيف، ومقدمة النشرة تطلب من المراسل الذي اختفى صوته مع صورته، أن يطمئنهم تحت الهواء، لتعود لمناقشة الوضع مع المحلل السياسي، الذي نزل ضيفا على النشرة، غير عالمة بستة عيون كانت مازالت معلقة على الشاشة، على أمل ظهور ذاك الذي سيعيد النور إليها.

****

الفصل الخامس عشر:

(ندم ورثاء)

منعت عنه بيتك وهو حي

فامتنع عن قبر عندك ومنك وهو ميت

مرّت الأيام عصيبة، قاسية، سقطت فيها أم زياد طريحة الفراش، وقد تيقن قلبها المفجوع أنها فقدت فلذة كبدها، بينما راحت تعاتب ذاك الذي كلما دخل ليطمئن عليها، أنه هو السبب في موت ابنها، هو الذي رفض أن يتنازل ليعيد ابنه إلى البيت، أو ليسمح لها هي بإبلاغ ولدها، أن أباه لم يعد يرفض عودته للمنزل، هو الذي بقي على عناده، مصرا على تعليم ابنه درسا من دروس الحياة، بينما ها هي الحياة تعلّمه أقسى دروسها، بتغييب ابنه إلى الأبد، هو الذي ظلّ متمسكا بحلم رسمه لابنه، رأى فيه نفسه، واستعادة مجده الضائع، لم يفكر يوما أن هذا الحلم ربما لم يكن يوما حلم ولده، هو الذي لم يشعر بابنه، وهو يكابد سكرات العشق، لم يحتوه ويقف بجانبه، وهو يعيش أكبر وأقسى تجاربه، بينما لفظه من بيته، ورمى به إلى العوز، حتى اضطر إلى العمل وسط الحروب والموت، وها هي المنيّة ترحب بابنه وتحتضنه.

تواجهه بقسوة لم يعتدها منها، لكنه يعذر سببها، ويعرف أنها لم تعد تبالي بغضبه أو رضاه بعد رحيل ابنها:

ـ هل أنت مرتاح الآن بعد أن ضاع ابنك؟ بماذا أفادك جبروتك وطموحك السياسي؟ ضاع ابنك إلى الأبد، مات فلذة كبدك، وأنت الذي تسببت في موته

تصمت غارقة في بكائها، تخنقها شهقاتها، ثم تسترجع صوتها لتردف:

ـ ما ضرك لو أنك احتويته، وتركته يتزوج المرأة التي أحبها؟ ما ضرك لو أنك ساعدته ومنحته فرصته في اختيار الحياة التي يريدها؟ ماذا لو واكبته حتى في فشله وكنت سنده؟ هل ارتحت الآن؟ وأثبتت لنفسك أنك الأقوى بعد أن اختطف الموت ابنك؟

تقولها له بنبرة تقطر حزنا وأسفا، تلومه وتحمّله مسؤولية ما حدث لابنه، لا تعلم أنها تقتله بكلماتها، لكنها تموت بموت ولدها، ثمرة فؤادها، وقرة عينها.

كان قلب والد زياد يتمزّق، كلما سمع من زوجته هذا العتب، لا يستطيع لومها، وهو يدرك أنها محقّة في أغلب ما تقوله، هو الرجل القاسي الذي لم ينحني رأسه يوما، ها هو اليوم ينحني حزنا على فقد ابنه، وما أقساه من فقد، هو الرجل الذي تعوّد أن يأمر فيطاع، ها هو اليوم عاجز حتى عن الطلب، مستعدٌ للتوسّل

إن اقتضى الأمر، لكن ممن يطلب؟ ومن يتوسّل كي يعيد له ابنه؟ مستعد هو اليوم لتقبيل الأيادي والأقدام، مستعد لمنح حياته ليشتري بها حياة ابنه، لكن كيف السبيل وإلى من الملجأ؟ هو الذي لم يأخذ يوما ابنه في حضنه، ولم يخبره يوما أنه يحبه، لكنه كان يحبه، والطريقة الوحيدة التي كان يجيد التعبير بها عن حبه، هو حزمه والسعي لتوفير حياة رغيدة له، ورسم مستقبل زاهر له، لم يكن يعرف أن كل هذا، لن يكون مهما، مقابل أن يحتضن اليوم ابنه ويقبل رأسه، يعتذر منه ويطلب منه، بل يترجاه أن يعود، لكن هيهات، هيهات، الولد الضال عاقبه بأبشع طريقة، الفتى المغضوب عليه، أراه بأقسى وسيلة أنه هو الغاضب، ولم يعد المغضوب عليه.

انحنت هامة الرجل الشديد القاسي، عرف الضعف أخيرا طريقه إليه، ظهرت عظام وجهه، ونحل جسده، يقضي أغلب وقته راكضا بين معارفه، لتعجيل إحضار جسد ابنه، يريد أن يدفنه في بلده، ويخشى أن تكون أشلاؤه قد تطايرت، ويصعب جمعها والتعرف عليه، يرغب في إكرام ابنه بدفنه، في ضمّ جسده والاعتذار منه، يرغب في الارتماء على قبر يضم جسد فلذة كبده، في تمريغ وجهه على تراب يحتضن ابنه الغالي، كما عجز

هو عن احتضانه في حياته، يتذكّر نضال ابنه في المطالبة برفات الشهداء لدفنهم في أرضهم، متعجبا من سخرية الأقدار، يسأل نفسه:

(من ذا الذي يطالبه هو برفات ابنه ليدفنه في أرضه ووطنه؟) كان الأمر قاتلا لرجل عاش طوال حياته رافعا رأسه شامخا، بينما اليوم يجوب هنا وهناك، يتوسّل ويرجو أن يحضروا له فقط جسد ولده، أو حتى أشلاءه، هو الآن يستجدي الموت أن تأخذه حيث أخذت صغيره، لعله يلقاه فيضمه معتذرا، ويرتاح أخيرا من وجع قلبه على فقده، ومن تأنيب ضميره أنه هو سبب ما حدث له، ومن لوم زوجته التي تموت هي الأخرى كل يوم أمامه.

أظلم البيت الذي كان يشتاق للولد الذي تربى بين جدرانه، وركض على ساحته، يكاد يُسمع أنين غرفة الفتى الذي اختطفته المنيّة على غفلة من والديه، لا أحد يستوعب أن الشاب الذي كانت الحياة تنبض في كل جزء منه، الفتى الذي كان يعيش الحياة كأنه لن يغادرها، قد غاب للأبد، غيّبه الموت، ولم يترك منه حتى جسدا يدلّ على أنه كان موجودا يوما ما.

****

في جهة أخرى من العالم، تكفلت ميلي بالاهتمام بآدم، بصعوبة شديدة، كان الطفل يبكي بكاءً مريرا، ويتعلق بوالدته التي كانت كأنها تعود للحياة في تلك اللحظات التي يتعلق فيها ابنها بها فقط، تحاول إقناعه بالذهاب مع ميلي، في عزّ أزماتها وأكبر أحزانها لم تتخل صوفيا يوما عن الاهتمام بابنها، لكنها بموت زياد فقدت قدرتها على المقاومة، وشعورها بالذنب يزيد من إحساسها القاتل بفقد حبيبها، وهي تتذكر كم آذته بتصرفاتها، تلوم نفسها لأنها لم تصارحه بماضيها وبكل أوجاعها، لم تخبره بسرها، لم تمنح حبهما فرصة تحدي عُقدها، لم تمنح زياد فرصة تفهّم ردات فعلها الغريبة، ولا فرصة محاولة احتوائها وعلاجها من كل أوجاعها، فقدته، ذهب وهو لا يعلم أنها عشقته حد الجنون، أنه وبعد كل الذي حدث لها، وحده هو من أحيا قلبها وأعاده من غيبوبته، وحده من أجبرها على فتح أبوابه، وحده من استحق أن يكون رجلا في حياتها البائسة، وحده من استحق حبها وثقتها، لكنها لم تخبره بكل هذا، مضى وهو يظنّ أنها لم تحبه، أنه كان مجرد عابر في حياتها، انتهت منه عندما ملّته، لم يعرف أنه كان دواءها وشفاءها، أنه كان من بين كل البشر أمانها وعشقها.

كانت ميلي ترى بحزن غرق صديقتها في عالم من الأسى، قارب على الجنون، حيث هناك كانت صوفي تكاد تفقد عقلها، غير مصدقة أن الحياة يمكن أن تكون بهذه القسوة، كانت هي بانتظار موتها، ربما هي أشهر قليلة وتغادر الحياة بسبب مرضها، فلماذا تغدر بها الحياة بأخذ الرجل الوحيد الذي عنى شيئا لها في حياتها البائسة؟ لماذا لم تمهلها الرحيل حتى تأخذه هو؟ لماذا جعلتها تتذوّق طعم المنيّة قبل موتها لتموت هي مرتين؟ لماذا كان على قلبها أن يشعر بمرارة الموت وهو يودع حبيبا سكنه؟ ألم يكن كافيا لها أن تعيش بعذاب بعده وهجره، حتى تتشرب ألم فقده بهذه الطريقة الشنيعة؟ لم تكن تطمع سوى في أن يبكيها هو حتى لو شفقة، بعد أن أيقنت أنه نسيها وتابع حياته، أو أنه لم يحبها أصلا، فلماذا تفجعها الحياة بمصيبة جديدة فوق كل مصائبها؟

كانت صوفي تضم سواره الذي منحها إياه مهرا لها، وخاتمه الذي لم تنزعه يوما من أصبعها، وتبكي بعويل:

ـ أيا حبيبا قسا فهجر، ألم يكن بإمكانك أن تنتظر؟ أيا قاسي القلب لماذا أبكيتني؟ أنا التي كنت أطمع أن تبكيني عينيك عندما أرحل، آه يا حبيبي، لماذا رحلت قبل أن أعترف لك أني ما أحببت رجلا كما أحببتك؟ بل لم أحب رجلا إلاك، آه يا حبيبي لماذا لم تصبر

على وحشتي وخوفي؟ ألم تعدني أن تكون أماني؟ لماذا كنت من بين البشر عذابي وجنوني؟ لماذا سقيتني شراب العلقم يا كل شجوني؟ آه يا حبيب القلب، آه وألف آه، آه وقد انكسر الفؤاد بعدك، آه من يجبر الروح في بعدك؟

****

تأكد الجميع أن زياد فارق هذا العالم إلى الأبد، أيام وأسابيع والبيت يعجّ بالمعزين، بينما أم زياد غير قادرة على تقبّل التعازي، وهي لم تر بعدُ جثمان ابنها، ولم تكن قادرة حتى على ضمّ جسده لآخر مرّة، قبل أن يواريه الثرى، زوجها يحاول التجلد والصمود أمام الناس وأمام زوجته، يدعو الله في سره أن يمنحه القوّة حتى يعثر على رفات ابنه، ويدفنه في وطنه، حتى تتمكن والدته من زيارة قبره، لقد قصّر في حق ولده وهو حي ولا يريد أن يقصّر حتى وهو ميت، يريد أن يمنحه بيتا يضم جسده وهو ميت، بعد أن منع عنه منزله وحرمّه عليه وهو حي، لعلّ تأنيب الضمير الذي يكاد يقتله يهدأ قليلا، لعلّ حزنه على ابنه يهدأ قليلا، ولعلّه بعدها يستطيع أن يسلم الروح ويرحل حيث رحل ابنه.

هدأت الجموع أخيرا، وتوقف الناس عن القدوم للتعزية، عمّ البيت صمت رهيب، رجل يأكله الندم، وامرأة يقتلها الحزن ببطء، تعيش في خيالاتها تضمّ ابنها وتقبّله، رافضٌ عقلها أن يستوعب فكرة أن ابنها، فلذة كبدها مات قبلها، أليس من المفروض أن يبكيها هو؟ ألم يكن من الطبيعي أن ترى أطفاله يركضون في ساحة بيتهم الكبير؟ ألم تدرج العادة أن تضمّ أحفادها وتدللهم؟ لماذا لم يحدث شيء من هذا؟ لماذا من المفروض أن تبكيه هي اليوم، وتنسى ألمها؟

(لا هو لم يمت، إنهم يكذبون، طفلها لم يمت، هو مسافر فقط عند زوجته، ستكلم والده وتقنعه أن يقبل بزوجته الأجنبية، طموحاته لا تهم، لا تهم أحلامه، المهم أن يعود ابنها إلى حضنّها، وستضمّ أحفادها، كانت ترفض أن تصدق أن الموت لا يفرّق بين الكبير والصغير، أن المنية لا تأتي بالدور وحسب السن، وأن كل نفس ذائقة الموت في ساعة لا يعلّمها إلا الله، ومتى حانت الساعة، قد يذهب الرضيع قبل الشيخ الكبير، كانت تعرف هذه الحقيقة دائما، لكن اليوم عقلها يرفضها، لأن المصيبة كبيرة، والموت زار بيتها ليأخذ زهرة شباب ابنها، ترفض أن تسلم بتلك الحقيقة القاتلة، حقيقة أن ابنها زياد مات ولن تراه مجددا.

زوجها كان يركض هنا وهناك، يتصل بكل معارفه، يزورهم مستجديا مدّ يد العون إليه في إحضار جثمان ابنه، أو رفاته، حتى لو لم يجدوا له إلا أشلاءً يدفنها في قبر، فهو راضٍ، يطلب المساعدة والتدخل لدى سلطات البلد الآخر، للبحث عن ما بقي من ولده، والأخبار كلها كانت سلبية، لا أثر للفتى، الأشلاء اختلطت ببعضها، عدد القتلى كبير جدا، إحصاؤهم وتفريق أجسادهم سيأخذ وقتا طويلا، والأمر صعب جدا قد لا يتوصل المختصين هناك لتفرقة الأشلاء، الأمر كان قاتلا للرجل، ماذا سيقول لزوجته (لم أستطع حتى إحضار جسد ابنك لدفنه هنا) ماذا سيقول لقلبه (منعت عنه بيتك وهو حي، فامتنع عن قبر عندك ومنك وهو ميت) يا ويل روحه، من يطفئ هذه النار التي تحرقها؟ يا ويل قلبه من يغفر له ما فعله بفلذة كبده؟

****

الفصل السادس عشر:

(طفل مختلف)

إذا أغلقت في وجهك أبواب الأرض،

فاطرقي باب السماء،

فإن بها ملكا لا يردُّ عنده أحد

فُتح باب غرفةِ أم زياد، ليقف طيف ابنها عليه، اتسعت عيناها دهشة، وهي متأكدة أنها تتخيّله لكنها كانت راضية، تريد أن تحتضنه حتى لو كان طيفا، تريد أن تشمّ ريحه، حتى لو كان خيالا، اشتاقته، كم اشتاقت صغيرها، وهو يرتمي في حضنها يشكوها قسوة والده، وغدر الأيام به، مدّت ذراعيّها على طولهما ترفع جدعها محاولة النهوض وهي تقول:

ـ يا عمري أنت، يا من كسرني غيابك وحدك أنت.

تحرك الطيف باتجاهها، ليرتمي أمام سريرها على ركبتيه، ويضمّها إلى صدره، أحست لحظتها أن الطيف حقيقي، وهي تتحسّس الجسد بيديها، وتقبّل الوجه بشفتيها، بينما دموع صامتة تنساب عليه، تمسح العبرات بيديها، تقبل رأسه وتمسّد على شعره، ثم تعود لتضمّه وتشمّ عطره.

(رباه كم يبدو حقيقيا، رباه لا تجعله يختفي من جديد)

سمعت صوت الطيف يناديها:

ـ أماه، اشتقت لك أمي

ارتعش جسدها غير مصدّقة وهي تسأل الطيف:

ـ أنت هنا حقيقة أم أنني أتخيل؟

فجاءها الصوت الحبيب مؤكدا:

ـ أنا هنا يا أمي، أنا هنا

انفجرت الأم بالبكاء، يهتزّ جسدها بين ذراعيّ ابنها، تضمّه إلى قلبها، تحمد الله تارة وتنادي اسم ولدها تارة أخرى، لتختلط دموعه بدموعها، والشوق يملأ القلبين، والفرحة تزور الروحين.

على عتبة الباب كان يقف والد زياد، الّذي أسرع وجلا على صوت زوجته، ليرى ما بها، فيفاجأ بابنه الميت في أحضانها، استدار زياد ليرى والده ينظر إليه، ودموع رسمت غماما ممتلئا بالمطر في عينيّه، انفصل عن والدته مقتربا منه في حذر، ليرى والده، ذلك الذي عهده دوما جبلا لا تهزّه ريح، مهما كانت عاتية، يهتزّ وتخونه قدماه فيكاد يسقط أرضا.

أسرع زياد إليه يسنده، لترتفع ذراعا الجبل المائل، وتحيطا بعنق الولد الداعم، فينفجر الابن باكيا متأثرا، ويخفي الأب وجهه في كتف ابنه، كأنه يمسح دموعا خانته، حتى لا يراها صغيره فيرى

ضعفه، بينما كانت الأم من هناك تبكي لبكاء رجليها، وتحمد الله على أن أعاده إليها، وإلى حضن والده.

أخذ زياد حماما، وأكل بعضا من الطعام، ثم راح يقصّ على والديه حادثة اختفائه كل هذه المدّة ، ليخبرهما أنه تمّ اختطافه من طرف جماعة إرهابية متطرفة، كانت تطالب بالفدية، ولأن الجماعة الإرهابية تعرف أن الجزائر كدولة، ترفض سياستها الرضوخ لطلب الفدية، آثرت أن تكون الاتصالات مع القناة الفرنسية، فكان التعامل يتمّ في سرّية تامة، حتى عن السلطات الجزائرية، وتمّ إخفاء خبر بقائه على قيد الحياة، وخبر طلب الفدية حتى دُفعت، ومن ثمة تمّ تحريره، وقد طلب من مسؤولي القناة أن يُسمح له بالقدوم مباشرة من مكان اختطافه إلى الجزائر، لأنه كان يتصوّر حال والدته على وقع المصيبة، وأنها لن تحتمل خبر وفاته بهذه الطريقة خاصة.

الحقيقة أنه وجدها كما تصوّر وأكثر، واهنة مستلقية على الفراش لا تستطيع الحركة، وكأنها ما عادت راغبة في الحياة من دونه، لكنّه أخفى دهشته للحالة التي وجد عليها والده، لأنه أبدا لم يتوقّع أن يترك خبر وفاته هذا الأثر الكبير الّذي يجده اليوم على والده،

الذي يبدو كأن عمره زاد عشر سنوات أو أكثر أثناء غيابه القصير.

****

في جانب آخر في هذا العالم، دخلت ميلي شقة صوفيا راكضة، متجهة إلى غرفة الصالة تُشّغل التلفاز، على قناة معينة وهي تقول لصديقتها بصوت يقفز فرحا:

ـ زياد حيّ، لقد أعلنت القناة أنه كان مخطوفا وتمّ دفع الفدية.

انتفض جسد صوفيا على وقع الخبر، تحاول استجماع قوّاها التي وهنت منذ سماعها لخبر موته، وراحت تسألها في لهفة عطشان وجد بركة ماء:

ـ زياد حيّ؟ هل الخبر صحيح

ـ أقسم لك الخبر صحيح، انظري

كان الخبر قد نُقل منذ وقت قليل على لسان صحفيٍ من القناة، لكنه الآن كان يمرُّ مكتوبا كشريط يمر على الشاشة.

لم تلحظه صوفيا من شدة ارتباكها وضياعها، بينما تشتد رجفة جسدها:

ـ أين؟ هو لا يقول شيئا عن زياد

ـ لا، انظري إلى المكتوب على الشاشة، لقد نُقل الخبر عندما كنت في شقّتي

اقتربت صوفيا من الشاشة تقرأ الكتابة، التي كانت تمرّ بخطٍ أحمر، وتعيد القراءة لتتأكّد أن الخبر صحيح

ضمّت كفّيها تحت ذقنها وشفتيّها ترتعشان، بينما دموعها تنزل غزيرة وهي تقول في وسط شهقات متقطعة:

ـ إنه حيّ، لم يمت ميلي، إنه حيّ

ضمّتها صديقتها، بينما جسدها كله ينتفض، كأن الحمّى أصابتها، وهي تؤكد على كلامها:

ـ نعم، إنه حيّ حبيبتي

زاد نحيب صوفيا وارتفع صوتها حامدة الله، غير مصدقة أن فقيد قلبها عاد من الموت.

بعدما استفاقت من صدمتها راحت تحاول التفكير في كيفية الاطمئنان عليه، اتصلت بهاتفه النقال لتجده مغلقا، فتوقعت أنه ربما فقده في ذلك اليوم المشؤوم، سكنتها الحيرة كيف يمكنها الوصول إليه؟ ثم مرّ على خاطرها طيف حُزنٍ، عندما أدركت أنه لم يفكر ولا لحظة في الاتصال بها وطمأنتها، كأنها لم تكن يوما في حياته، في النهاية ولأن القلق كان يقتلها، والشوق إلى سماع صوته يأسرها، اتصلت بالقناة التي كان يعمل بها، مترجية إياهم أن يعطوها رقمه منزله في الجزائر، لكن طلبها قوبل بالرفض، وبعد محادثة طويلة حكت فيها أشياء كثيرة للمرأة التي كانت على الخط الآخر، تسمع تفاصيل عن علاقتها وحبها لزياد، رقّ لها حالها وأعطتها رقم منزله في الجزائر.

أسرعت أصابعها تشكّل الرقم، لتسمع صوت امرأة أخرى من هناك، خمّنت أنها والدته، ارتبكت وهي تطلب منها مكالمة زياد لتطمئن عليه، وتوقعت أم زياد أن المتصلة التي يرتجف صوتها في شوق تحاول إخفاءه، وارتباك لم تعرف كيف تداريه، لا يمكن أن تكون إلا زوجة ابنها، وعندما سألتها عن اسمها أجابتها أنها صديقة من فرنسا، فسلّمت الهاتف لابنها وخرجت متيحة له

فرصة التحدث مع زوجته براحة، وهي تتخيل كم كان مشتاقا هو لها؟ وكم كانت يائسة هي من خبر فقدانه؟

جاءها صوته يهزّ كل ذرة في كيانها المشتاق حد الموت:

ـ ألو

ولم يسمع هو إلاّ الصمت وأنفاس متسارعة ليردف:

ـ ألو من معي؟

خرج صوتها ضعيفا مهزوزا، مشتاقا مرتجفا:

ـ ألو

ـ صوفي؟

عرفها، عرف صوتها من كلمة واحدة، استشعرت الفرح وهي تدرك أنه مازال يميّز صوتها من كلمة، وصحا بداخلها الحنين يدغدغ حواسها بلوعة المشتاق:

ـ نعم

صمتٌ ساد من الجانبين، قطعته هي بصوتٍ متلهف:

ـ كيف حالك زياد؟ هل أنت بخير؟

ـ نعم، أنا بخير، شكرا على سؤالك.

كان صوته جافا، قاسيا، كأنه ما رقّ لها يوما، هذا الصوت ليس صوته، صوته كان يزرع دوما الحياة بداخلها، وهذا الصوت بارد، خدّر مشاعرها المهتاجة، وسرق فرحتها، لقد نسي، لم يمت هو، لكن حبها بداخله قد مات.

قطعت صمتها محاوِلة ألا تضعف أمامه:

ـ دائما يا رب، كن بخير دائما.

أقفلت الخط لتضيف على وقع دموعها المتراكضة على وجنتيها:

(من أجلي، حتى لو كنت بعيدا، وناسيا، كن دائما بخير، من أجلي أنا)

وانفجرت باكية بصوت مرتفع، ونحيبُ قلبها يوجعها، بينما ضمّتها ميلي مشفقة على حالتها.

بقيَ هو ينظر إلى سمّاعة الهاتف في يده، يحاول أن يتأكد إن كان هذا الاتصال القصير حقيقيا، أم أنه كان من نسج خياله؟

اشتّد بعدها المرض على صوفيا، حتّى اضطرّ الطبيب إلى حجزها في المستشفى، بينما كانت (ميلي) صديقتها الصدوقة، تهتم بآدم وتزورها كل يوم، آملة في معجزة ربانية، قد تُنقذ رفيقة عمرها، كانت معاناة صوفيا واضحة، لكنّها كانت تتسلّح بالشجاعة، محاولة التظاهر بأنها بخير، لا تشتكِ، وتكتمُ أنينها، تضمُّ طفلها طويلا كلما أحضرته ميلي لزيارتها، تلعب معه، تضحك معه، بينما كلها يبكي في صمت وبدون دموع، كانت تحاول أن تصنع لطفلها ذكريات يخزّنها عندما تغيب عنه، وهي تسأل نفسها أقادر هو على ذلك؟ أيمكن لطفلها المصاب بطيف التوحد أن يحتفظ بذكرياته معها، ويعود إليها متّى اشتاقها؟ لكنها كانت تحاول بغض النظر عن الإجابة، سلبا كانت أم إيجابا، كانت تجاهد لتترك لطفلها ذكريات تؤنسه في غيابها، صورا يتكئ عليها عندما يشتّد به وهج الشوق لحضن أمه، لولا آدم لكانت رحّبت بهذا الموت، الذي سيخلّصها من عذاباتها في حياتها البائسة، الّتي لم تعرف فيها الفرح إلا مرّات قليلة، كان أغلبها تلك الأيام التي تزوجت فيها بزياد، أيامهما الأولى قبل أن ينقلب الحال ويصبح هذا الحب أكبر عذاباتها، وأيام حملها بآدم وولادته، داخلها كان يتألم وتحتاج إلى إخراج هذا الوجع، لكن لا وسيلة

لذلك، وهي غير قادرة حتّى على الشكوى، هي لم تتعلم الشكوى، منذ سنوات وهي تتجرع آلامها في صمت وحدها، دون أن تشتكي لأحد، لكن اليوم هي تحتاج أن تشكو، أن تحكي، في النهاية طلبت من ميلي أن تحضر لها مفكّرة وقلما، وبدأت في خط أوجاعها على صفحات المفكّرة.

(مفكّرتي التعيسة، أعتذر منك لأنني سأطلِق عليك لقب التعيسة وليس السعيدة، أنت ستحملين قصّتي بين صفحاتك، وقصّتي لم تحمل بين طياتها إلاّ الحزن، وفرحٌ بسيط تبدّد مع الوقت، أحتاج أن أفرغ ما في جُعبتي من وجع، فما عدت قادرة على الكتمان، وأنت من ستتحملين عني بعضا منه، فاعذري الوجع الذي سأنثره على أوراقك.

البداية كانت مبكّرة جدا، لكنني اليوم أريد أن أحكيك عن آدم، طفلي الحبيب.

عندما رزقتُ بآدم من زوجي الثاني، كانت فرحتي لا تسعها الأرض، كنت أكلِّم طفلي -وهو جنينٌ في بطني- طيلة الوقت عما سنفعله سويا، انتظرته كما تنتظر الأرض الجافة الغيث، اعتبرته فرصتي في الحياة التي لم أنلها قبله، عندما ولد بكيت أنهارا من

الفرح، أخيرا سيكون لي شخص في هذا العالم، أعني له كل شيء، أحبه دون خوف، وأعطيه دون استثناء، أخيرا شخصٌ لن أكون في حياته مجرد محطّة، يرحل منها متى شاء، ستة أشهر وأنا في عالم من السعادة، أحلم به يكبر ليصبح صديقي، وطفلي ورفيقي، سيصبح لي سندا أتكئ عليه في دنياي، سيكون فرحتي التي لا تنتهي، وسعادتي التي لا تزول، لكنني مع الوقت لاحظت أشياء غريبة عليه، اكتشفت أن آدم يوجه عينيه الاثنتين إلى اتجاه واحد، ولا يحركهما عندما أشير إليه، لا يستجيب عندما أناديه، ظننته مشكل في السمع والنظر، حتى ذهبنا به إلى الطبيب بعد مدّة، والّذي أكد بعد فحصه أنها علامات طيف توحد، لم أفهم ساعتها ما كان يعنيه، وعندما بدأ في شرح الحالة، كان كل ما استوعبته، هو أن طفلي لن يكون يوما طفلا عاديا، وأنه سيبقى مهما تقدّم به العمر، كطفلٍ يحتاج دوما لمن يساعده ويأخذ بيده، صُدمت لدرجة أنني لم أعد قادرة على حمله إلا وبكيت، لم أعد أستطيع اللعب معه كما كنت أفعل، كنت أنظر إليه بخيبة تقتل روحي، عندها اقترح زوجي، أن نضعه في مركز مختص لرعاية من هم في مثل وضعه، أن نتخلى عنه بكل بساطة، بدأت في التفكير أن سعادتي بهذا الطفل كانت سعادة زائفة، كل الأحلام

التي بنيتها معه ومن أجله، لن تكون يوما، كل ما انتظرته منه لن يكون يوما قادرا على إعطائه لي، عشت فترة عصيبة، يوما أقرر أن أتخلى عنه، ويوما أمنع نفسي من ذلك.

بعد وصوله السنة من عمره، قرّرت أن أفعلها، أن أتخلى عن طفلي، كانت علامات الرفض بداخلي تدفعني دفعا للتخلي عنه، لم يكن هذا ما حلمتُ به، ولا ما انتظرته، لم يكن هذا هبة إنما نقمة، أو ربما لعنة، كنت صغيرة أبلغ من العمر عشرون سنة، لكنني عشت ضياعا كبيرا في هذه السنوات القليلة، في تلك الفترة مرِض آدم وأصابته حمّى شديدة، أدخلته المستشفى وبقيت معه هناك، أرى الممرضة تلاعبه وهو يضحك، والطبيب يقلّبه ويحدثه كأنه يفهمه، أنا فقط من كنت أتجنبه، أنظر من بعيد فقط، وأرفض الاقتراب منه، كنت أحاول ألا أتعلق به أكثر، أرفض أن أحبه أكثر، ليسهُل عليّ الفراق.

عندما بدأ يتماثل للشفاء، استيقظ ذات ليلة وبدأ في البكاء، رفض شرب الحليب من قارورة الرضاعة، ورفض السكوت عند الممرضة، هذه الأخيرة أصرّت عليّ أن أرضعه، بكاؤه كان يمزّق نياط قلبي، لكنني كنت أصارع بداخلي خوفا من هذا المجهول، الذي لا أعرف كيف أتعامل معه، وصدمة من هذا

الطفل الذي لا يشبه أمنياتي، لكنني استسلمت في النهاية، ربما خجلا من الممرضة التي كانت تلح عليّ، وربما لأن قلبي رقّ له، وأخذته منها، ما إن قرّبته منّي حتى فتح فمه وبدأ يرضع من صدري، وعندما شبع نام بين يديّ، بقيت أنظر إليه في هذا الهدوء، بعد أن خرجت الممرضة وتركتنا وحدنا، كان ملاكا بوجهه الأبيض، وحمرة خديه، شعره الأسود الناعم يزيده جمالا وبراءة، ضممته إليّ برفق خشية أن أوقظه، تسربت رائحته إلى داخل روحي، وأحسست بقلبي ينتفض ثم يستكين ودا وحبا له، وعرفت ساعتها أنني لن أستطيع التخلي عنه مهما حدث، أدركت أنني تعلقت به وانتهى الأمر، أنني أحببته رغم أنه لا يشبه باقي الأطفال، قضيت الليل أتأمله وأفكّر في القادم، كان ابني يختلف عن الأطفال الآخرين، ولكنني طالما كنت صبية ثم امرأة تختلف عن الآخرين، عانيت من الرفض ومن التخلي، ولن أجعل ابني يعاني من ذلك، بذنب لا يد له فيه، عرفت أنه سيحتاجني طيلة حياته، وقررت أن أكون موجودة طوال عمره، حلمت أن يكون سندي، ولكن لم أعد أمانع أن أكون أنا سنده.

لكن الأمر لم يكن بتلك السهولة، عندما أبلغت زوجي برغبتي في الاحتفاظ بالطفل، خيّرني بينه وبين ابني، فاخترت آدم دون أي

تردد، طلقني ومضى، تاركا إياي مع طفل لا أعرف كيف أتعامل معه، وانقطعت عني أخباره بعدها.

كلما كان آدم يكبر قليلا، كلما زادت متاعبه، كان يدخل في نوبات بكاء أو صراخ تفقدني عقلي، فلا أجد إلا البكاء أنا أيضا، كنا نشبه طفلين تائهين، عندما كنا نخرج معا، كانت أدنى حركة أو أدنى صوت من حوله يدخله في حالة غريبة من الضياع، إما يبدأ بالصراخ أو محاولة الهرب من يدي التي تمسك به بقوة، وكانت نظرات الناس تلتف حولي على اختلافها، بعضها تشتكي عدم قدرتي على السيطرة على طفلي، وبعضها عدم القدرة على تربية ابني تربية مناسبة، والبعض الآخر كان ينظر إليّ وكأنني أنا من آذيته، وتسببت في حالة البكاء الرهيبة تلك، ونظرات قليلة كانت تحاوطني بشفقة صامتة، لم أكن أحتاجها ولم تكن تساعدني في شيء، وبين كل هذا وذاك كنت أنا أضيع من نفسي، وأفقد قدرتي على مواصلة الطريق.

عندما بلغ آدم السنتين من عمره، كان الكأس قد فاض بي، ولم أعد قادرة على التحمل أكثر، كنت قد ظنّنت قبلا أن الأمر سيتحسن مع الوقت، لكن الأمور كانت تزداد سوءا، وحدي لم أكن قادرة على الفهم، لم أكن أستطيع السيطرة على الأمور التي

كانت تنفلت من بين يديّ، كنت أفقد عقلي، وخفت أحيانا أن تصل حالة فقدان السيطرة عندي إلى قتله أو خنقه، أعلم أن الأمر يجعلني أبدو امرأة قاسية وشريرة، لكنني لم أكن في حالة طبيعية، عندما يشتّد الضغط كانت أعصابي تنفلت مني ولا أعود قادرة على إدراك تصرفاتي، كنت أعاني في صمت، ولا أجد حتّى من يساعدني، كنت وحيدة بدون أم بجانبي ألجأ إليها، (ميلي) كانت حاضرة دائما في حياتي، لكن حتى هي لم تكن تفهم ما يجب فعله، آدم لم يكن يشبه أيا من الأطفال الذين حولنا، ولم تكن هي قادرة حينها حتى على تقديم النصيحة، وصل الأمر بي إلى أنني تمنيت الموت حتى أرتاح من هذا العذاب، وعندما كنت أعود إلى رشدي، أفكر أن طفلي سيضيع بدوني، وأنا في قمة ضياعي تذكّرت كلام جدتي (إذا أغلقت في وجهك أبواب الأرض، فاطرقي باب السماء، فإن بها ملكا لا يردُّ عنده أحد)

أردت أن أصعد إلى السماء، أن أطرق هذا الباب، أن أعثر على طريق توصلني لهذا الملك، لكنني لم أعرف كيف وأين؟ تذكّرت أن جدتي كانت تصلي، وتدعو الله في صلواتها، وتذكّرت أن الله عند المسلمين يُعبد في المساجد، فذهبت إليه، في النهاية كنت أنا مسلمة حتى لو حِدتُ عن الطريق، لكنني لم أكن أعرف ربا

سواه، أردت أن ألقاه، فإما أن يقبلني، وإما يردّني، لكنني عندما دخلت المسجد لم أجده، وجدت رجلا هناك قيل لي أنه الإمام، عندما سألته (أين أجد الله) قال: (في قلبك)

فاجأتني الإجابة كيف يكون الله في قلبي، وأنا أضيع هكذا؟ لماذا لا يمدّ لي يد العون وهو يرى ضياعي؟ كيف يكون بهذا القرب وأنا لا أجده؟

طلب مني الإمام أن أقصّ عليه حكايتي، بكيت يومها وأنا أقصّ عليه قصّة طفلي، سألته (لماذا يعاقبني الله بطفل مريض؟ ألأنه غاضب مني؟) فأخبرني يومها (أن الله لا يغضب من عباده ولا ينتقم منهم، الله يدعو عباده ليعودوا إليه وينتظرهم مهما طالت بهم طريق العودة)

أتذكّر أنه تلا عليّ حديثا لا أحفظه ولكن معناه قول الله أن العبد إذا تقرّب منه شبرا تقرّب منه ذراعا، وإذا تقرّب منه ذراعا تقرّب الله منه باعا، وإن أتاه يمشي أتاه الله هرولة.

ثم تلا عليّ آيات شرح معناها لي، أن الله إذا أحب عبدا ابتلاه، وأن الله لا يبتلي إلا من يراه قادرا على الصبر، وأنه بابتلائه يعيد عبده إليه، وأن الصبر عند الله جزاؤه الجنة.

لم أفهم يومها الكثير مما كان يحكيه لي، لكن كلامه أراحني، وقد فهمت منه أهم ما كنت أبحث عنه، أن آدم كان عطيّتي من السماء، وأن الله لا يعاقبني به، نصحني الشيخ أن أزور طبيبا مختصا في مرض التوحد وقد كان على دراية بقصص تشبه قصّتي، وحالات تشبه معاناتي مع عدم الفهم، فقصدت طبيبا شرح لي حالة آدم بإيضاح، قال لي أن أطفال التوحد لديهم حساسية شديدة اتجاه الضوء والصوت، أي أنهم يحسّون بالضوء والصوت أضعاف ما نحس به نحن، لذا فالحل كان أن أتفادى الضوء الكثير والأصوات العالية، والأماكن المزدحمة قدر الإمكان، بدأت مع الطبيب المختص علاجا خاصا لآدم، اتبعت فيه نظاما خاصا لحياته يتلاءم مع حالته، وشدّد على نظام غذائي خاص، أدخلته إلى مركز متخصص بمرضى التوحد، وبعدها بسنتين بدأ ممارسة الرياضة، وقبلها زرت أنا طبيبا نفسيا ساعدني على فهم شعور الرفض، الذي كان بداخلي، وعلى تفهّم اختلاف آدم، اليوم آدم هو أغلى ما أملك في الحياة، أحبه حبا لم أكن أتخيل حين اكتشفت مرضه أنني يمكن أن أحبه له، أحبه باختلافه، وأتقبّله كما هو، مع آدم جربت شعورا جديدا لم أعرفه من قبل، عندما أدركت أنه قطعة مني.

تقبّلت فكرة أن آدم لن يصبح يوما شابا، يشبه أغلب الشباب، لكنه سيكون أحسن ما يمكن أن يكون، لأنني لن أتوانى عن تقديم الدعم الذي يحتاجه، وسأكون دائما حاضرة بحياته، سأكون دوما رفيقته وأمه وسنده، تقبّلت فكرة ألا أنتظر منه الدارج والمعقول، ولكنني عرفت أنه سيفاجئني في كل مرّة، وكنت مستعدة للفرح بما سيقدّر عليه وإن صغُر.

لم يتمكن آدم من المشي إلا بعمر الرابعة، لكنه على الأقل يستطيع أن يتحرك، ويوما ما سيتمكن من الاعتناء بنفسه، لم أعد أقارن بينه وبين من هم في سنّه، سواء كانوا أطفالا أصحاء أو مرضى، كل تطور في حالته هو انجاز لي وله، وهذا ساعدني على المضي معه قدما، تقبلته وأحببته على اختلافه.

بعد العلاج، بدأت حالة آدم تتقدم، بدأ الكلام متأخرا في سنّ الخامسة، بتأتأة، لكن ذلك في عينيّ كان إنجازا كبيرا، أن يستطيع أن يُعبّر عن حاله، أن يطلب ما يريده، كانت تلك نعمة كبيرة)

ارتسمت ابتسامة ذابلة على وجه صوفيا، وهي تعود بذكرياتها لما مضى من رحلتها مع طفلها، وتواصل البوح لمفكرتها

(أتذكّر أول مرّة نطق فيها، قال ماما، أول كلمة كانت ماما، بدأت أضحك وأبكي في نفس الوقت، وأنا أطلب منه إعادتها، أردت أن أتصل بأي شخص لأخبره أن آدم نطق، وبدأ الكلام، كانت ميلي وقتها مسافرة، وعندما اتصلت بها كان هاتفها مغلقا، في النهاية اتصلت بطبيبه، وأخبرته وأنا أبكي أن ابني قال لي ماما، بدأ الطبيب يضحك ويبارك لي، وهو يتوقع أن دموعي كانت دموع فرح، لكنه لم يكن يعلم أنها كانت فرحا ممزوجا بالألم، ألم الإحساس بالوحدة، عندما تفرح، ولا تجد حتى من يفرح معك، أو لأجلك، ألم الإحساس بأنني لا أملك إلا ابني، وأن طفلي ليس له في الدنيا سواي)

دخل الطبيب ليفحص صوفي، فتوقفت عن الكتابة والبوح، وأغلقت مفكّرتها:

ـ كيف حال بطلتنا؟

رسمت صوفيا ابتسامة مزيفة على شفتيها، وهي تحاول أن تبدو بخير كما فعلت طيلة حياتها:

ـ أنا بخير دكتور.

الفصل السابع عشر:

(تجارب نووية)

الآن تسألني عن حالي يا كل حالي،

كيف يكون حالي وقد مضيّتَ وتركتني وحالي؟

عاد زياد من مقر الجمعية، بعد أن أوصله صديقه مراد لبيته، كان مستلقيا يقلّب الأوراق المتناثرة على سريره، عندما دخل عليه والده ليستقيم جالسا وهو يسمع سؤاله:

ـ ما الذي تفعله بني؟

رفع رأسه وهو يجيبه:

ـ أراجع الوثائق الخاصة بقضية الجرائم النووية الفرنسية في الجزائر

ـ هل عدت للعمل مع الجمعية؟

ـ نعم أبي، اتصلت بهم معربا عن رغبتي في العودة، وقد رحبوا بذلك، مراد مهد لي طريق العودة للعمل معهم

ـ وما الجديد في الملف؟

ـ ظهور وثائق مهمة جدا تخص هذا الملف، والجمعية وصلتها نسخ منها، وُضعت هذه الوثائق على الإنترنت لمدّة عشر دقائق ثم تمّ مسحها، ولحسن الحظ أن المحامين العاملين معنا في فرنسا نسخوها قبل سحبها، وأرسلوا نسخة منها لمحامية ضمن الفريق الجزائري، المكلف بالعمل على الملف الدولي.

جلس الأب بجانب ابنه مستفسرا، وقد أدرك أهمية الحدث:

ـ ألا يبدو الأمر غريبا، أن توضع وثائق مهمة كهذه سعت الجزائر سنوات طويلة للحصول عليها، ثم تسحب في ظرف وجيز كهذا؟

ـ بلى، ولا نعلم من وضعها، يمكن أن يكون خطئا إداريا من المسؤولين عن الأرشيف الجزائري في فرنسا، أو ربما شخص متضامن مع قضيتنا، أراد إيصالها لنا دون أن يفضح عن اسمه.

ـ وماذا تحمل هذه الوثائق؟

ـ الوثائق تحمل تصريحات وأسماء عائلات كانت تسكن في منطقة (رقان) التي أجرت فيها فرنسا تجاربها النووية في الصحراء الجزائرية، هذا سيمكننا من تفنيّد ادعاءات فرنسا بأن المنطقة لم يكن فيها سكان، كما أن الوثائق تتضمن اعتراف أحد حارسي السجن الفرنسيين أنه تم إخراج مئة وخمسين سجينا، ونقلهم إلى منطقة التجارب النووية وأنهم لم يعودوا أبدا.

ـ هذا يدعم ادعاء الجزائر الدائم، بأن فرنسا كانت تستعمل أيضا المساجين الجزائريين، كفئران تجارب في تفجيراتها النووية في صحراء الجزائر بعد تعليقهم كأعمدة، أليس كذلك؟

فيرد زياد مفسرا:

ـ فعلا، الاعتراف بمئة وخمسون، قد يؤدي إلى التحقيق في ما صرّح به الباحث الفرنسي المتخصص في التجارب النووية (برينو باريلو) أن فرنسا استخدمت اثنان وأربعون ألف جزائري كفئران تجارب في تفجيراتها النووية.

فيؤكد والده:

ـ وقد يوصّل الجزائر أخيرا إلى حصولها على مطالبها، بإلزام فرنسا بتعويض ضحايا هذه التجارب وذويهم، وإلزامها بتنظيف المنطقة من الإشعاع النووي المستمر لسنوات طويلة، وجمع نفاياتها النووية، التي دفنتها في الرمال الجزائرية.

أردف زياد بتأثر واضح:

ـ المشكلة أن تأثير هذه التجارب مازال مستمرا إلى اليوم وسيدوم لآلاف السنين، كل العائلات هناك مازال أطفالها يولدون بتشوهات جسدية أو عقلية، نتيجة انتشار اليورانيوم الذي تبقى آثاره لأكثر من أربعة وعشرين ألف سنّة، والبلوتونيوم الذي تستمر آثاره إلى أكثر من أربعة مليار سنة، الأمر مازال صعبا، ولا ننتظر من فرنسا أن تعترف بهذه السهولة، لكن على الأقل هذا يجعل ملف الجزائر، مؤسسا لقضية تحميل فرنسا نتائج أفعالها، واعتبارها جريمة ضد الإنسانية، حسب القوانين الدولية ومنظمات حقوق الإنسان.

ـ صدقت بني، فرنسا تماطل وتقدم تصريحات غير صحيحة، تدعي أن تجاربها كانت بسيطة، بينما تأثير قنبلتها الأولى فقط كان أضعف بخمسين مرّة من تأثير قنبلة هيروشيما

ـ الوثائق الجديدة قد تسرع وثيرة القضية وإلزام فرنسا بالاعتراف

فيرد الوالد:

ـ هذه أخبار سارة، أتركك تكمل عملك إذن

سار الأب بضع خطواتٍ، ثم توقف ينظر إلى ابنه وكأنه تذكّر كلاما يقف الآن على حافة شفتيه، لاحظ زياد ذلك فسأله مشجعا إياه على التصريح:

ـ ماذا هناك أبي؟ أفصح

عندها قال والده بصوت بدا متأثرا:

ـ بنيّ، زوجتك في المستشفى

اتسعت عينا زياد وقد سكنه القلق، وبقدر ما أرعبه الخبر، بقدر ما فاجأه أن والده ينقله إليه بنفسه فسأله:

ـ ما بها؟

ـ لقد تمّ إخباري أنها في المستشفى منذ مدّة، ويبدو أن حالتها صعبة، إنها تعاني من تليّف كبدي، وحالتها متقدمة

أغمض زياد عينيه متألما، وجفناه يحتضنان صورتها، بينما قلبه ينبض بسرعة رهيبة، وهو يسأل نفسه متى، وكيف حدث هذا؟ ليفتحهما من جديد عندما سمع صوت والده يفاجئه أكثر وهو يقول له:

ـ نحن رجال لا نترك نساءنا عندما يحتجنّ إلينا، سافر إلى زوجتك وكن بجانبها

توقف الرجل قبل خروجه من الغرفة، ثم استدار مردفا:

ـ ولا تعد إلى هنا إلا برفقتها، لا يصحّ أن تعيش أنت في بلد، وزوجتك في بلد آخر، في هذه الفترة أعتقد أنه بإمكانك متابعة القضيّة مع الجمعية من هناك، عن طريق الانترنت.

ثم تركه مغادرا الغرفة.

بقي زياد ساهما، يحاول استيعاب ما سمعه، ثم اتسعت شفتاه بابتسامة حزينة وهو يردّد في نفسه (الآن يا والدي، بعدما ضاع كل شيء، ماذا لو علمت أنني طلقتها، ولم تعد زوجتي)

كان القلق يقتله، لكنه غير قادر على التحرك، منذ يومين وهو يقلّب الأمر في عقله، خلال متابعته لملف الجرائم النووية الفرنسية في الجزائر مع باقي أعضاء الجمعية، كان يفكر ما الذي يستطيع فعله وهو لم يعد زوجها؟ وما بينهما انتهى منذ مدّة طويلة، لكن صوتا بداخله هزه مرددا، هل انتهى فعلا أم أنك تكذب على نفسك؟ أمات حبها داخل قلبك رغم أنها تزورك كل

ليلة في أحلامك؟ هل انتهى كل شيء وطيفها لا يغادر خيالك؟ كيف يموت الحب، والقلب مازال يئن من وجعه وحنينه للمحبوب؟ كيف انتهى وصوتها مازال يتردد بداخلك؟ حتى أنك أحيانا تلتفت ملبيا نداءها، لتدرك بخيبة قاتلة أنها ليست هنا، أو أنك لست هناك، حتّى لو كان حبها هي انتهى ونسيتك، لكنها بحاجة إليك، هي لا تملك قريبا سوى صديقتها ميلي، وهما في النهاية امرأتان، لا بد أنهما بحاجة إلى رجل معهما.

أقنع نفسه بتلك الفكرة الأخيرة مستبعدا وجود زوج ميلي، مؤكدا لنفسه أنه في النهاية رجل غريب عن صوفيا، وأن هذه الأخيرة لن تسمح له بالتوغل في حياتها، مهما كانت قرابته من صديقتها، لا يعلم حقيقة الأمر هناك عندها، لكنه كان يحاول إيجاد سببٍ يكذب به على نفسه، يقنعها أنه سيمضي فقط لمدّ يد العون ثم يعود.

قدّم تقريره للجمعية حول المستجدات الطارئة والوثائق الجديدة التي وصلت، واستقر الأمر والاتفاق على مواصلة العمل مع فريق المحامين الجزائريين، المدافعين عن القضية في إطار الدفاع عن حقوق الإنسان، ومن بينهم صديق عمره مراد الذي

سيكون على اتصال دائم به ليعلمه بكل ما سيستجد، وبعدها سافر إليها.

****

كانت تمسك قلمها، ومفكّرتها التي امتلأ نصفها وتكتب:

(كنت أشعر بالوهن والضعف، وبدأت أعاني من ارتفاع ضغط الدم، وأحيانا ارتفاع السكر في دمي، نصحني الطبيب بإجراء فحوصات ضرورية، لكنني أهملت الأمر، مع الوقت الذي كنت أقضيه في متابعة آدم، والسنة العجيبة التي مرّت عليّ بدخول زياد إلى حياتي، تهاونت في الأمر، ومع كل تلك المشاكل التي حدثت بيننا، نسيت أن أفعل، أو ربما تناسيت، كان زياد رجلا يريد امرأة عادية، وكنت امرأة تعيش بجراحات كبيرة، أفقدتها الثّقة في الرجال، وفي كل الناس، عندما اقتحم حياتي، أردت أن أؤمن من جديد، حاولت أن أؤمن به، لكنني كنت بحاجة إلى الوقت، وهو كان مستعجلا، هو كان عاجزا عن انتظاري، وأنا كنت عاجزة عن التسلّيم له، أنا كنت امرأة مجروحة من كل رجل قابلته قبله في حياتي، ورغم ذلك كنت مازلت أحاول معه هو

فقط، بعد طلاقي من زوجي الثاني، تعرفت على عادل، كان رجلا يكبرني بخمسة عشر سنة، ارتبطت به وتمّت خطبتنا، حضرّنا لزواجنا بسرعة فائقة، كنت مازلت أبحث عن سند يعينني في هذه الحياة، ووعدني هو أن يعتني معي بآدم، وثقت به ومضيت معه في تحضير زواجنا، إلى أن جاء ذلك اليوم الذي قُتلتُ فيه ومات فيّ كل شيء عندما رأيته، ورأيتها، لقد قتلتني بخنجر خيانتها وغدرها، هي التي كان من المفروض أن...)

رفعت رأسها على صوت داعب سمعها، لتراه واقفا أمامها، لا تدرك يقينا إن كانت استحضرت طيفه في خيالها، لكنه يبدو حقيقيا بشكل غريب.

دخل هو الغرفة، حيث كانت روحه مستلقية على السرير، تستقبل روحها هي.

وقف مذهولا لرؤية شكلها الذي هزّه وآلمه، والوهن الظاهر عليها، بينما بقيت هي تنظر إليه، غير مصدقة أنه هنا، اقترب من سريرها متأملا وجهها في صمت، ثم قال بصوت خافت يحاول مداراة تأثره ودهشته:

ـ كيف حالك صوفي؟

بقيت لوهلة، تحاول أن تستوعب إن كان هذا صوته فعلا

(الآن تسألني عن حالي يا كل حالي، كيف يكون حالي وقد مضيّتَ وتركتني وحالي)

ردّت بصدمتها:

ـ أنا بخير

بقيا ينظران إلى بعضهما في صمت، قطعته هي أخيرا:

ـ ماذا تفعل هنا؟

ـ جئت لزيارتك

ابتسمت بحزن وهي تجيبه:

ـ لست بحاجة إلى شفقتك زياد، واصل حياتك كما كنت تفعل، وشكرا على زيارتك

نظر إليها بأسف، غير قادر على البوح بمكنوناته ثم قال أخيرا:

ـ تمنياتي لك بالشفاء صوفي

عندما لم يجد ردّا منها استدار، وخرج ليجلس على أقرب كرسي وجده، غارسا رأسه وسط كفيه، يتنفس بصعوبة، حبيبته مريضة، المرض هدّها، وأضعف جسدها، حبيبته بين الحياة والموت، وهو غير قادر حتى على إخبارها، أنه جاء من الجزائر إلى هنا من أجلها، ليكون بقربها، أنه اشتاقها حد الموت، إلى أي حد لا تبالي به هذه الحبيبة القاسية، التي لم تشعر يوما بحجم حبه الكبير لها؟

احتضنت هي مفكّرتها، وانخرطت في بكاء صامت مرير، ما الذي جاء به بعد أن اعتادت فكرة فقده؟ لا تريده أن يكون حاضرا في لحظات ضعفها القادمة، عندما يشتدّ المرض أكثر، لا تريده حتى أن يكون حاضرا عندما تداهمها المنية، تريد أن تبقى قوية في خياله، حتى إذا تذكّرها يوما، لم يشفق عليها، لا تريد أن يكون آخر ما تأخذه معها منه شفقته عليها، أهون عليها أن تبقى صورته وهو يقسو عليها آخر مرّة التقيا، من صورته يشفق عليها، هي لم تحتج يوما لشفقته حتى تقبلها اليوم، كل ما احتاجته هو حبه، وأن يمنحها بعض الوقت، وهو بخل عليها بذلك، فليعد من حيث أتى، وليتركها ترحل بسلام.

قام من مجلسه باحثا عن الطبيب، الذي شرح له حالة صوفي المتأخرة، بعدما علم أنه زوجها، شكّ الطبيب بدايةً في تصريحات

زياد، خاصة وأن صوفي أخبرته أنها لا تملك عائلة سوى طفلها المريض، لكنه أخرج من جيبه شهادة عقد قرانهما، الّذي تمّ على الباخرة، وسُجل في القنصلية، والّتي أحضرها معه تحسّبا لأي ظرف، وأقنع الطبيب أن صوفي غاضبة منه، لكنه سيصالحها بعدما أعلمه الطبيب أن صوفي أخبرته أنها ليست متزوجة، لم يكن أحد يعرف أنه طلّقها سواهما وميلي، الطلاق لم يكن موثقا، هي ليست زوجته أمام الله، لكنه لن يتوانى عن استعمال هذه الكذبة الصغيرة، كذبة أنه زوجها، من أجل مساعدتها، أخبر الطبيب أنهما كانا على خصام، ولم يكن يعرف بمرضها، لكنه عاد ولن يتركها تواجه هذا المرض وحدها.

عندما خرج من عند الطبيب، اصطدم بميلي، التي كانت تحمل آدم، هذا الأخير قفز يعانقه بمجرد تعرّفه عليه، وهو يناديه بفرح:

- زيدو

ابتسم زياد للفتى الصغير وهو يضمّه، ويسأله عن حاله

- كيف حالك أيها البطل

لكن آدم لم يرد، بل راح يضمّ رأس زياد بذراعيه الصغيرتين، وهو يضحك ويردد اسمه، اتسعت ابتسامة زياد وهو يخفي تأثره ويقول:

ـ اشتقت لك يا بطل، هل اشتقت أنت إليّ

سحب الطفل رأسه، ينظر إلى زياد ويقول مبتلعا الحرف الأول من الكلمة:

ـ وحشتك

لا يعلم لحظتها زياد كيف استطاع أن يتمالك نفسه ليبقى واقفا على قدميه، وهو يدرك أن حبيبة قلبه علّمت طفلها كلمته الأثيرة التي كان يقولها لها بلهجته هو، (توحشتك) يا ترى هل كانت تستعملها لتتذكّره هو؟ هل نسيته فعلا أم أنها تشتاقه كما يشتاقها؟

ضمّ الفتى من جديد وهو يشتم رائحته علّه يجد فيها بعضا من رائحتها هي، وهو يطلق العنان أخيرا لمشاعره وكلماته، لاغيا حرف (الكاف) كأنه يجمع بين شوقه لآدم وشوقه لأم آدم:

ـ وانا توحشت بزاف بزاف بزاف

(وأنا اشتقت جدا، جدا، جدا)

كانت ميلي تنظر إليه، مستغربة تواجده هنا، قبل دخولها إلى صوفيا، طلب منها زياد الجلوس معه في كافتريا المستشفى، للتحدث قليلا، وعرّف منها أن حالة صوفي النفسية سيئة جدا، رغم أنها تحاول أن تبدو متماسكة، أعلمته أنها حرّرت لها وصية لتتكفل بابنها آدم، وأوصتها أن تعتني بطفلها، لأنها باتت واثقة أن ساعتها اقتربت، أعلمته بكلمات حزينة، أن صوفي أوصتها أن تدفنها على طريقة المسلمين، وأنها قابلت إماما وأعلمته أنها لا تملك أحدا غير صديقتها ميلي التي ستأتي إليه عندما تحين ساعتها، ليساعدها على دفنها في مقبرة المسلمين.

شعر زياد وهو يسمه كلماتها أن روحه تعتصر ألما على صوفي التي عاشت وحيدة وتريد أن ترحل وحيدة، استجمع رباطة جأشه، واستفسر عن وجود أي متبرع في الأفق، لكن ميلي أكدت ما سمعه من الطبيب، بأن القائمة طويلة وفرص التبرع قليلة.

انصرف زياد، ليقضي ليلته يتقلّب في الجحيم، مفكرا أن حبيبة عمره، يمكن أن تموت بين أية لحظة وأخرى، وهو عاجز حتى عن الوقوف بجانبها، مرّت عليه ساعات الليل طويلة، وقد استيقظ

الحنين بداخله، لأيام كان يضمّها في حضنه وينام هانئا بقربها، واليوم ها هو يصارع شوقه إليها، ولا يمكنه حتى زيارتها أو السؤال عليها.

في الصباح، اتجه إلى المستشفى، وقد عزم على إتمام الأمر الذي استقر تفكيره عليه، حتّى لو كلفه حياته، بعدما قضى الليلة يفكّر كيف يساعدها ولو من بعيد؟ في مكتب الطبيب أكّد له هذا الأخير أن الأمر ممكنا وأنه سيعمل على اتخاذ الإجراءات المناسبة لذلك، لكن على الشروط أن تكون متوافقة، وإلا فلا إمكانية لذلك.

الفصل الثامن عشر

(المكاشفة)

كانت تعلم أن أذيتك من بين كل من آذوها قبلك،

كانت ستكون قاتلة، وإن كانت وقفت بعد كل خيبة،

فخيبتها فيك ستُقعدها طريحة الخذلان إلى الأبد

قام زياد بإجراء الفحوصات اللاّزمة، ولأن زوجته كانت تحمل زمرة دم عادية وشائعة مثله، اتفقت الزمرتان، وبدأ الطبيب في إجراء التحاليل، كان من الضروري أن يكون المتبرع يتمتع بصحة جيدة، ولياقة بدنية عالية، وذلك ما لم يكن ينقص زياد، فقد عاش حياته في ترف ورفاهية، لا يدخن ولا يشرب الكحول، ويمارس الرياضة بانتظام.

طلب زياد من الطبيب طلبا واحدا، هو ألا يخبر زوجته أنه المتبرع، وأن يخبرها أن المتبرع فقد ابنه فجأة، وقرّر التبرع بأعضائه لمن هو بأشد الحاجة إليها، وبما أنها تدخل ضمن الحالات الأكثر حرجا واستعجالا، وأن الطبيب اقترح اسمها.

استغرب الطبيب هذا الطلب، لكن زياد أقنعه أنه سيراضي زوجته بعد نجاح العملية، وسيخبرها الحقيقة، لم يتوقف الطبيب طويلا عند هذا الأمر، فالمهم عنده هو إنقاذ مريضته، وفي كل الأحوال هو كان سيقبل بأي متبرع، فلم لا يكون زياد؟ وبعدها فليتفق الزوجان معا.

عندما نقل الطبيب الخبر إلى صوفيا، لم تصدّق أن الحظّ يبتسم لها أخيرا لمرّة واحدة في حياتها البائسة، ولأجل ابنها آدم، تمسكت بهذه الفرصة، ورغبت بالعودة إلى الحياة بشدّة.

عادت ميلي لزيارة صوفي مرّة أخرى، بعدما سمعت خبر وجود متبرع، وهي في غاية السعادة من أجل صديقتها، بعد مغادرتها غرفة صوفيا، اصطدمت مجددا بزياد خارجا من غرفة التحاليل، سألته عن سبب وجوده هناك، فارتبك واختلطت كلماته، ساورها الشك وهي ترى ارتباكه، وبقيت تنظر إليه، ثم قالت فجأة وكأن الأمر اتضح لها أخيرا بعد تعجبها السابق، من ظهور هذا المتبرع المجهول فجأة:

ـ أنت هو الشخص الذي سيتبرع لصوفي بجزء من كبده؟

صمت زياد غير قادر على الكذب، لتستنتج من سكوته، أنها كانت محقة في تخمينها، وتفاجأها كلماته بعدها:

ـ لا تخبريها أرجوك

اتسعت عيناها دهشة، وهي لا تفهم هذا التصرف الغريب منه:

ـ لماذا؟

ـ لأن ذلك لن يغير شيئا، كل ما بيننا انتهى، وأنا سأخرج من حياتها، بعد أن أطمئن عليها، ولا أريدها أن تعرف أنني المتبرع.

ارتسمت على وجهها علامات التعجب وهي تسأله:
ـ هل تتحدث بجدية؟ لقد جئت من الجزائر إلى فرنسا لتتبرع لها بنصف كبدك، وتريدني أن أصدق أن ما بينكما انتهى؟

أجابها بصوت متحسّر، خرجت كلماته ثملة لتفضح حاله:
ـ لطالما كنت أنا العاشق في هذه العلاقة، وكانت هي الجارح.

علا صوتها تدافع عن صديقتها، مستغربة غباء الرجال:
ـ الأمر بدا لك هكذا لأنك لم تحاول فهمها، صوفي امرأة لم تتعلم كيف تعبر عن مشاعرها، تاهت بين أربعة رجال، كل واحد منهم أورثها عقدا لا تعدّ ولا تحصى، حتى كرهت جنس الرجال، لكنها سلّمت لك وحدك، خانها أقرب الناس إليها، حتى توارت بحياتها وبمشاعرها عن جميع البشر، وعندما وقعت في حبك، تناست كل من مرَّ قبلك، لكنك لم تعطها الوقت الكافي، لتتعلم الثقة بك وبمشاعرها من جديد، هي كانت خائفة، تصارع أشباح ماضيها، بدءا بوالدها، مرورا بزوجيها، وصولا إلى خطيبها، لكنك تسرّعت الأمور، مطالبا إياها بالمجازفة معك، وهي كانت خائفة،

خائفة من خذلان جديد، قد يحطمها ويحطم طفلها معها، رغم أنها كانت قد جازفت فعلا بزواجها منك.

صمتت وهي تأخذ نفسا طويلا ثم أضافت:

ـ صوفي أحبتك بشكل خلق بداخلها الخوف الشديد من أن تؤذيها، لأنها كانت تعلم أن أذيتك من بين كل من آذوها قبلك، كانت ستكون قاتلة، وإن كانت وقفت بعد كل خيبة، فخيبتها فيك ستقعدها طريحة الخذلان إلى الأبد.

سألها وقد تذكّر ذلك الرجل، الذي ألقى على مسامعه خبر هروبها منه، أسبوعا قبل زفافها:

ـ لماذا فسخت خطبتها أسبوعا قبل الزفاف؟

ـ هذا كل ما همك من كل كلامي؟

صمت قليلا يسترجع صدمته من تلك الحقيقة الّتي أخفتها عنه، كانت كذبة أخرى، جعلته يسقط في جحيم الشك، ويتساءل في هلع، إلى متى سيبقى يعيش معها في هذا الشك؟ كل مرّة يكتشف كذبة جديدة في حياته معها، لكنه برغم كل شيء أجاب مؤكدا:

ـ هذا الحب قد مات، قتلته ظروفنا المعقدة ولم يبق منه شيء

فغرت فمها متعجبة وهي تقول:

ـ زياد، هل تصدّق هذا الهراء الذي تفوهت به، أنت هنا تتبرع لها بجزء من كبدك، وهي هناك تكاد تموت حسرة مذ هجرتها، بعد أن فقدت أي معنى لحياتها بعدك، وتخبرني أنه مات، أنا كنت حاضرة ورأيتها عندما كادت تفقد عقلها، حين ظنّت أنك متَّ في ذلك الحادث، وتريد إقناعي أن حبكما انتهى

تنهد في حسرة مكابرا، وخيبته فيها مازالت تسكنه:

ـ صوفي لم تستطع يوما أن تحبني، برغم أنني قدمت لها كل ما امتلكه من عاطفة، وبرغم أني تركت عالمي كله وعائلتي من أجلها، إلا أنها لم تستطع أن تمنحني حبها

أجابته محاولة كظم غيظها والسيطرة على رغبتها في الصراخ به:

ـ صوفي لم تحب في حياتها رجلا كما أحبتك، لقد أغلقت أبواب قلبها لسنوات طويلة، وسيّجت أسوارا عالية تحيط بها، ولكنها أمامك هدّمت سياجها بيديها، وفتحت لك أبواب قلبها، وأدخلتك

حياتها، لكنك لم تمنحها الوقت الكافي لتعلي بناء الثقة عندها من جديد.

مازال شيء بداخله يكابر، ربما يخاف أن يصدّق، وربما لا يريد أن يزرع بداخله أملا جديدا مصيره الخيبة:

ـ صوفيا لم تتمسك بي، في كل مرّة كنت أنا المبادر، بينما كانت هي لا تبالي

ـ بل كانت تبالي، صدّقني كانت تبالي، لكنها كانت خائفة، صوفي عرفت قبلك أذى كبيرا في حياتها، معك أنت بدأت تشفى، كأي مريض، كانت تحتاج لبعض الوقت لتستعيد ثقتها بالحب، معك أنت بدأت تستشعر الأمان الذي فقدته طيلة حياتها، لكنك هدّمت كل شيء، هل تدرك حجم الشجاعة التي احتاجتها صوفي، عندما استدعتك لبيت صديقتي وقد ارتدت لك لباسا فاتنا، لتغريك بالعودة إليها؟ أتعرف كم تحتاج امرأة منبوذة، من القوّة لتطلب من حبيبها أن يعيدها إليه؟ كان ذلك أكثر ما يمكنها تقديمه لك، هي المرأة التي عاهدت نفسها أن لا تحب رجلا آخر، أن لا تضعف ولا ترضخ في حياتها لمشاعرها، جاءتك مستسلمة، واثقة أنك لن تكسرها، لكنك فعلت، حطّمت أنوثتها التي بدأت تستعيدها معك،

وكسرت ثقتها النامية بك، وأنا كنت شاهدة على انكسارها، أنت لم تمنحها الوقت الكافي، لتوقن أنك أهل لهذه الثّقة، بل أكدّت كل مخاوفها، ورحت تحطم كل شيء، في غمرة لحظة استشعار لكبريائك المجروحة، قتلت كبرياءها هي دون أن تبالي.

كان زياد يسمع هذه الكلمات، مسترجعا تلك اللّحظات التي وجدها فيها في البيت بانتظاره، وتلك النظرة التي ارتسمت في عينيّها، وهو يهينها خارجا من البيت، يستعيد كلمات صديقه عندما أخبره أنها عرفت أسوأ الرجال، ففقدت الثّقة في باقي الرجال، ليرى الأمور الآن من جانبها هي، امرأة مكسورة لجأت إلى حضنه، آملة في أن يجبر كسرها، لكنه أجهز على ما تبقى منها، كيف لم يدرك ساعتها، أنه كان يؤكد أكبر مخاوفها؟ بأن الحب ضعف، وأن الثّقة لا تجلب معها إلا الخيبة، أن الخيبة انكسار، والانكسار موت، لقد قتلها، هذا ما فعله بها، قتل روحها، لينتصر لكبريائه اللعينة.

نطق فجأة بصوت مخنوق، كأنه يحدّث نفسه بما جناه عليها وعلى قلبه:

ـ لكنني فقدتها، هي الآن تكرهني، كما تكره كل الرجال

لكن ميلي صرخت في وجهه، فاقدة السيطرة على أعصابها، التي يثيرها هذا الرجل الأحمق، حمقا لم ينجو منه أي رجل فيما يتعلق بفهم النساء:

ـ بربك من أخبرك هذا الهراء؟ أنتم الرجال غريبو الأطوار، ألم تتصل بك متلهفة بعد ذلك الحادث؟ لماذا تهتم امرأة إذا كانت قد نسيت؟ كادت تموت عندما عرفت أنك فُقدت في ذلك الحادث، ومنذ رأتك هنا وهي في حالة سيئة جدا، وتخبرني أنت أنها تكرهك.

تكلّم هو بصوت يعود للحياة من جديد:

ـ أيعني هذا أن هناك أمل؟

تنفست ميلي الصعداء وقد فهم الرجل أخيرا وهي تقول:

ـ إذا أردت أنت أن يكون هناك أمل، فستخلقه من أجل الفوز بها، وبثقتها من جديد

انصرفت وقد ضاق خلقها منه، تاركة إياه يعيد التفكير في كل كلمة قالتها، ويسترجع علامات مرّت عليه أثناء زواجه بصوفيا، بعد حوالي نصف ساعة، كان يتجه إليها وقد حسم أمره.

الفصل التاسع عشر:

(فصٌّ من كبدي)

لقد أحببتك بالقدر المميت، الذي قتل فيّ الرغبة

في مقاومة اجتياحك روحي، ولكنني كنت مجروحة

بالقدر الرهيب، الذي منعني من البوح لك،

مخافة أن تتخلى عني، فتنسل مني روحي،

وقد فعلت، تركتني، فغادرتني بعدك روحي

دخل الغرفة ليجدها مستلقية على سريرها، مازال وجهها يبدو شاحبا، وجسدها واهنا، اقترب من سريرها وهي تنظر إليه في تساؤل صامت، ودهشة موجوعة، لماذا عاد؟ ألم تطلب منه الرحيل؟

جلس على الكرسي المقابل لسريرها، ثم قال دون مقدمات وهو ينظر مباشرة إلى عينيّها:

ـ سأتبرع لك بجزء من كبدي

بقيّت تنظر إليه، محاولة استيعاب ما قاله للتو، ثم رفعت يدها تغطي فمها، وتكتم صرخة تخرج منه، وقد فهمت سرّ المتبرع المجهول، الذي ظهر فجأة، لتسمعه يضيف:

ـ أنا الشخص الذي سيتبرع لك بجزءٍ من كبده، لقد طلبت من الطبيب ألا يخبرك، لأنني خشيت أن ترفضي ذلك، لكنني الآن أخبرك بأنه ليس من حقك الرفض، من أجل آدم الذي لا يملك أحدا في هذا العالم سواك، لن ترفضي، من أجل نفسك لأنك تستحقين الحياة، لن ترفضي، ومن أجل قلبي الذي سيموت لو فقدك، لن ترفضي.

بقيت تنظر إليه فاغرة فمها، غير مصدّقة ما تسمعه، فبعد صدمة اعترافه أنه هو من سيتبرع لها، ها هو يعترف أنه مازال يحبها، أو هكذا فهمت هي من كلامه

نطقت أخيرا خارجة من صدمتها:

ـ لن أسمح بذلك، سألغي العملية

ـ لماذا؟

ـ لأنك لست مضطرا لفعل شيء كهذا

جاءها صوته في جدية تامة:

ـ هل أبدو لك كشخص مضطر؟

صمتت قليلا تنظر إليه ثم سألته في دهشة:

ـ لماذا تفعل هذا؟

ابتسم أخيرا في وله افتقدته هي منه، وهو يقول:

ـ تتذكّرين عندما كنت أناديك (لكبيدة ديالي)

رغما عنها اجتاحتها تلك الغصّة في قلبها، وصوته يذكّرها بجملته الحبيبة، التي شرح لها ذات يوم، أنها تعني تصغيرا لكلمة كبدي، وأن العاشق يقولها لمن أصبح يمثل له الكبد، الذي يدخل منه الهواء إلى الجسد، وتجري فيه الدماء.

عندما لم يجد منها ردا واصل حديثه:

ـ العرب ينادون أولادهم (فلذة كبدي) وليس هناك أقوى وأصدق من حب الولد، و نحن في الجزائر نربط الحب بالكبد

كانت تستمع إلى كلماته، دون أن يصلها المغزى منها، حتى سمعته يضيف:

ـ عندنا في الجزائر، عندما يعشق الرجل امرأة ويهيم بها يسميها (لكبيدة) لقد كنتِ أنت (لكبيدة ديالي) ولطالما حلمت أن أكون أنا (لكبيدة ديالك) حتى أستوطنك لتحبيني بالقدر الكافي، لكنني لم أعرف كيف أصل إليك.

وجدت نفسها تجيبه في تأثر، وقد فقدت قدرتها على المقاومة، لم يعد الأمر يستحق أن تخفي أوجاعها وضعفها، وهي على مشارف الموت، قد تغادر هذه الحياة، بعد أيام أو أسابيع قليلة، ما الضّيْرُ

في إخباره الآن:

ـ لقد تخلى عني أربعة رجال قبلك، أولهم كان والدي وآخرهم كان خطيبي، وفي كل مرّة كان يغادرني أحدهم، كنت أقف أمامه بشموخي غير مبالية برحيله، لأنه كان قد وصل إلى نقطة الصفر عندي، تلك النقطة التي لم يعد بعدها رجوع، عداك أنت، حينما غادرتني لم استطع أن أتمسك بشموخي أمامك، كنت تتخلى عني وتعود، وأشرع لك أبوابي، غير مبالية بكبريائي التي كنت تكسرها في كل مرّة، بل وجئتك طالبة أن تعيدني إليك، وأهنتني كما لم يهنِّ رجل قبلك، وبقيت على حبك برغم ذلك، إن كنت أنا بمثابة الكبد بالنسبة لك، فأنت كنت الروح التي تلّبستني، وامتزجت بروحي، فما عدت أفرق بين روحي وروحك، والآن تخبرني أنني لم أحبك بالقدر الكافي، لقد أحببتك بالقدر المميت، الذي قتل فيّ الرغبة في مقاومة اجتياحك روحي، ولكنني كنت مجروحة بالقدر الرهيب، الذي منعني من البوح لك، مخافة أن تتخلى عني، فتنسل مني روحي، وقد فعلت، تركتني، فغادرتني بعدك روحي.

أغمض عينيّه يقاوم الوجع الذي شعر به الآن في روحها المتعبة، يتمنى لو يأخذ تعبها ووجعها، ويحمل عنها آلامها:

ـ لم أستطع استيعاب اكتشافي كل مرّة لحقيقة جديدة تخفينها عني، لم أعرف أنك تتألمين وتكابرين، ظننت أنك بقلبي كنت تلعبين، كنت غبيا، وأنت لم تشرحي لي، لم تساعديني على فهم الأمور، وأنا كنت تائها لا أجد تفسيرا لتصرفاتك.

أجابته هي بحدّة لم تستطع السيطرة عليها:

ـ وستتبرع لي لأنك اليوم تفهم، أم أنك تريد أن تعتذر؟ تلك طريقة غريبة في الاعتذار، الأمر قد يكون خطيرا وله تبعات على صحتك، لست بحاجة لفعل ذلك، أنا أدرك أنني أخطأت أيضا، وأوصلت الأمور بيننا إلى هنا لأنني أخفيت عنك ماضيّ.

ابتسم يحاول تخفيف حدّة الحوار:

ـ سأتبرع لك من أجلي، وليس من أجلك، سأزرع جزءا من كبدي داخل جسمك، لينمو فيصبح كبدا كاملا، وهكذا سأصبح أنا كبدك.

انتظر منها ردا، لكنها كانت تائهة تتأمل وجهه وابتسامته المشاغبة، عندما ظنّ أن المعنى لم يصلها بعد، أضاف وقد انحسرت ابتسامته قليلا:

ـ إذا أصبحت كبدك، سيعني ذلك أنني أصبحت حبيبك الأبدي، وبعدها لن تجرئي على رفض طلبي، لأن كبدي عندك، لن يطاوعك على إيذائي وتخييب أملي

أخافه صمتها ونظراتها التائهة التي تتأمل وجهه، لكنها قطعت هذا الصمت وهي تسأله بجدية:

ـ لماذا ستفعل هذا؟

نظر إليها وقد اختفت ابتسامته:

ـ أبعد كل ما شرحته لك، تسألينني لماذا أفعل هذا؟

فاجأه ردّها المتحفز:

ـ ثم أي طلب هذا الذي ستطلبه مني، ستبتزني لأنك تبرعت لي بفصّ صغير من كبدك؟

ابتسم ابتسامة واسعة، وهو يرى عودة الحياة إلى وجهها، ها هي تتحفز للدفاع عن نفسها منه، حبيبته التي طالما لبست ثوب القوّة، حتى في أضعف حالاتها

ـ الآن أصبح فصّا صغيرا؟ إنه نصف كبدي ذاك الذي سأتبرع به لك على الأقل، كوني ممتنة

أجابته وقد أثار استياءها:

ـ أنا لم أطلب منك شيئا، أنت من تتطوّع ولا أعرف سبب جنونك المفاجئ هذا

اتسعت ابتسامته أكثر، وهو يرى الألوان تعود لتغزو وجهها الشاحب:

ـ لأنني...

صمت وقد قرر العودة إلى لهجته قائلا بعدها:

ـ على خاطر نحبك ونموت عليك، نعشق فيك ونموت بلا بيك، فهمتي يا لكبيدة ولا مازال؟

عادت تتأمل قسمات وجهه، وقد أخرصتها الصدمة والمفاجأة (يا إلهي كم اشتاقت لهجته المتوحشة، عندما يفاجئها بها مجتاحا كل حواسها)

ليضيف هو:

ـ تزوجيني، وأعدك أنني هذه المرّة لن أخذلك، سأنتظرك حتّى تتعلمي الثّقة بي، ولن أرحل مهما حدث، حتى لو طردتني أنت من حياتك، عودي إليّ حبيبتي

بقي ينتظر ردّها، لكنه فوجئ بدموع تترقرق داخل مقلتيّها الحبيبتين، ثم تنساب خيوطا مغزولة على وجنتيها الشاحبتين، لتغمض عينيها وتفتحهما وهي تقول:

ـ أنا امرأة غير صالحة للحب

اقترب منها وقد آلمه قلبه، وهو يسأل نفسه أي ألم تحمّلته هذه المرأة، حتى تصل إلى هذه القناعة اللعينة، أحاط بكفيه وجهها وهو يقول في عشق متيم:

ـ بل أنت كل الحب، أنت أكثر امرأة تستحق الحب، دعيني أعلمك أبجديات العشق، وعلميني أنت أبجديات الصبر، دعيني أزرع بداخلك الثّقة التي ضاعت منك، وأكون لك الأمان، وكوني أنت لي الحبيبة فقط، هذا كل ما أطلبه منك، فقط أحبيني ودعيني أتكفل بباقي الأمور، وأحمل عنك كل الهموم.

تحوّلت نظراتها الآن إلى شجن، خارج من أعماق روحها، كيف يطلب منها أن تحبه وهي تهيم به عشقا؟ ألا يعلم أن غرامه يسكنها؟ وأنه حتى إن أرادت هي ذلك، لا وجود لشعور أكبر مما تشعر به هي اتجاهه؟ لقد وصل إحساسها به إلى منتهى القلب، وبصوت كسير، سمع كلماتها التالية، التي كانت تغادر جوفها بصعوبة:

ـ هناك حقيقة أخيرة أريدك أن تعرفها، وبعدها ستقرّر أنت إن كنت ترغب رغم كل ما ستسمعه مني في التمسك بطلبك؟

ابتعد قليلا يصغي السمع وهو يقول:

ـ كلي آذان صاغية، لكنني أريدك أن تتأكدي ألا شيء بعد الآن سيدفعني للتخلي عنك

ردت وقد زاد شحوب وجهها:

ـ لا تكن أكيدا، قد تغيّر رأيك بعد سماع ما سأقوله

الفصل العشرون

(الصّدمة)

أحبيني بأنانية عاشقة تتمسك بي

وترفض أن تتخلى عني، تزوجيني بأنانية فاتنة

تناضل لتمضي العمر المتبقي معي

ازدردت ريقها واستجمعت قوّاها، وبدأت تحكيه أكبر أوجاعها، وأقسى أسرارها، وهي تحاول السيطرة على رجفة جسدها من أثر الذكرى، وعلى اهتزاز ثبات صوتها من وجع ما ستقوله:

ـ بعد سنة من انفصالي عن والد آدم، تعرّفت على رجل كان يكبرني بخمسة عشر سنة، كان يبدو في غاية الاتزان والرشد، يمثّل كل ما كنت أصبو إليه في حياتي السابقة، ظنّنت أنني وجدت أخيرا السند الذي أبحث عنه، ظروفه المادية كانت جيدة، ووعدني بمساعدتي في الاعتناء بآدم، طلب الزواج بي ووافقت، لأنني كنت مازلت أبحث عن الأمان، وكان لديّ اعتقاد أنني لن أجده إلا مع رجل يحميني ويحمي طفلي، ارتبطنا بخطبة رسمية، وبدأنا سريعا في التحضير لزواجنا، اخترت كل قطعة في ذاك البيت، جهزنا كل شيء، أسبوع قبل زواجنا، اتصلت به، فأخبرني أنه مسافر ليومين، أردت القدوم إلى المنزل لتوديعه، لكنه أصرّ ألا أفعل، أردت أن أفاجأه فأسرعت إلى المنزل، فتحت الباب ودخلت، أبحث عنه، لم أجده في الصالة، فتحت باب غرفة النوم، ووجدته هناك على سريرنا، ذاك الذي اخترته أنا، ولم أجربه بعد، وجدته معها...

تهدّج صوتها وصمتت، بينما كان هو يسمع القصّة، وينتظر نهايتها المتوقعة، صديقة تخون لم تكن يوما صديقة، لكن صدمته كانت كبيرة، وهو يسمعها تكمل، بصوت مخنوق، ومحاولة رهيبة في منع دموعها من النزول:

ـ كان مع والدتي في غرفة نومنا وكانت...

انقطعت كلماتها غير قادرة على مواصلة الحديث، وقد فقدت كل سيطرة على أعصابها، وانفجرت بالبكاء، بكاءٌ كتمته لسنوات طويلة، وهي تحاول أن تتناسى قهرها الذي جاءها من أقرب شخص لها، تغطي وجهها بكفيها، وتنتحب في قهر كاد يقتله، جسدها يرتعش كمن أصابته الحمّى، وصوتها يعلو في نواح أرعبه وأخاف قلبه عليها، اقترب منها وأخذها بين ذراعيه، تركها تفرغ بعضا من قهرها على قلبه، وهو يتمنى لو كان قادرا على حمل كل همومها، قهرها يقتل قلبه الملتاع، صغيرته كم أوجعتها الحياة؟ وزاد هو على هذا الوجع، دون أن يدرك أنه يفعل، حبيبته كم من الشجاعة احتاجت، لتكمل حياتها رافعة رأسها، ترفض أية شفقة من الناس؟ وجعه هي، كم يعشقها بكل وجعها، وكم يتمنى لو يمحو عنها هذا الوجع.

عندما هدأت، واصلت دون أن ترفع وجهها إليه بعد أن انفصلت عنه:

ـ لقد حاولت مسح هذا الرجل من حياتي، ولم يكن الأمر صعبا، في النهاية هو كان شخصا غريبا عني، لم يعنِ يوما لي سوى أملا اكتشفت أنه كاذب، لكن ما حدث منها هي دمرني، أفقدني الثّقة في العالم من حولي، لقد قتلتني هي، المرأة التي كان من المفروض أن تضحي بحياتها من أجلي، كانت تأخذ حياتي مني دون أن تبالي، لم تفكر للحظة أنها تفعل ذلك بي أنا ابنتها، وأن ما تفعله قادر على قتلي.

صمتت برهة ثم راحت تواصل سرد وجعها:

لم أرها بعدها، عادت إلى بلدها الأصلي إسبانيا، وانقطعت أخبارها عني، ما قتلني أن والدتي لم تفكر إلا في نفسها، كانت بتلك الأنانية التي جعلتها تنصاع وراء نزوة، متناسية أنها تخون ابنتها، لطالما كانت قاسية معي، بعد انفصالها عن والدي، كانت لديها رغبة دائمة في أن تبدو أصغر سنّا، كأنها لا تعترف بأنها تتقدّم في العمر، كنت ألاحظ منذ خطوبتي، طريقتها في النظر إليه، غنجها في الحديث معه، في وجوده كانت ترتدي الفساتين

القصيرة، وتتزين بأجمل زينة، كنت أدرك أنه لا يفترض أن تبدو هكذا أمام خطيب ابنتها، لكنني كنت أبرر لها بأنها عادتها، هي دائما تسعى لتبدو أصغر من سنها الحقيقي، كنت أحاول أن أجد لها الأعذار، لم أتخيّل يوما أنها تفعل ذلك متعمدة لإثارته، لم أتخيّل في أسوأ كوابيسي أن والدتي تريد إغواء خطيبي لأنها تريده لنفسها، لكن ما فعلته قتلني، وأفقدني الثّقة بأي شخص في الدنيا، لقد أرادته، من دون كل الرجال، أرادت خطيب ابنتها، خطيبي أنا، لا أعلم ما الذي كانت تريد أن تثبته لنفسها، ولكنها أثبتت لي ألا أحد في العالم يستحق ثقتي، فقدت الثّقة بعدها في سائر البشر، حتى ميلي عانت لفترة من رفضي لها، وابتعادي عنها، لكنها كانت مقدرة لصدمتي الكبيرة، ولم تتخلَ عني، لم تثأر لكرامتها بالابتعاد والتخلي عني، بل بقيت تحاول معي، حتى انتصرت لصداقتنا، وكرهت بعد الذي حدث صنف الرجال، وابتعدت عن كل البشر عدا ميلي وآدم، اخترت الوحدة في عالم مليء بالناس، لأنني لم أعد قادرة على الثقة بأحد.

ابتسمت ابتسامة باهتة وسط دموعها، ورفعت رأسها وهي تضيف:

ـ حتى جئت أنت، وكسرت اللعنة، أخرجتني من وحدتي، وأعدتني للحياة بعد موت روحي، أعدت عندي إحساسي بأنوثتي، وبرغبتي في أن أكون امرأة عاشقة ومعشوقة، أعدت عندي رغبتي في إعادة بناء ثقةٍ وليدة برجل لم يكن إلا أنت، لكنك استعجلت الأمور، جراحاتي كانت كبيرة جدا، وكنت محتاجة لوقت أطول حتى تطيب، أنا لم أكن قادرة بعد على البوح، وأنت لم تكن قادرا على الصبر.

كان هو يسمع هذا الكلام، ويدرك حجم معاناتها، يفهم الآن كل تصرفاتها السابقة، التي كانت تخلق الشك في قلبه، في حبها له، ويفهم الآن أي جهد بدلته، وهي تفتح له الباب الذي أغلقته على نفسها، يفهم ما كان يمثله هو في حياتها، وما فعله بها ببعده عنها، هو يدرك الآن أنها أخفت هذا السرّ في قلبها لسنوات طويلة، وإن كانت تصارحه به اليوم، فهذا يعني الكثير بالنسبة له، يعني أنها تريد أن تبدأ من جديد معه هو، تريده أن يكون عالما بكل ما يؤرقها، وبكل ما أوجعها، يعني أنها أصبحت مستعدة لتركه يشاركها حمل أوجاعها، ومستعدة للمحاولة معه من جديد، سمعها تواصل حديثها:

ـ ذات يوم، جاءني اتصال هاتفي من محاميها في إسبانيا، يعلمني أنها توفيت وتركت لي منزلها هناك، لم أبك يومها، ولم أحزن، لم أشعر أنني أصبحت يتيمة، لأن يتمي الحقيقي شعرت به يوم رأيتها في ذلك المنظر القذر، لم أحضر دفنها، ولم أستطع استلام المنزل الذي تركته لي، إلا بعد سنة من موتها، لم استلمه إلا من أجل آدم، لم أستطع أن أدخله، فكلّفت وكالة كراء للمساكن هناك، والتي تكفلّت بتأجيره منذ ذلك الوقت، وتسليمي مبلغ الإيجار السّنوي، الذي أضعه منذ ذلك الوقت في حساب بنكي لصالح آدم، تحسبا لكون أنه سيحتاجه عندما يكبر، سلّمني المحامي رسالة تركتها لي، لكنني لم أستطع حتى فتحها، أحرقتها، وبقيت أتفرج على رمادها، لم أستطع مسامحتها أبدا، لم أستطع استيعاب كيف لأم أن تؤذي ابنتها كما آذتني هي؟ كيف لأم أن تكون بهذه القسوة؟ كيف استطاعت أن تغرز ذلك السكين في قلب ابنتها؟ لم أتمكن يوما من أن أغفر لها ما فعلته بي، لم يكن الأمر بالنسبة لي رجلا أخذته مني، إنما روحا قتلتها بداخلي عندما قررت أن تحرمني من أمي.

كانت كلماتها توجعه، وهو يستشعر آلامها التي كابدتها طيلة حياتها السابقة، يتخيّل صورة أمه هو بوداعتها وحبها اللامتناهي،

يسأل نفسه كيف يستطيع المرء أن يتحمل غدر والدته؟ كيف استطاعت هي أن تقاوم وتعيش بعد الذي حدث لها؟ يدرك الآن حجم القوّة التي تحلّت بها كل هذه السنوات وهي تخفي هذا السرّ في قلبها المفطور، نظر إليها محاولا زرع دفء روحه في عينيها، وهو يقول بصوت خانته نبرة التأثر فيه، وهو يتلو عليها عهوده، ويعترف بنقائصه:

ـ لن أدعي أنني لن أخطئ، ولا أنني لن أكون أحمقا بعد اليوم، فنحن الرجال في تعاملاتنا مع النساء نتسم بهذه الصّفة، ذلك شيء أقوى منا، ليس هناك رجل استطاع أن يفهم النساء منذ الأزل، لكن ما يمكنني أن أعدك به، هو أنني لن أذخر جهدا في مداواة جراحك، أريدك أن تعرفي أنك مزروعة داخل قلبي، وأنني سأسقيك من الحب والوفاء، والصدق والاهتمام، حتى تزهر روحك من جديد، أريدك أن تعرفي، أنني لن أسمح لأي شخص بعد الآن بإيذائك، لأنني سأكون دائما حارس قلبك وطبيبه، سأحمل معك وجعك ولو استطعت أن أحمله عنك، فلن أذخر جهدا، أريدك أن تعرفي أنني لا أخون، وأنه مهما حدث منك سأحاول دائما أن أسأل، أن أفهم، وأستوعب، وإن لم تجدي القدرة على البوح في وقتها، سأصبر، وأنني دائما سأجد لك العذر،

وأتذكر أنك حبيبتي التي سيوجعني وجعها لو آذيتها، فلا أوجع، بل أصبر وأصطبر.

سمع صوتها الحزين الخائف المتردد:

ـ سأتعبك كثيرا، وستمل وتتركني من جديد

فجاءها صوته مطمئنا يعيد إليها الأمل:

ـ أبدا، فالعمر دونك سجن، كادت تخنقني قضبانه الجاثمة على صدري، والعمر بك جنة مزروعة بورود حبك، اليوم أنا أعرف كل شيء، لا مزيد من الأسرار، واليوم أنت تعرفين أنني قد أقدم حياتي فداءً لأنةِ وجع منك، وليس كبدي فقط، فارحميني واقبلي العودة إليّ.

رغم ابتسامتها، كانت دموعها ما تزال تجري على وجنتيها، فمدّ يده يمسحها وهو يقول:

ـ قولي أنك موافقة، قولي أنك ستتعلمين معي كيف يمر العمر في كنف العشق، يا منتهى العشق.

أجابته مجاهدة رغبةً في قلبها بأن تستجيب وتجيب:

ـ لكنني سأكون أنانية إن قبلت، العملية خطيرة، ويمكن أن يكون لها تأثير سلبي على صحتك

أجابها مطمئنا متلهفا لسماع ردها:

ـ لا تقلقي، الطبيب أكد أن كل شيء على ما يرام، ثم أنني أريدك أن تكوني في قمة أنانيتك معي، أحبيني بأنانيةٍ عاشقة تتمسك بي وترفض أن تتخلى عني، تزوجيني بأنانيةٍ فاتنة تناضل لتمضي العمر المتبقي معي، قوليها، قولي أنك تريدين أن تجربي معي

من جديد.

اتسعت ابتسامتها وأشرق وجهها وهي تجيبه مستسلمة لسيول عشقه التي جرفتها معه، راضية سعيدة، لا رغبة لها في المقاومة أكثر، متلهفة لسعادتها معه:

ـ أريد أن أجرب كيف يكون العيش في كنف (حنوني)

ابتسم هو هذه المرّة، وقد استعملت كلمة من لهجته مرادفة لكلمة (حبيبي) بحائها التي تنطقها مخففة، وقد أيقن أنها قبلت طلبه فراح يؤكد عشقه بلهجته:

ـ نحبك يا لعميرة، نموت عليك

لتضحك وهي تقول له:

ـ وانا نحبك بزاف بزاف

فيبادلها قلبه الضحكة قبل شفتيه، ويمتزج فرحيهما ليصبحا فرحة واحدة لا يتسع لها قلبيهما.

****

الفصل الواحد والعشرون:

(العودة)

أيرفض العبد العاقل

الحضور إلى موعد أعطاه له الله الخالق،

وهو يعلم أنه ينتظره؟

أصبح زياد مواظبا على زيارة غرفتها في المستشفى، يقضي معظم وقته عندها، فاجأته يوما قائلة:

ـ زياد

ـ نعم

ـ أريد أن أصلّي

نظر إليها وقد فاجأته الجملة بدايةً، ثم ابتسم وهو يجيب:

ـ صلِّي

ـ لا أعرف كيف، لا أحفظ أي شيء من القرآن، لا أعرف كيف أصلي؟ ولا ماذا أقول؟ كنت أرى جدّتي تصلي، لكنني أبدا لم أحاول فهم ما كانت تفعله أو تقوله، وعندما كانت تدعوني للصلاة، كنت أتهرب كل مرّة بحجة أو بأخرى، ومع مرضي لا أظنّ أنني قادرة على آداء الحركات التي كانت تأديها جدّتي.

صمتت قليلا وهو ينصت إليها بانتباه، ثم أردفت:

ـ لكنني أريد أن أصلّي لله، أريد أن أطلب منه أن يحفظ آدم، أريد أن أخبره أنني اعتنيت بعطيّته، لكنه إن أخذني الآن ليس هناك

من سيعتني به بعدي، أريد أن أتحدث إليه، كانت جدّتي تقول لي دائما، إذا أراد العبد أن يحدِّث ربه، وقف بين يديه في الصلاة، وناجاه في السجود، لم أستوعب يوما معنى ما كانت تقوله، لكنني اليوم أحسّ برغبة جامحة في أن أجرب، كيف يحدّث الإنسان ربه؟ جدّتي لم تكن تكذب أبدا، وهي عاشت طوال حياتها تكلم ربها في صلاتها، وتجد راحتها على سجادة صلاتها.

كانت جدّتي تخبرني أنه إذا سُدّت الأبواب في وجهي، عليّ أن أطرق باب الله، فإنه باب لا يُطرد منه أحد، ولا يُغلق في وجه سائل، أريد أن أطرق هذا الباب، لكنني لا أعرف كيف؟ لا أعرف السبيل لذلك.

أذهلته كلماتها، وهو يدرك تأثير هذه الجدّة على حفيدتها، حتى بعد وقت متأخر ربما، لكن الوقت لم يفت، أحسّ بتأنيب الضمير، هو يعرف العربية ويحفظ شيئا يسيرا من القرآن، من أيام المدرسة، لكنه لم يكن يوما حريصا على الصلاة، يصلّي يوما ويتركها عشرا، لا يعرف بما يجيبها في مثل حالتها هذه، نظر إليها وهو يومئ برأسه مجيبا، مداريا إحراجه:

ـ سأسال لك في الموضوع وأجيبك.

دخل المسجد مترددا يبحث عن الإمام، والذي قابله بوجه بشوش مبتسم:

ـ السلام عليكم

ـ وعليكم السلام يا شيخ، كنت أريد أن أستشيرك في موضوع معين

ـ تفضل يا ولدي

أجلى حنجرته قبل أن يسأله متحرجا:

ـ لديّ امرأة مريضة، هي الآن في المستشفى وستجري عملية جراحية قريبا، لا تستطيع الحركة بحرية، لكنها تريد أن

تصلّي، ولا تعرف كيف

ـ تصلّي جالسة بحركات رأسها، وانحناء بسيط لظهرها إن استطاعت، وإن لم تقدر فبعينيها

ـ هي قادرة على الحركة البسيطة في مكانها، دون القدرة على الوقوف

ـ إذن برأسها هكذا

وراح يشرح له الكيفية بحركات يجسدها أمامه، عندما فهم زياد سأله مرة أخرى:

ـ المشكلة يا شيخ أنها لا تحفظ أي شيء من القرآن، ولا تجيد العربية

فيأتيه رد الشيخ بصوته الهادئ:

ـ يمكنك أن تصلّي بها حتى تتعلم الصلاة، وتُحفِّظها سورة الفاتحة، يمكنها الصلاة بها وحدها، فاتحة الكتابة كافية وافية حتى تحفظ غيرها

ـ والوضوء شيخنا؟ هي غير قادرة عليه

ـ تتيمّم يا بنيّ

سأل زياد مرة أخرى على استحياء:

ـ وكيف تفعل؟

ـ تُحضر لها حجرا صغيرا بحجم كف اليد، وتفعل هكذا

وبدأ الشيخ يطبق حركات التيمم، مبتسما يحاول إبعاد الحرج عن الشاب الذي يجلس أمامه مرتبكا، شارحا الأمر لزياد، وهو يضيف:

ـ تضرب الحجر ضربة واحدة بيديها، ثم تمسح بهما وجهها وكفيها

شكره زياد، هاما بالمغادرة، لكن الشيخ استوقفه وهو يسأله:

ـ أتصلّي أنت يا بنيّ؟

لم يشأ زياد الكذب وهو في بيت اللّه فأجاب محرجا:

ـ أحيانا، وأتركها أحيانا أخرى

فيأتيه ردّ الشيخ في صوت دافئ رزين، شارحا غير معاتب، مرغبٍ لا مرهب:

ـ ألا تعلم يا ولدي، أن الصّلة بين العبد وربه هي الصلاة، وأن من حافظ عليها حافظ على صلته بربه، ومن أهملها أهمل صلته بخالقه، أيرفض العبد العاقل الحضور إلى موعد أعطاه له الله الخالق، وهو يعلم أنه ينتظره؟

هزّ زياد رأسه نافيا، لا يجد ما يردّ به، مدركا صِدق كلامه

فيكمل الشيخ ناصحا:

ـ عد إلى الله يا ولدي، حتى يعود هو إليك بعطاياه ورضاه، وأنصحك بالصّدقة، فقد قال رسول الله عليه الصلاة والسلام (داووا مرضاكم بالصّدقة) ألم تسمع بقصّص الناس التي شفيت من أمراض ميؤوس منها، بعد أن تصدّقوا بنية الشفاء، تصدّق على مريضك بنية الشفاء، اصدق العمل، واصدق النية، والله لن يضيعك أبدا يا بنيّ، لا تتخلّف عن موعدك مع الله، ولا تفرّط في صلتك مع خالقك.

وضع زياد يده في جيبه، يهمّ بإخراج ما يملك من مال في جيبه، لكن الشيخ أوقفه بحركة يده وهو يقول:
ـ هناك جمعيات إسلامية هنا، تتكفل بجمع الصّدقات وإيصالها إلى المحتاجين

دلّه على ثلاث منها، وهو خارج يودّعه ويدعو له بالسداد والثبات.

في الغد توجه زياد إلى البنك، استخرج مبلغا من المال ووضعه في حساب الجمعيات الثلاث، بنية شفاء صوفيا، ثم اتجه إلى السوق، وقام ببعض المشتريات، وعاد أخيرا إلى المستشفى.

جلس على الكرسي المقابل، وهو يضع الكيس من يده، على السرير وهو يقول مبتسما:

ـ لقد أحضرت لك شيئا

ـ تهللت أسارير وجهها، كطفلة صغيرة فرحة بهدية العيد، تنتظر أن يُخرج ما في الكيس، فنثر على السرير شيئا من قماش أبيض اللون وهو يقول:

ـ اشتريت لك إسدال الصلاة

أخذت صوفي قطعتيّ القماش، تضمّهما إلى وجهها، تستنشق رائحتهما، كأنها تبحث عن عطر معين، لكن نظرة عينيها انكسرت خِذلانا، كأنها لم تجدها، محتارا منها ومن تصرفاتها سألها:

ـ ماذا هناك؟ ألم يعجبك؟ يمكنني أن أغيره

اغرورقت عيناها بدموع، تجاهد كي لا تنزل، وهي تقول بتأثر:

ـ كانت جدّتي دائما متلحفة بردائها الأبيض، كانت تملك خمسة أو ستة منه، تخيطها عند امرأة عربية مسلمة، وترفض أن ترتدي من عند غيرها، ما إن رأيته حتى رأيت جدّتي في ثوبها وخمارها الأبيض، بان لي طيفها واضحا، حتّى كدت أخاله حقيقة، كنت أكيدة أنني سأجد ريحها في هذه الثياب، لكنني لم أجدها.

انكسر صوتها ألما، انكسر معه قلبه وجعا، وهو يدرك أن هذه الفتاة لم تعرف يوما سوى حب جدّتها، القلب الوحيد الّذي أحبها قبله بصدق، قبل أن يدخل هو دنياها، لم يجد ما يقوله لها، وهل تكفي أية تعزية أمام قدر موت الأحبة؟ أخرج حجرا صغيرا يمدّه إليها وهو يترحم على جدتها ويقول:

ـ الشيخ الذي سألته، قال أنه يمكنك أن تتيممي بهذه، ويمكنني أن أصلي بك حتى تتعلمي الصلاة، وسأحفظّك سورة واحدة من القرآن تصلين بها.

ـ سورة واحدة هل ستكون كافية؟

ـ بداية، إلى أن تتعلمي غيرها، سأعلمك سورة الفاتحة

كان زياد قد توضأ، قبل دخوله إلى غرفتها تحسّبا للصلاة، أعطاها الحجر الصغير، وبدأ يعلمها كيفية التيمّم به، ثم شرح لها ما سيفعله وكيف ستتبعه هي، ثم قام مكبرا بعد أن ارتدت إسدال الصلاة، وصلى بها إماما، بينما تتبعه هي بحركات وانحناءات بسيطة، وهي تسمع صوته الشجي يرتل شيئا من القرآن، اقشعر له جسدها كلّه، عندما سلّمت بعده، رفع يديه إلى السماء يدعو ربه في صمت، وكان قد شرح لها أن تفعل مثله وتدعو بما تريده، فوجدت نفسها تبكي ودموعها تجري على خديها، غير قادرة على قول شيء، ثم ارتفعت شهقاتها فالتفت هو إليها مفزوعا، ونهض إليها مسرعا يسألها عن سبب بكائها، فأجابته بكلمات متقطعة، ودموع غزيرة:

ـ لا أعرف كيف أكلمه، لا أعرف ما أقول له

كان يريد لحظتها أن يضمّها إلى صدره، ويهدئ من روعها، كان يريد أن يخفيها داخل قلبه، ويأخذ كل وجعها وضياعها، لكنه لم يفعل شيئا، سوى أنه قال مستجمعا قدرته لإيجاد كلمات مناسبة:

ـ المهم أنك وصلت إليه، حدثيه بأي لغة تعرفينها، هو سيفهمك، حدثيه بقلبك إذا عجز لسانك، هو سيسمعك في كل الحالات،

سيفهمك وسيستجيب.

لم يعرف زياد، من أين أتته هذه الكلمات التي نزلت بلسما على قلبها، وتسببت في توقف دموعها، نظرت إليه نظرة امتنان وشكر، هي حتى الآن لم تشكره على ما فعله من أجلها، ابتسمت وهي تقول له:

- شكرا على إسدال الصلاة، وعلى حجر التيمم، شكرا على المصحف المترجم إلى اللغة الفرنسية، وشكرا لأنك عدت دائما إلى حياتي برغم كل تعقيداتها، شكرا لأنك هنا، شكرا لأنك أول من صلى بي وأخذ بيدي إلى الله

اتسعت عيناه بدايةً، دهشة، ثم ضاقت حرجا، وهو يسمع كلماتها، هي لا تعلم أنه انقطع عن الصلاة لشهور طويلة، وأنها هي من أعادته إليها، البارحة بعد خروجه من المسجد، توجّه إلى المنزل واغتسل الغُسل الأكبر، ثم توضأ وصلى، كما لم يصل قبلا، ودعا ربه كما لم يدعه يوما، دعاه ألا يفجع قلبه بصوفيا، أن يشفيها، حتى لو أخذ روحه هو بدلا عنها، كانت مناجاة غريبة، بكلمات متعثرة، لكنه استشعر إحساسه بالراحة، وهو يجد من يشكوه

همه، ويوكّله أمره وأمر قلبه، وأمر من تسكن قلبه، ابتسم محاولا إضفاء بعد المزاح على كلامه، لكنه كان جادا في بعض كلامه:

ـ لا تغرّنك المظاهر، أنا لست بهذا النبل الذي أبدو عليه أحيانا، ربما أدّعي ذلك حتى أغريك فقط

ابتسمت وهي تجيبه:

ـ لستَ بحاجة للادعاء، كل شيء فيك يغريني

اتسعت ابتسامته، وارتجف قلبه بداخله وهو يجيبها:

ـ لا تعبثي بشياطيني، انتظري حتى نتزوج وافعلي

تخضّبت وجنتاها خجلا، زاد من جنون قلبه، وكلماتها تكاد تفقده تعقله:

ـ لم أقل إلا الحقيقة، أنا واقعة تحت تأثير إغراءك منذ ذلك اليوم الذي التقيتك فيه بإسبانيا، تحاول أن تتفاهم مع البائع بلغة لا يفهمها، وتشرح بحركات يديك ما تقوله

انفجر هو ضاحكا، كم تبدو ساذجة حبيبته، وهي لا تدرك ما تفعله به بكلماتها:

ـ منذ أول لحظة، وتركتني أركض وراءك كل هذا الوقت

ابتسمت محاولة مشاغبة قلبه:

ـ كنت أتدلل عليك، ألا أستحق الدلال؟

اختفت ابتسامته وهو يكرر جملته، بجدية أكثر هذه المرّة:

ـ بل لا يليق الدلال بغيرك، لكن توقفي عن العبث مع شياطيني، أنا بالكاد أسيطر عليها

لكنها لم تتوقف، لاهية بسذاجة امرأة تتعرف على الحب أول مرّة، وتدرك أن ما قبله كان ضياعا فقط وتشبثا بسراب، تجرب تأثيرها على رجلها، أجابته مبتسمة:

ـ لماذا؟ ما دخل شياطينك؟

غمز لها بعينه، وابتسامته تعود إلى وجهه:

ـ عندما نتزوج، سأحتفل بك أنا وملائكتي، وسأدعو شياطيني لتشاركني الاحتفال، ساعتها ستعرفين ما دخل شياطيني.
هذه المرّة لم تستطع منع ضحكتها المرتفعة، ليشاركها هو سعادتها وفرحها.

****

الفصل الثاني والعشرون

(بين حياةٍ وموت)

ها أنا ضيف ببيتك، فلا تردني،

حتى لو كنت ضيفا غير مرحبٍ به،

ولا أمتلك صفات ضيوفك، لكنك مازلت الإله،

الذي لا يرد ضيفا وقف ببابه

في اليوم الموالي عندما جاء زياد لزيارتها، استدعاه الطبيب إلى مكتبه، عندما عاد من عنده كانت تبدو على وجهه علامات الانزعاج، فسألته:

ـ ماذا هناك؟
جلس على الكرسي المقابل وأجابها بنبرة جادة:
ـ أريد أن أخبرك شيئا
ـ ماذا؟
ـ الطبيب يظننا متزوجان، لقد أخبرته بذلك عندما قابلته أول مرّة
ـ ولماذا فعلت ذلك؟
ـ ما كان ليعطيني أية معلومة عن حالتك، لو لم يتأكد أنني زوجك
ـ وكيف تأكد؟
ـ أريته عقد زواجنا، أنت تعلمين أننا لم نوثق طلاقنا أبدا.

سألته وهي تتوجس من نقله هذه المعلومة، بعد مرور كل هذا الوقت:
ـ وما الذي جدّ، هو يعرف هذا من يومها إذن؟

رفع يده يفرك شعر رأسه، فيبدو لها كطفل صغير أوقع نفسه في ورطة:
ـ كان يخبرني أن التليّف الكبدي ليس معديا، قال أنه رآني أتجنب لمسك وتقبيلك
اتسعت ابتسامتها وهي تسأله في خبث مشاغب:

ـ وماذا أجبته؟
ـ أننا مسلمين، وفي ديننا الأشياء الحميمية لا نمارسها أمام الملأ

انفجرت ضاحكة وهي تقول:
ـ مجنون

فضحك وهو يجيبها ممازحا:

ـ أعلم ذلك، لكنني لم أكن هكذا قبلا، أقسم لك كنت أعرف بتعقلي،

أصبحت كذلك منذ أن عرفتك فقط.

انسحبت ابتسامتها، ليحل محلها الوله الذي لم يفهمه هو، فأضاف مؤكدا:

ـ على العموم الكذبة بيضاء، فنحن سنتزوج قبل دخولنا غرفة العمليات

ـ نتزوج؟

لم يكن سؤالا بقدر ما كان عدم استيعاب، تريد أن تصدّقه ولكنها تستبعده.

فأجابها مضيفا مزحه، محاولا تخفيف وقع المفاجأة عليها:
ـ وهل تظنين أنني سأتبرع لك بنصف كبدي، لكي أتركك لرجل آخر؟

ابتسمت وهي تجيبه، وقد أبعدتها جملته عن لب الموضوع:
ـ لم أكن قبلك صالحة لأي رجل آخر، لأكون صالحة بعدك لأي رجل غيرك.

انسحبت ابتسامته هو هذه المرّة، من وقع اعترافها على قلبه الضعيف بشدّة عشقه لها:
ـ أخبرتك قبلا أن تتوقفي عن العبث مع شياطيني
أومأت برأسها متفهمة هذه المرّة فأضاف هو:
ـ أريد أن أخبرك سرّا
اقترب برأسه منها، وأدنت هي رأسها تسمعه، فقال بصوت هامس، كمن ينقل سرّا خطيرا، وملامح الجدية ترتسم على وجهه:
ـ لقد عقدتُ اتفاقا مع شياطيني، أخبرتهم أنك مريضة، وأننا لا يمكن أن نستغل الأمر، لكن بمجرد شفائك سنفعل الأفاعيل، لم أجد وسيلة أخرى لكبت جماحها، لكنني بعدها لا أضمن لك حتى نفسي.
ـ خرج صوتها متسائلا، تجاريه برسم الجدية على ملامح وجهها:
ـ أنت وشياطينك؟

فأجاب هو بنفس الجدية:

ـ نعم، إنها خدعة، لكن لا تخبريهم بذلك، تعلمين أنني سأمنع عنك حتى ملائكتي، أنت لي وحدي أنا.

أومأت متجاوبة معه، في جدية مفتعلة، سحبت وجهها، متكئة على ظهر سريرها، بينما ابتسامة مشاغبة تتراقص على شفتيها نظر إليها شزرا، يدّعي الحزم، رافعا أصبعه مهددا:

ـ لا تضحكي

وضعت كفها على فمها، تكتم ابتسامتها، فأردف قائلا:

ـ إياك أن تضحكي

اتسعت ابتسامتها، وهي تحاول كتم ضحكة تجاهد للخروج، لكنها فشلت فانفجرت ضاحكة، بينما مازال هو يجاهد ليبقى على جديته، ثم انفجر هو الآخر مشاركا إياها نوبة الضحك تلك، عندما استعادت أنفاسها سمعها تقول:

ـ مجنون، لو لم تكن مجنونا أصلا، لما تبرعت بنصف كبدك لامرأة غريبة عنك، بكل عقدها ووساوسها

أجابها وقد غادرته ابتسامته:

ـ أعلم أنني مجنون، لكنني أعلم أيضا أنك لست غريبة عني، لقد كنت زوجتي، وغدا ستعودين كذلك.

اغرورقت عيناها بالدموع وهي تسأله:

ـ أهي مزحة؟

صمت قليلا، ثم أردف بحنو يروي روحها المتعطشة:

ـ أنت توأم روحي، خُلقتِ من أجلي أنا فقط، ولم أخلق أنا إلا لك وحدك، وغدا سنعقد قراننا من جديد، سيكون هنا الإمام والشاهدين حسين، هو الآن موجود في فرنسا، ومعه مراد صديق قديم من الجزائر، وعندما نعود إلى الجزائر سأقيم لك حفل زفاف يليق بك وبما أحمله لك من حب وتقدير.

سؤالها جاء مترددا، لكنها كانت تريد أن تفهم فقط:

ـ ولماذا لا ننتظر حتى عودتنا إلى الجزائر؟

اقترب اقترابا جعل مشاعرها تضطرب، وهي تسمعه يجيب بنبرة هادئة محاولا إخفاء خوفه:

ـ لا أريد أن أخاطر، أريد أن ندخل العملية ونحن زوجان، مهما حدث بعدها، أنت زوجتي هنا في الدنيا وفي الآخرة.

كمنومين مغناطيسيا، بقيا ينظران إلى بعضهما في صمت رهيب، يداعبهما هذا الحلم الذي يتخلله هذا الخوف من القادم، كلاهما يعرف أن العملية ليست مضمونة، يمكن أن يخرج منها أحدهما دون الآخر، ويمكن أن لا يعودا بعدها إلا جثتين هامدتين، سمعا صوت الطبيب متنحنحا، يقطع هذه اللحظات السحرية، يجلي حنجرته لإثارة انتباههما:

ـ سيد زياد أحتاج أن أحجزك هنا بعد غد، للتأكد من حالتك الجسدية واستعدادك للعملية

استعاد هو ثباته وهو يجيب:

ـ لا مشكل سأكون هنا

ـ قبل خروجك مرّ عليّ بمكتبي، من فضلك

ـ حسنا

انصرف الطبيب، فوقف زياد يودع صوفي، خرج من الباب وهو يدرك أنه أرعبها، فعاد مطلا برأسه، قائلا في مرح أجبر نفسه على استحضاره، حتى ينسيها قلقها:

ـ لا تخبريهم

أشارت بأصبعيها على فمها كمن يغلق سحابا، وقد فهمت أنه يقصد شياطينه، بينما غمز لها بعينه، وانصرف يصفر نغما راقصا بين شفتيه، لتبتسم وهي تضع يدها على قلبها وتردد:

ـ مجنون، حنوني مجنون.

****

في الغد، كان الإمام يعقد قران صوفيا على زياد، في حضور الشاهدين حسين ومراد الصديق القديم من الجزائر، وزّعت الحلوى والمشروبات على نزلاء المشفى كلهم، من أطباء وعمال ومرضى، البعض لم يفهم كيف يتزوج المتزوجان، باعتبار أن الشائع هناك أن زياد زوج صوفيا، والبعض اعتقد أن ذلك شيء قريب من عقيدة أهل البلد هنا، المتمثلة في تجديد عهود الزواج بإحضار القس وحضور الأحباب والأصدقاء، لكن الفرحة كانت منتشرة في مكان تعوّد على الحزن، بينما اليوم يحتفل بالفرح، كانت ميلي حاضرة أيضا بجانب صديقتها وكذلك آدم فرحا نشيطا، رغم أنه لم يكن يفهم الذي يحدث، لكنه كان سعيدا بوجود زياد ووالدته، يتمرغ في حجر أمه هنيهة، ويعود أخرى ليتعلق برقبة زياد، الذي يحمله مرحبا مستبشرا.

بعد ساعات من الفرح والمرح انسحب الجميع، تاركين العروسين وحدهما، وأخذت ميلي آدم معها، أغلق زياد الباب بعد مغادرة ميلي، استدار ينظر إلى عروسه، بدت صوفيا مرهقة لكنها كانت سعيدة جدا، لم تغادر البسمة وجهها، اقترب منها وجلس على السرير بجانبها، أمسك وجهها بين يديه واضعا قبلة طويلة مراعية، على جبينها:

ـ مبارك يا زوجتي، هذه المرّة إلى الأبد.

تلقت قبلته بارتعاشة حاولت السيطرة عليها، كم اشتاقته، يا الله أهكذا كان تأثيره عليها دوما، أم أنه الفراق ما يجعل اليوم، لمسة بسيطة منه تربكها هكذا، خرج صوتها مهزوزا متأثرا:

ـ مبارك حنوني

ابتسم لاختيارها هذه الكلمة بالذات، فأجابها وكأنه لم يرها منذ مدّة طويلة، ولا كأنه يقضي أيامه عندها في المشفى منذ أيام:

ـ توحشتك يا لكبيدة، توحشتك بزاف

فلتت منها ضحكة شاهقة، لم يستطع تمييزها أكانت شهقة بكاء أو ضحك، إلا وهو يرى تدحرج دمعاتها على خدها:

ـ ألن تتوقفي عن إيلام قلبي بدمعاتك، أتبكين الآن؟

سيطرت على بكائها وهي تجيبه متولهة:

ـ وهل يليق بهذا الحدث إلا البكاء فرحا، مرّ عليّ وقت ظننت أني سأموت دون أن أراك أو أودعك حتّى، وها أنا اليوم جالسة معك وقد عدتُ زوجتك، فأي ردة فعل قد تليق بهكذا لحظة.

أحنى رأسه ينظر إليها، في عشق ملتهب وهو يقول:

ـ يمكن أن تعانقيني مثلا، أن تعبري عن اشتياقك لي

ضحكت خجلا وقد احمرت وجنتيها، فابتسم منتشيا وهو يرى تأثيره عليها، ثم أردف قائلا:

ـ لا بأس، أعانقك أنا إذن

ثم أتبع القول بالفعل، ومدّ ذراعيه يحتضنها برقة مراعيا مرضها وتعبها، فمدّت ذراعيها هي الأخرى تحتضنه بقوة وهي تقول:

ـ أيعلم الغائب أنه لو أهدى حبيبه حضنا لداوى جراحاته؟ أيعلم الناس أن الحضن قوّة نهديها لمن مسهم الضعف؟
شدد هو في حضنها قليلا وهو يجيبها:

ـ لا أعلم، لكنني أعرف الآن، أن في حضنك أنتِ الحياة.

بعد ساعات قضياها مستلقيان وقد أهداها صدره وسادة، تحرك زياد ليغادر، لاستعداده لحجزه في الغد في المشفى، كانت ساعات جميلة لم يتمادى فيها عن أكثر من احتضانها، وهو يدرك أن حالتها لا تسمح بأكثر من ذلك.

بدا لها عاشقا صبورا، حاضرا بتفهمه وسنده، الذي لم يبخل به عليها، وما زادها ذلك إلا ولها به، وعشقا له.

****

في اليوم التالي، كانت تستلقي على فراشها بالمستشفى، وهي تضمّ طفلها إلى حضنها، كان نائما، لكنها كانت تحدثّه بصوت خافت، وكأنه يسمعها ويفهم ما تقول:

ـ أنا لم أتخل عنك حبيبي عندما أوكلت بك إلى ميلي، أمك لم تتخل عنك، لقد كنت أحاول أن أؤمن مستقبلك قبل أن أرحل، كنت أحاول أن أطمئن عليك، وذلك أقصى ما استطعت توفيره لك، أنا أحبك صغيري، أنت أغلى ما في دنياي يا قلب أمك، فلا تظنن أن ما فعلته كان سهلا عليّ، لكنني أبدا لم أقصد التخلي عنك.

سكتت برهة وهي تمرّر أصابعها بين خصلات شعره الناعمة، وتفكّر في القادم، برغم كل شيء مازال الخطر موجودا، العملية صعبة ولا تخلو من مخاطر، كما أن جسدها قد يتقبل كبد زياد وقد يرفضه، خطر الموت مازال محدقا بها، وهي مازالت تخشى على طفلها إن رحلت وتركته وحده، والآن أصبحت تخشى على زياد أيضا من العملية.

فتح الطفل عينيه ينظر إليها، وهي تواصل حديثها كأنه سيفهم ما تعنيه:

ـ إن لم أعد ستعتني بك ميلي، لقد رتبت لك الأمور المادية حتى لا تحتاج لأحد، وميلي سترافقك، زياد أيضا سيكون حاضرا في حياتك، لا تغضب مني إن لم تجدني، أنا لم أختر الرحيل يا حبيبي، لم أختره، دوما اخترتك أنت حتى في أحلك أيام حياتي كنت أنت اختياري، لكنني هذه المرّة لا أملك حق الاختيار.

ابتسم آدم وهو يسمع كلماتها، لكنه فاجأها بقوله:

ـ هب مع ماما (أذهب)

فراحت تجيبه نافية:

ـ لا يا قلب ماما، أنت ستبقى وستكبر وتتحسن، وستعذر ماما

أجابها بكلمات متقطعة:

ـ دم مع ماما

قبّلته على خده وضمّته أكثر:

ـ ستكبر يا قلب ماما، وستكون شابا رائعا

كان هو يقف عند الباب، يسترق النظر إليهما ويسمع حديثها، يعتصر قلبه خوفا من القادم، لكنه يخفي خوفه عنها، دخل تكاد عينيّه تحتضنهما، اقترب منهما وجلس، بينما تنظر إليه نظرة عاشقة، لا تصدِّق بعدُ أن حبيبها عاد إليها، مدّ آدم ذراعيه فانتشله زياد، وعانقه وهو يسأله:

ـ أتريد أن تذهب في نزهة مع زيدو؟

ليجيبه الطفل مرفرفا بكلتا يديه في سعادة فائقة:

ـ زهة، زهة زيدو (نزهة)

فيبتسم وهو يضمّه إلى حضنه، وينظر إليها مطمئنا وهو يقول:

ـ مهما حدث سيكون آدم دوما مسؤوليتي أنا، لكنك ستخرجين من العملية سليمة، لأنك ستقاومين مثلما قاومتِ طيلة حياتك، وستعودين من أجل آدم ومن أجلي

ابتسمت له وقد اغرورقت عيناها بالدموع تأثرا، وهو يعدها بشكل غير مباشر أنه سيعتني بطفلها لو حدث لها أي شيء، مدّ يده ليحتضن يدها وهو مازال يعانق طفلها وهو يقول:

ـ عديني أنك لن تتخليّ عنا، عديني أنك ستقاومين من أجل العودة إلينا، كلينا، أنا وآدم.

لم تكن تستطيع أن تعده أنها ستعود، لكن ما كانت متأكدة منه أنها الآن أصبح لديها سببين للمقاومة، ستقاوم بشراسة من أجل طفلها الذي يحتاجها، ومن أجل هذا الرجل الذي يبثُّ الحياة في قلبها، ابتسمت ودموعها تخونها منزلقة على خديها، وهي تجيبه بصوت مختنق من أثر العشق به:

ـ أعدك

ترك يدها ليرفع كفه ماسحا دموعها وهو يقول:

ـ توقفي عن إيلام قلبي بدموعك، توقفي يا وجعي عن البكاء

لم تتمالك هي نفسها، فأخذت كفه التي تمسح على خدها وراحت تقبل باطنها وهي تقول:

ـ سأتوقف يا شفائي، وسأقاوم لأعود يا بلسم أوجاعي أنت.

قبل هو كفها وهو يرد:

ـ لو تعلمين مكانتك داخل هذا القلب، لعرفتِ أنك أنت شفاءه وبلسمه، والحياة له.

****

قبل دخوله للمستشفى في اليوم الموالي، ليحتجز استعدادا للعملية، قرر زياد أن يقوم بزيارة مهمة، ربما كان قد تأخر في آدائها، لكن الوقت لم يفت.

داخل المسجد، صلى ركعتين ثم شرع في مناجاة ربه:

ـ يا رب لا تقتلني بها، إن كنت ولا بد قاتلي، فخذني إليك ولا تؤذني فيها، دعها تعيش، إن لم يكن من أجلي، فمن أجل ابنها، آدم بحاجة إليها، أنا لا يحتاجني أحد

صمت لا يعرف كيف يناجي هذا الرب، الذي ابتعد عنه طويلا، أغمض عينيه يستشعر هيبة المكان، وعظمة المناجى، ثم عاد

يقول:

ـ أنا ببيتك، جئت إلى بيتك، جئت إليك أرجوك، لطالما سمعت والدتي تقول أن الضيف لا يُرد، وأن أعظم الضيوف هم ضيوف الرحمان، وأكرم مضيف هو الله، وأن المساجد بيوت الرحمان

يسكت قليلا متأثرا ثم يضيف :

ـ ها أنا ضيف ببيتك، فلا تردني، حتى لو كنت ضيفا غير مرحبٍ به، ولا أمتلك صفات ضيوفك، لكنك مازلت الإله، الذي لا يرد ضيفا وقف ببابه، فلا تردني، يا الله دعها تعيش، لا تقتلني بها، فإني بها حي ومن دونها أموت، يا رب إنها كانت سببا لعودتي إليك، فلا تفجعني فيها.

صمت بعدها طويلا، يبحث عن كلمات أخرى، توصل توسلاته لهذا الإله، خوفه ورعبه من فقدها، لكن الكلمات لم تسعفه، فتمسك بكلمة واحدة، كان يدرك أنها كافية وراح يرددها:

ـ يا رب، يا رب، يا رب...

****

الفصل الثالث والعشرون والأخير

(اعترافات أخيرة)

أي شقاء ذاك الذي يتمرغ فيه من يتعب ولا يؤمن

أن صلاة قد تريحه، من يحتار ولا يدرك

أن دعوة قد تقود خطواته، من يحزن ولا يعرف

أن مناجاة قد تأتيه بالفرج وتبعث الفرح في قلبه

(مفكّرتي العزيزة، لا تستغربي أنني لم أنادك اليوم بالتعيسة، فقد عرف الفرح طريقه أخيرا إلى قلبي، مرَّ وقت طويل لم أحدثك فيه، ولم أكتب لك، اعذريني، كانت لديّ ظروفي الخاصة.

لقد تمت العملية بسلام، وأكد الطبيب أن جسمي تقبّل كبد زياد دون أية مشاكل، وكيف لا يتقبّله، وهو جزء مني وأنا جزء منه.

عندما استفقت بعد العملية بحثت بعينيّ عن زياد ولم أجده بجانبي، انتابتني حالة رعب وأنا أتخيل الأسوأ، حاول الطبيب بعدها تهدئتي، وأخبرني أنه قد تمّ تحويله إلى غرفة أخرى، وتمّ عزلي تجنبا لأية مشاكل أو عدوى، وأن هذا الإجراء هو الطبيعي بعد العملية، طلبت منه أن أراه حتّى أصدّق فرفض، قال أن في ذلك خطر على صحتي، وأنني لا يمكنني أن أغادر الغرفة إلا بعد مدّة معينة، فطلبت منه ان يأتيني بورقة أكتب فيها رسالة يوصلونها لزياد، وأن يأتوني برد منه، وأن يطلبوا منه أن يكتب لي فيها جملته التي أميّزها وأتأكد بها أنه هو من كتب الرسالة.

جاؤوني بورقة بيضاء وقلم، فكتبت له:

(كيف حالك زياد

نحبك بزاف حنوني

طمئني عليك)

عندما جاءتني الورقة المطوية منه فتحتها لأقرأ:

(أنا بخير الآن، بعد أن تلقيت ورقتك

بمجرد استيقاظي، طلبت منهم رؤيتك، لكنهم أعلموني أن في ذلك خطر عليك، أنك معزولة لمنع تعرضك لأي جرثومة أو فيروس، قلقت جدا إلى أن جاءتني رسالتك

أنا فقط مشتاق

توحشتك يا لكبيدة توحشتك بزاف)

عندما قرأت آخر جملة تيقنت من أنه هو من كتب الرسالة فعلا، كنت سعيدة جدا لأنه بخير، وسعيدة لأنه مثلي أراد رؤيتي بمجرد استفاقته.

أخبرنا الطبيب أن الجزء المتبقي من كبد زياد وكذلك الجزء المزروع بداخلي سينموان ليصبحا كبدين كاملين، ولكن ذلك سيأخذ وقتا لا يقل عن الشهرين كأقل تقدير.

مفكّرتي العزيزة،

لقد أدركت أنني وزياد كنا منذ الأزل روح واحدة افترقت على جسدين، تهت عن روحي لسنوات طويلة، ووجدتها أخيرا، لأنني

وجدته، لقد أدركت أخيرا، أنني لم أكن موجوعة من حبٍ مع من سبقه من الرجال، أنا كنت موجوعة من الضياع، ضياع بحثي عنه في وجوه كل الرجال، دون أن تتعثر خطوات قلبي بقلبه، وجع الحب الوحيد الذي عانيت منه فعلا، هو غدر والدتي، وذاك ما كاد يقضي على روحي، حتى وجدته هو أخيرا، فأنقذني وأعادني إلى نفسي، وأعاد لي روحي.

مفكرتي العزيزة:

غربتي كانت سبب ضياعي منذ البداية، بين اختيار خاطئ من والدي للمرأة التي ستكون أم أولاده، وبين عدم وعي هذا الوالد لفنون التربية الصحيحة وضوابطها، زرعني في مجتمع يخالف دينه، ولا يمت بصلة لتقاليده ومبادئه، ثم أرادني أن أمشي أنا عليها عكس التيار، دون أن يعلّمني كيف أواجه هذا التيار، ودون أن يمسك بكفي ويمشي معي بداية هذا الطريق حتى أتقن السير وحدي، لم يعرف كيف يتعامل معي فراح يمارس إرهاب سلطته كوالد عليّ، ولم أجد أنا من حل سوى الهروب من سلطته، ركضت أبحث عن حريتي، لكنني في كل مرّة كنت أرتمي في قيد جديد غير مدركة لما أفعله بنفسي، كنت مجرد مراهقة تبحث عن حريتها وأمانها، كنت أريد أن أجد حبا واهتماما، ولم أدرك

ساعتها أنه عليّ أن أحب نفسي أولا، لم أتعلم كيف أحمي نفسي، لأن من يفترض بهما أن يعلماني ذلك لم يفعلا، والدي علمني كيف تكون القسوّة، ووالدتي علمتني كيف يكون الغدر وكيف تكون الخيانة قاتلة، أنا اليوم أشفى منهما لأني تعلمت أشياء أخرى، تعلمت من زياد كيف يكون الحب وكيف تكون التضحية، تعلمت مع ابني آدم كيف يكون العطاء وكيف يكون تقبل من نحب على اختلافهم، تذكّرت أيضا بعدما كنت قد نسيت، كيف يكون دفء العائلة الذي علمتني إياه جدّتي قبل موتها، أنا اليوم أتعافى ببطء، وأتعلم كيف أعطي وكيف أثق، اليوم تعلمت معنى الشعور بالأمان، ذلك الشعور الذي افتقدته طيلة حياتي السابقة.

مفكّرتي العزيزة

لا أعلم إن كنت سأكتب لك مرّة أخرى، وأحكيك قصصي الجديدة، لكنني أردت أن أخبرك، لأنك كنت وفية في الاستماع إلى أوجاعي، فأردت أن أشاركك أفراحي، زياد بخير، العملية لم تترك أي مضاعفات عليه، وأنا كذلك.

كلّف زياد محاميا في الجزائر، من أجل البدء في إجراءات حصولي على الجنسية الجزائرية، أخبرني أن القوانين الجزائرية

ليست معقدة، بخصوص هذا الأمر، كبعض الدول خاصة العربية منها، ففي الجزائر يكفي أن يكون أحد الوالدين من جنسية جزائرية، حتى يستطيع الابن الحصول عليها.

أردت أن أخبرك أننا تزوجنا في المستشفى قبل العملية، وقريبا سيقيم لي عرسا أمام أهله وأصحابه، سيعلنني زوجة له أمام العالم بأكمله، أنا التي رغم ماضيّ، لا أشعر أنني كنت زوجة لرجل غيره، وكأنني فتاة غرّة تعرف رجلا لأول مرّة في حياتها، أكتشف معه مشاعر لم أعرفها من قبل، أكتشف نفسي وأنوثتي في حضرته، أشعر معه كمراهقة تخوض تجربة حبها الأول.

أدركت أن ما كان قبل زياد لم يكن إلا عبثا، فعندما تزوجت زوجي الأول، كان مجرد طيش مراهِقة، تهرب من سيطرة والدها، وعندما تزوجت الثاني، كان لأن والدي طردني من حياته ومن بيته، فلم أجد أين أذهب، وعندما تمت خطبتي على الثالث، كان ذلك لأنني كنت أخاف مسؤولية تربية آدم وحدي، وهو وعدني أن يعتني به من أجلي، كلهم في النهاية أخلفوا وعودهم، كلهم تخلوا عني.

هو فقط من صان وعده، هو فقط من لم يتخلَ عني، هو من حماني بروحه، ومنحني قطعة من جسده، أدركت في النهاية أنني لم أعشق رجلا غيره، لم يكن قبله، ولن يكون بعده، هو فقط من كان لي وطنا وموطنا.

خائفة بعض الشيء من القادم، أنا مقبلة على حياة جديدة، في أرض لم أعرفها إلا من حكايات جدّتي، لكنني واثقة من شيء واحد، أنني سأفعل كل ما يجب لكي ينجح زواجنا، لقد وجدت أخيرا الراحة والطمأنينة مع زياد، وسأسعى جاهدة للحفاظ على ما وجدته، أريد أن أكون سعيدة وسأكون، أريد أن أسعد زياد وسأفعل، أريد أن أربي آدم في عائلة محبة وسيحدث، أريد أن أنجب أطفالا وأزرع في داخلهم الحب.

سأفعل كل هذا لأنني أخيرا عرفت أن هناك من يقول للشيء كن فيكون، عرفت أن لي ربا أتجه إليه بخوفي ورجائي ودعواتي، أحيانا أعود إلى الوراء بتفكيري، وأدرك الفرق بين البارحة واليوم، أشفق على أولئك الذين لم يعرفوا الله، أية تعاسة يعيش فيها المرء وهو لا يجد له ملجأ ولا منجى لأنه لم يعرف الله، أو لم يصدق فطرته ولم يترك قلبه يأخذه إلى الله،

أي شقاء ذاك الذي يتمرغ فيه من يتعب ولا يؤمن أن صلاة قد تريحه، من يحتار ولا يدرك أن دعوة قد تقود خطواته، من يحزن ولا يعرف أن مناجاة قد تأتيه بالفرج وتبعث الفرح في قلبه، اليوم أنا شاكرة لهذه الأقدار التي قادتني لمعرفة الله.

آدم يتحسّن ببطء، لكن المهم أنه يفعل، تحسّن في رياضته، وعلاقته مع زياد تطورت بشكل رائع، يخرجان أحيانا في نزهة وحدهما كوالد وابنه، ويعود بعدها آدم للبيت سعيدا يحكيني يومه، بدأ زياد في تعليم آدم العزف على القيثارة، عزفه ليس مبهرا، لكن زياد لا يبالي ولا يفقد الأمل، يخبرني دائما أن هؤلاء الأطفال دائما ما يكونون عباقرة في شيء مميز خاص بهم، وأن آدم سيكون يوما عبقريا يذهل عزفه العالم بأسره، لا يهمني أن يصبح كذلك أولا يصبح، المهم عندي أنني أرى هذا التطور في علاقة أحب رجلين إلى قلبي، فتملأني سعادة ما كنت أظن يوما أنني سأبلغ ربعها، أنا سعيدة، عرفت أخيرا معنى السعادة، أنا عاشقة، أنا أم محبة، ما عساي أطلب أكثر من ذلك.

في النهاية، شكرا لك مفكّرتي العزيزة، شكرا على صبرك على أوجاعي)

الخاتمة:

(بين أحضان الوطن)

وماذا أصنع

إن كان القرآن أقوى من فرنسا؟

عاد زياد وصوفيا إلى الجزائر، على متن نفس الباخرة السياحية، التي عقد قرانهما عليها ذات يوم، كان آدم يلعب أمامهما، وهما يشاهدان البنايات البيضاء، التي تنبئ بقرب الوصول إلى ميناء الجزائر، (الجزائر البيضاء) كما يطيب للفرنسيين تلقيبها، متحسّرين إلى اليوم، على ضياعها من بين أيديهم، هم من حاول أجدادهم بكل ما أوتوا من جهد، وحيلة وقوّة، جعلها (الجزائر الفرنسية)، لكنها أبت إلا أن تبقى، (الجزائر الجزائرية)، لتبقى حسرة في قلوبهم إلى اليوم، تذكّرت صوفيا لحظتها حكاية حكتها لها جدتها يوما، أن حاكم فرنسا بالجزائر كان ينادي بضرورة إزالة القرآن من وجود الجزائريين، واقتلاع اللّسان العربي من حديثهم، فأشرف الفرنسيون على تعليم مجموعة من الطالبات الجزائريات لسنوات طويلة، في مدارس فرنسية، محاولين زرع الروح والهوية الفرنسية بداخلهنّ، ويوم تخرجهنّ أعدت لهن حفلة تخرج كبيرة دُعي إليها الوزراء والصحفيون والمفكرون لكنهم فوجئوا بصعودهنّ على المنصّة، ترتدينّ الزي التقليدي الجزائري (الحايك الأبيض) كتأكيد على تمسّكهن بهويتهن الجزائرية، وكرسالة مؤكدة، أنه مهما فعلت فرنسا، فلن تستطيع طمس هاته الهوية التي تسكن روح كل جزائري حر، حينها ثارت ثائرة

الفرنسيين وكتب الصحفيون يتساءلون (ماذا كانت تفعل فرنسا إذن في الجزائر لأكثر من قرن؟) فأجاب لاكوست وزير المستعمرات الفرنسية (وماذا أصنع إن كان القرآن أقوى من فرنسا؟).

ها هي حفيدتها، التي عاشت في الغربة طيلة حياتها، تعود اليوم إلى جذورها، وإلى هويتها.

قالت بغصّة مختنقة بالحنين، وصورة جدّتها تمتثل أمام عينيها:

ـ عاشت جدّتي حياتها كلها، تشتاق لهذه الأرض، كانت تتحدث عنها وكأنها قطعة من الجنّة، وتقول أن أرضا سُقيت بدماء مليون ونصف مليون شهيد، لا يمكن إلا أن تكون جنّة على الأرض، معطرة بريح مسك الشهداء.

أجابها وهو غير قادر -كعادته دائما عندما يذكر الرقم أمامه- على منع نفسه من تصحيح المعلومة:

ـ رحمها الله، هل تعلمين أن مليون ونصف مليون، هو عدد الشهداء الذين ماتوا منذ اندلاع الثورة في سنة 1954 فقط، بينما

العدد الكليّ لشهداء الجزائر، فاق السبعة ملايين شهيد منذ سنة 1830 وإلى غاية الاستقلال سنة 1962.

أجابته وقد صدمتها المعلومة الجديدة:

ـ لم أكن أعرف ذلك، رحمهم الله جميعا، هذا عدد كبير جدا

فأجابها موضحا أكثر:

ـ العدد مهول بالمقارنة مع عدد الجزائريين حينها، فرنسا لم تذخر جهدا في القضاء على الجزائريين، العزّل منهم قبل المقاومين، حاولت طمس هويتنا بمنع اللّغة العربية وفرض اللّغة الفرنسية في المدارس، بعد أن كانت قد منعت التعليم ليعم الجهل، لكن الجزائريين تمسكوا بتحفيظ القرآن لأبنائهم، عندما استشعرت فرنسا الخطر سمحت بالتعليم، لكن بلغتها هي، لكن الجزائريين تعلموا لغتها ليحاربوها بها، ويوصلوا صوتهم الثائر للعالم، ولم يتخلوا أبدا عن لغتهم العربية.

صمتت هي متأثرة، تشعر بفخر انتمائها لهذا الوطن، تتأمل من بعيد وطن جدّتها في شوق، ثم قالت:

ـ كم تمنيت لو أنها عرفتك، كانت ستحبك جدا

فقال هو ممازحا، محاولا تبديد حزنها:

ـ أحبيني أنت مرّتين، مرّة عنك، ومرّة عنها

أجابته مبتسمة:

ـ طماع أنت، تدير كل الأمور لمصلحتك

فيجيبها ضاحكا:

ـ هذه تهمة أدحضها إلا في حبك، أعترف أني أطمع دائما أني تحبيني أكثر

قالت وهي تنظر إليه بوله مراهقة، ترى بطل أحلامها:

ـ لا أعتقد أن قلبي سيحتمل أكثر من الحب الذي أحمله لك فيه

وضع يده على قلبه وبصورة درامية مال إلى الوراء وهو يقول:

ـ قلبي الصغير لا يتحمل

انفجرت هي ضاحكة وهي تجيبه:

ـ أرغب في تقبيلك

رفع سبابته وقد اتسعت عيناه دهشة، محذرا برغم ابتسامته التي أنارت وجهه:

ـ إياك، نصف ركاب الباخرة عرب، وهذا عندنا غير جائز

أشارت بأصبعيها، تضمّ طرفيّ إبهامها وسبابتها:

ـ قبلة صغيرة على خدك

ابتسم يجيبها، مداريا شوقه لمجاراتها:

ـ سيراك الناس، وتعلمين أني أغار، سأرتكب جريمة قبل الوصول إلى الجزائر

ضحكت هي قائلة:

ـ حسنا، لا أريد أن أكون عروسا، بدون زوج ليلة عرسي.

أجابها غامزا بعينه، وقد ظهرت غمازته على خده:

ـ إذن ابقي عاقلة، حتى يتم زواجك على خير

فبادلته الابتسامة، وقلبها يغرق فيه أكثر:

ـ مضطرة أنا.

***

كانت ترتدي (الكاراكو) ذاك اللباس التقليدي الجزائري العاصمي الذي يعود للقرن الخامس عشر، المصنوع من قماش مخملي باللون الأزرق الملكي، والمطرز بخيوط ذهبية من (الفتلة والمجبود)، لباس زادها جمالا وفتنة، وتقدم هو يرتدي بدلة أنيقة، على أكتافه (البرنوس) التقليدي الجزائري.

تبدو هي فاتنة في عينيه، وفي عينيّ كل من حضر العرس، وكان هو يبدو شامخا، وقد أعطاه (البرنوس الأبيض) هيئة فارس من فرسان الزمن الجميل.

دخل آدم بينهما، فحمله زياد مبتسما، يبدو كوالد فخور بابنه، لا يبالي باختلافه، كان آدم في غاية الجمال والوسامة، وهو يرتدي بدلة أنيقة على مقاسه الصغير، يتساقط شعره الأسود الناعم على جبهته، ويزيده احمرار خديه الطبيعي جمالا وبراءة.

احتضنته أمه تقبّله، ليقترب والديّ زياد، يشاركان العروسان فرحتهما، وقد أيقنا أنها الأقدار، عندما تجمع لا أحد يمكنه أن يفرّق، وأن سعادة ابنهما أهم من أي أحلام أو طموح، مادام قد وجد سعادته في طريق آخر، فليلاحقها، وليكونا هما عونا له، قبلا

بصوفيا وابنها كجزء من عائلتهما، عملا على احتضانهما مذ عاد بهما زياد إلى الجزائر، تعلما الدرس وتقبلا اختيار ابنهما.

حضرت (ميلي) العرس، سعيدة من أجل صديقتها، التي وجدت روحها الهائمة، ميناءً ترسو عليه لتستريح أخيرا.

علمت صوفي أن ميلي انفصلت عن زوجها، كانت تبدو وكأنها تجاوزت الأمر، النظرات المتبادلة بينها وبين مراد صديق زياد كانت تشي ببداية قصّة جديدة، هذه المرّة بين امرأة فرنسية أصلاً وجنسيةً ومسيحية الديانة، ورجل جزائري مسلم، القصّة لن تكون سهلة، بينهما تاريخ وصراع، ونضال وديانتين، هل يمكن لهذا الحب أن ينجو كما نجا حبهما هي وزياد؟ الأيام سترد على هذا السؤال، ربما هي رواية قادمة، ستكتبها الأيام.

كذلك حضر رضوان وزوجته من مدينة وهران، استعاد زياد علاقته بهذا الصديق الذي التقاه صدفة على الباخرة، والذي كان ملاذا لزياد يبثه حيرته وقتها، هي صداقة تنمو بين العائلتين الصغيرتين، حتى بين صوفيا وزوجة رضوان.

من بعيد، كانت تتقدّم إليهما امرأة مسنّة ممتلئة الجسم، تمشي بروية، تتوكأ على عصاها، يغطي جسدها عباءة بيضاء، وعلى رأسها توشحت بخمار أبيض مطرز بزهور فضية صغيرة،

يتبعها شابتان وثلاثة رجال، اتسعت عينا صوفيا وهي تنظر للمرأة التي تبتسم لها، كان بها شبه كبير من جدّتها، بل وكأن طيف هذه الأخيرة، خرج من قبره ليحضر زفافها، استفاقت على صوت زوجها بالقرب من أذنها قائلا:

ـ هذه ابنة خال والدك، شقيق جدّتك وهؤلاء أبناؤها.

تحوّلت نظراتها إليه غير مصدّقة هذا الذي تسمعه، بينما يبتسم هو لها ويردف:

ـ لقد أحضرت لك عائلتك، بحثتُ عنهم ودعوتهم لحفل زفافنا

أعادت نظراتها للمتقدمين نحوها، تتفحص وجوههم وإحساس غريب يختلج صدرها، خوف من عائلة لا تعرفها، هي التي لم تعرف يوما معنىً للعائلة سوى جدّتها، فرح يزاحم هذا الخوف يريد أن يستقر في قلبها، وقد أصبحت تنتمي لعائلة، حنين، حنين رهيب لضمّ هذه المرأة التي تشبه جدّتها، لعلها تجد بها رائحة الغالية الراحلة.

وصلت المرأة والدموع تغشي عينيها البنيتين، (يا إلهي كم تشبه عيناها عينا حبيبتها الغائبة)

مدّت المرأة ذراعيها لتقترب صوفيا منها، فتضمّها الأخرى وهي تبارك لها وتناديها

(تعالي إلى حضني يا ابنة أخي)

فتتعجب صوفي من هذا اللقب، ومن هذا الحنان الفائض، ومن هذا الشعور الذي يدفعها إلى احتضانها هي الأخرى، فتمدّ ذراعيها تحتضنها وتنفجر تبكي في حضنها، غير مدركة حتى سببا لبكائها، فتضمّها المرأة أكثر وهي تقول:

ـ لا تبك يا قلب عمتك، ها قد عدت إلى بلدك ولن نتركك بعد اليوم.

فيزداد بكاؤها وهي تتمرغ في حضن ورائحة جدّتها، في حضن عمة لم تعرف لها وجودا قبلا، لولا زوجها، عمة هي في الحقيقة ابنة خال والدها.

سلّمت بعدها على أبناء عمومتها، الذين باركوا لها ولزوجها زفافهما، وتقدموا يتعرّفون على والديّ زياد، استدارت هي إلى زياد قائلة في دهشة وتأثر واضحان:

ـ لقد أحضرت لي عائلتي؟

فيرد هو مبتسما:

ـ لو كنت أملك القدرة على إحضار جدّتك من قبرها لفعلت، لو كنت أملك أن أعطيك الدنيا ما تأخرت، لا أريدك أن تشعري بالغربة، هنا وطنك، هنا أصلك، وهنا أنا، سأكون دائما موجودا لأجلك.

مدّت يدها ليحتضنها بكفه العريضة وهي تجيبه:

ـ أنت وطني، وعائلتي، وعشقي، وكل عالمي.

فتحتضن عيناه عيناها، ويذوب الوجد في قلبيهما.

الفتاة المشردة عادت أخيرا إلى موطنها الأصلي، حيث جذورها، وقد علمت أن موطنها حيث يسكن قلب زوجها، وقلبه كان يستوطن هذا البلد، بلد الثورة والثوار، بلد (الرجلة) والرجال، أين يضحي الرجل بروحه من أجل امرأته، ويهبها بعضا من جسده، حتى يسكنها، هنا في الجزائر، عادت صوفيا امرأة حرّة من كل قيود الماضي المؤلم، وقد طابت جراحاتها، بعد طول نزيف، كاد يقضي على نقاوة روحها، وهنا هدأت أوجاع قلبها.

الآلام لا تُنسى، ستبقى حيّة دائما، فبقدر المحبة ومكانة الشخص في القلب، بقدر قوة الضربة التي تتلقاها منه وهو يخون، هكذا هي أبجديات الألم، على قدر حبنا، يكون وجعنا، وعلى قدر ثقتنا تكون خيبتنا، لكن الآلام تهدأ وتستكين، عندما تجد الدواء

المناسب، والجراحات تطيب عندما تجد المرهم الجيد، وصوفيا وجدت أخيرا من يسّكن جراحاتها، ويطبب أوجاعها.

يا قلبها من أوجعك؟ سؤال لم يعد مهما، المهم اليوم يا قلبها لقد وجدت دواءك وشفاءك، يا قلبها لقد وجدت من فهمك، استوعبك، فأسعدك، يا قلبها لقد عثرت أخيرا على موطنك.

هنا وجدت صوفي نفسها التي افتقدتها منذ زمن بعيد، وهنا كان زياد يصنع عالما له ولعائلته الصغيرة، فتح مشروعه الخاص، المتمثل في قناة فضائية خاصة، تخدم قضايا الوطن وتدافع عن المظلومين، قناة كانت صوتا للمحتاجين والمساكين، مازال ينتمي للجمعية التي تطالب باعتراف فرنسا بجرائمها في الجزائر وتقديم اعتذارها، واسترجاع رفات الشهداء، مازال يتابع قضية التفجيرات النووية الفرنسية في الصحراء الجزائرية، طُلب منه العودة إلى الحزب الذي كان عضوا فيه لكنه رفض، ربما يوما ما سينشئ حزبا جديدا بروح متمردة وعقول شابة، وربما سيكتفي بالصحافة، مازال العمر أمامه ليقرر.

****

عشيّة عيد الاستقلال، يوم الثالث من يوليو، طائرة تحلق في الأجواء الجزائرية، يحيط بها سرب من الطائرات الحربية الأصغر حجما، تنزل الطائرة على أرضيّة مطار هواري بومدين، وفدٌ كبير بانتظارها يتقدمهم رئيس الجمهورية، ورئيس أركان الجيش الجزائري، وزراء ومسؤولون جزائريون وعدد من الصحافيين من بينهم زياد، لنقل الحدث العظيم الذي طالما انتظره الجزائريون، والذي ناضل زياد مع من ناضلوا من أجل حدوثه، أعضاء من الجيش الجزائري يحملون صناديق على أكتافهم ينزلونها من الطائرة، الصناديق مسجاة بالعلم الوطني، يتقدمون بها في إجلال، تنحني الجباه احتراما واعترافا بفضل أصحابها، الذين ثاروا وناضلوا من أجل استقلال الجزائر، توضع الصناديق بخشوع وقد سُمح بإلقاء النظرة الأخيرة وقراءة الفاتحة على الشهداء في قصر الثقافة، قبل دفنهم في مقبرة العالية في مربع الشهداء، في ذكرى يوم استقلال الجزائر الخامس من يوليو، بعد أكثر من مائة وسبعون عاما، عاد الشهداء إلى أرضهم التي قاتلوا من أجل استعادتها، ها هي أرضهم اليوم تستعيدهم، تحتضنهم وتحررهم من أسر المتحف في أرض المغتصب، ها هي أرواحهم ستعرف الراحة أخيرا، يستعيد زياد صور النضال

في الجمعية لاستعادة رفات الشهداء، بدأ الأمر باكتشاف (علي فريد بلقاضي) لوجود الجماجم في متحف الانسان بفرنسا، وبدأت المطالبات منذ سنة ألفين وإحدى عشر، ثم بعريضة أصدرها الأستاذ المحاضر (إبراهيم سنوسي) أمضى عليها أكثر من ثلاثين ألف شخص، وبدأ بعدها العمل الجمعوي للمطالبة باسترجاع رفات شهداء الجزائر، واستبدت فرنسا التي كان برلمانها قد صادق سابقا على قانون يمجد الاستعمار في الدول الإفريقية، سنوات طويلة من النضال ليعود الشهداء إلى أرضهم، إحساس بالفخر، بالامتنان، بالانتصار يسكن قلب زياد في هذه اللّحظات كما يسكن قلب كل جزائري، شعور بالعزة والكرامة يتضخم في قلب كل جزائري، أخيرا ترضخ فرنسا وتعيد ما سلبته ليكرّم الشهداء بعد أكثر من مئة وسبعين عاما من الاغتراب، أخيرا يمكن لكل جزائري أن يخاطب الشهداء قائلا (لقد وفينا بالعهد، واصلنا النضال ومازلنا، أعدناكم إلى الأرض التي أعدتموها لنا)

ولم يكن هذا إلا أول الثمار، مازال زياد يناضل من أجل وطنه، والطريق طويل وصعب، ولكنه يستحق العناء، أيقن أنه ليس ضروريا أن تكون سياسيا حتى تدافع عن وطنك، ليس ضروريا

أن تكون في ميدان السياسة لتكون مفيدا في وطنك، بل أن تلبي عندما يناديك الوطن، تأكد له أن خدمة الوطن، تكون بالإخلاص له في أي عمل، تكون بحب هذا الوطن وتقويم تصرفاتك قبل تقويم تصرفات الآخر، تكون في أبسط الأشياء، حتى في عدم رمي ورقة على الطريق العام، التجديد يبدأ من نفسك، والإصلاح يكون عندما نصلح أنفسنا، الوطن لا يعلو بالشعارات، إنما بالعمل، وأول من يعلّيه، أبناؤه، أولئك الصادقون الذين ورثوا حب الأرض من أجدادهم، أولئك الذي بقوا على العهد مهما قست الظروف، لأنهم يدركون أن الوطن ليس بساسته، إنما بأرضه، وترابه، وأبنائه، أولئك الذين ظلّوا على القسم (وعقدنا العزم أن تحيا الجزائر.. فاشهدوا، فاشهدوا، فاشهدوا) ولتشهد الأرض بمن فيها والسماء من عاليها، أن للجزائر أبناء صادقين، يفدونها بالروح والدم والجسد، مهما ابتعدوا فإنهم يحملونها في قلوبهم.

عالمه الجديد لن يخلو من المصاعب والعثرات، لن يخلو من المشاكل والتحديات، لكنه عالم يستحق أن يزرع فيه نبتة الحب، على أمل أن تزهر يوما ورود الطمأنينة والأمان، بين قلوب تتوق إلى الراحة والاستسلام، هذه ليست إلا بداية الطريق لحياة جديدة، حياة ملؤها الحب والتسامح، وشعارها استرجاع العزة والكرامة.

بدأت الحكاية بلقاء في إسبانيا، ثم رحلة موجعة في فرنسا، ليعود الفرح هنا في الجزائر ليجمع بين زياد وصوفيا، وهنا في أحضان الوطن، يستمر النضال، ويطيب الوجع.

تمت بحمد الله في: 2020/09/20

كتبت ما بين سنتيّ: 2018 و2020

لطيفة قرناوط

الفهرس

الفصل الأول: صدفة اللقاء وتورط الاعتراف

الفصل الثاني: خطبة ففرار

الفصل الثالث: فراق فلقاء فزواج

الفصل الرابع: المواجهة

الفصل الخامس: الزيارة المفاجئة

الفصل السادس: أهي النهاية؟

الفصل السابع: حنينٌ إلى الجذور

الفصل الثامن: فضيحة، وعرسٌ

الفصل التاسع: لكبيدة

الفصل العاشر: الانهيار

الفصل الحادي عشر: الماضّي يعود، والشوق لا يموت

الفصل الثاني عشر: قلب يحتضر

الفصل الثالث عشر: رداء الخزي

الفصل الرابع عشر: شبح الموت

الفصل الخامس عشر: ندم ورثّاء

الفصل السادس عشر: طفل مختلف

الفصل السابع عشر: تجارب نووية
الفصل الثامن عشر: المكاشفة
الفصل التاسع عشر: فصٌّ من كبدي
الفصل العشرون: الصّدمة
الفصل الحادي والعشرون: العودة
الفصل الثاني والعشرون: بين حياة وموت
الفصل الثالث والعشرون: اعترافات أخيرة
الخاتمة: بين أحضان الوطن